

مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

التطور الموجه

بين العلم والدين

د. هشام عزمي



التطور الموجه

بين العلم والدين


بسم الله الرحمن الرحيم



مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

التطور الموجه

بين العلم والدين

د. هشام عزمي



التطور الموجه بين العلم والدين

تأليف: د. هشام عزمي

مراجعة لغوية: محمد عادل

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٦

رقم الإيداع: ٢٧١١٢/ ٢٠١٥

الترقيم الدولي: ٨-١٦-٦٥٤٥-٩٧٧-٩٧٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (دار الكاتب) أو (مركز براهين) وإنما عن وجهة نظر المؤلف.

دار الكاتب للنشر والتوزيع

الهاتف: ٠١٢٧١٠٣١٢١٨(٠٠٢) - ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)

للتواصل: info@dar-alkateb.com - fb.dar-alkateb.com - t.dar-alkateb.com

إهداء

إلى أحب الناس إلى قلبي

إلى أبي وأمي

أسأل الله جل وعلا أن يعينني على برهما

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

الإسراء: ٢٤.

المؤلف



«مركز براهين» لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية هو مركز بحثي مستقل، يعمل كمؤسسة غير ربحية مرخصة في لندن بالمملكة المتحدة، ويُعنى فقط بالعمل في المجال البحثي الأكاديمي لتوفير إصدارات متعددة (كتابية - مرئية - سمعية) على درجة عالية من الدقة والموضوعية والتوثيق يسعى من خلالها لتحقيق رسالته.

• رؤية المركز: عالم بلا إلحاد.

• رسالة المركز: المساهمة النوعية في تفكيك الخطاب الإلحادي ونقد مضامينه العلمية والفلسفية وأبعاده التاريخية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية وبناء التصورات الصحيحة عن الدين والإنسان والحياة ومعالجة النوازل العقدية انطلاقاً من أصول الشريعة ومحكمات النصوص كل ذلك بلغة علمية رصينة وأسلوب تربوي هادف.

BRAHEEN CENTER

for Studying Atheism

and Contemporary Issues of Faith

27 Old Gloucester Street, London,
United Kingdom, WC1N 3AX

• سياسة المركز: يعمل المركز بشكل أساسي على نقد أصول ومظاهر الإلحاد الحديث نقدا منهجيا، مع مراعاة البعد النفسي للمتلقين بمختلف فئاتهم، والحرص على تركيز النقد على الأطروحات الأساسية للخطاب الإلحادي الحديث. كما تنتهج مخرجات المركز أساليب الإفحام، والنقض، والدفاع وكذلك أساليب البناء والإقناع والهجوم وتقديم البدائل قدر الإمكان. وتنحصر مخرجات المركز بشكل رئيسي في ثلاثة مجالات عريضة: علمية، فلسفية، شرعية.

الموقع الرسمي: www.braheen.com

للتواصل والاستفسارات العامة: info@braheen.com

لمراسلة رئيس مجلس الإدارة: alshehri@braheen.com

فيسبوك: fb.braheen.com　　تويتر: t.braheen.com

يوتيوب: y.braheen.com　　انستجرام: i.braheen.com

لماذا هذا الكتاب؟!

يشاكس بعض المسلمين باستماتة لإقناعنا بما يسمى بالتطور الإلهي أو الموجه Theistic Evolution، بالرغم من أن غالبيتهم يفتقرون إلى اطلاع حقيقي على هذا المنهج الملفق! والنتيجة الطبيعية لذلك هي تناقض فوق تناقض في أدبياتهم المنشورة. وبعيدًا عن التناقضات العلمية والمنهجية الجسيمة –سواء في المنهج الغربي أو في الصورة العربية المشوهة– التي لا يتسع المجال لشرحها هنا، فالحقيقة التي لا يمكن إغفالها أننا حين نطالع أفكار أشهر دعاة التطور الموجه في الغرب أمثال فرانسيس كولينز –في كتابه (لغة الإله)– وكينيث ميللر –في كتابه (Only a Theory)– نجدهم يتبنون التطور الداروني العشوائي باعتباره التفسير الوحيد الحقيقي لأشكال الحياة على الأرض، ويرفضون أي احتمال لتدخل مصمم ذكي أو خالق. والأمر لديهم أن (الإله) في سبيل خلق العالم استخدم عمليات عشوائية لكي يحقق غاياته! وهو بذلك لا يختلف كثيرا عن الربوبية Deism –التي تدعي أن الله قد خلق العالم وتركه–، وفي الصورة العربية نجد استساغة غريبة للتطور والتصميم!

المشكلة الكبرى التي نحن بصددها، هي عدم إدراك إخواننا من المؤيدين لهذا المنهج لحقيقة أن تلك القوانين وضعت لتكون بديلا عن الإله وليست أدوات بيده، فالطفرات والانتخاب الطبيعي كآليات طبيعية لتفسير التنوع الحيوي لن يكون لها أي معني إذا كان هناك تصميم مسبق ومسار واضح وتدخل مستمر في العالم لتطبيق أهداف مقررة سلفا.

وكما يحكي ديفيد كوامن في كتابه (داروين مترددا) أن مبدأ الانتخاب الطبيعي قد اقتلع فكرة الهدف الرباني من جذورها، وأجهز تماما على أي نزعة غائية في العالم الحي، وقوض الاعتقاد السابق بأننا نحن البشر –خلافًا لكل أشكال الحياة الأخرى– نسمو روحيًا ونحظى بمنزلة ربانية خاصة ونحوز جوهرًا غير مادي مخلد، وهو ما يمكننا من أن يكون لنا توقعات خاصة بالأبدية، ولذلك اصطدم داروين مباشرة مع المسيحية واليهودية والإسلام، وربما مع معظم الديانات الأخرى.

ولدت فكرة الانتخاب الطبيعي على يد كلا من داروين ووالاس، وفيما عدا داروين نفسه، لم يكن هناك من يفهم الانتخاب الطبيعي بأفضل من والاس، بل في الحقيقة كان حماسه المفرط يفوق أحيانًا حماس داروين نفسه. وبسبب فهم والاس لتلك العلاقة الصفرية بين الانتخاب الطبيعي والإله الموجه، المتحكم، القيوم، تراجع عن تأييده لفكرته السابقة ونشر في عدد إبريل من مجلة The Quarterly Review لعام ١٨٦٩ مؤكدًا على أن الانتخاب الطبيعي لا يمكن أن يفسر المخ البشري، وأشار لضرورة تواجد ذكاء متحكم يراقب عمل قوانين الطبيعة ويوجه التغيرات لإنتاج العقل البشري بروعته. ويكفي لفهم حال داروين بعد أن رأى ما كتبه شريكه، معرفة أن ما كتبه على هامش نسخته من المجلة كلمة واحدة فقط: «كلا!!».

يدرك أنصار التطور الموجه بالغرب معنى التطور جيدا، لذلك لم يتجرأوا على انتزاع مضمونه بإسقاط آلياته المحورية، وحين نطالع كتابات أحد أهم منظري هذه الفكرة فرانسيس كولينز في كتابه (لغة الإله) –والذي احتفى به كثيرون كدليل على الإيمان– نجد أنه لا يعدو كونه عرضا مكررا للداروينية الحديثة ممتزجا بـ "افتراض الكاتب الشخصي" بأن الله استخدم التطور كطريقة للخلق، بل أن عنوان الكتاب مضلل للغاية، فلغة الإله يعني بها الشفرة الوراثية وهي اللغة التي تكتب بها المعلومات

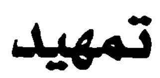
المُشكِّلة للحياة، ومنها يتوقع القارئ خلال فصوله أنِ يقوم كولينز بتبرير زعمه وتقديم الأدلة بأن الشفرة الوراثية أتت من قبل الله، لكنه يصاب بالإحباط، فكولينز لا يقول أي شيء كهذا على الإطلاق، لكنه يضع اعترافًا بالجهل حول منشأ تلك اللغة فيقول في الصفحة ٩٢: «لا يمكن لعالم جاد في الوقت الحالي أن يزعم أن التفسير الطبيعي لأصل الحياة قريب... هذا صحيح اليوم، لكنه قد لا يكون صحيحًا غدا». لكن حتى هذا الاعتراف بالجهل مجرد قناعة مؤقتة زالت في الصفحة ٢٠٠ من كتابه حين قال: «بينما الآلية المحددة لأصل الحياة على الأرض تظل غير معروفة، فإنه بمجرد نشأة الحياة، سمحت عمليات التطور والانتقاء الطبيعي بتطوير التنوع والتعقيد البيولوجي على مدى فترات زمنية طويلة للغاية، وبمجرد حدوث التطور لم تعد هناك حاجة لتدخل فوق طبيعي، إننا ليس لدينا أدني فكرة عن أية آلية طبيعية لأصل لغة الإله». فرانسيس كولينز المنظر الأشهر للتطور الموجه بالغرب فرغ إلهه من كل صلاحياته التي قد تؤهله لذلك، ويبقى إيمانه به دخيلًا متناقضًا على المادية، لا يبرره إلا بالطبيعة الروحية المميزة لنا نحن البشر.

الخلاصة؛ فكرة الإله الموجِهُ للتطور الدارويني لا يمكن أن تستقيم مع قيوميته وكماله، وتجعل من وجوده فرضًا دخيلًا زائدًا على التفسير، وفي أكثر التفسيرات تنزلا يمكن وصفه أنه إله يتعمد إخفاء وجوده وعدم إعلان نفسه لخليقته.

فهل أنصف أنصار التطور الموجه الإله؟

أحمد يحيى

مدير قسم البحوث البيولوجية بمركز براهين



تمهيد

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

في ربيع عام ٢٠١٣ تلقيت دعوة كريمة لحضور الصالون الثقافي الذي كان يعقده الأستاذ الدكتور عمرو شريف أستاذ جراحة الأورام بجامعة عين شمس في منزله بمصر الجديدة، وكان يدور في معظمه حول قضايا الإلحاد، خاصةً أن د. عمرو كان ينوي في هذه الفترة تأليف كتاب شامل عن الإلحاد وأطروحاته بعد كتبه السابقة التي تناولت قضايا جزئية في نفس الموضوع[١]، وقد كان هذا الصالون الثقافي فرصة عظيمة للتعرف على د. عمرو شريف عن قرب والانتفاع بعلمه الغزير مع خلافي الفكري معه، والذي دارت بسببه مناوشات خفيفة خصوصًا حول نظرية التطور والتي هي موضوع هذا الكتاب، إلا أن د. عمرو بأدبه البالغ وتهذيبه الشديد وشخصيته الرائعة كان لا يعطي الفرصة لهذا الخلاف بأن يتحول إلى عداوة وصراع صفري كما هي عادة الخلافات في وقتنا هذا. وقد تشرفت في هذا الصالون بالتعرف على د. عمرو شريف عن قرب والاستفادة من علمه واطلاعه الواسع، وكذلك تشرفت بمعرفة ثلة من العقول المتميزة مثل د. أحمد جلال ود. أحمد الغريب ود. محمد أبو الوفا ومصطفى إبراهيم ود. أحمد عمرو شريف وعُمر خالد وآخرين غيرهم. ورغم أن هذا الكتاب الذي بين أيديكم يحوي الكثير من النقد لأفكار وأطروحات د. عمرو شريف إلا أني حرصت أن لا يتجاوز هذا النقد حدود الأدب والاحترام الواجبين مع أهل الفضل والنبل والأخلاق السامية، وسعيت أن لا تفلت مني كلمة في أي موضع تتجاوز

---

(١) وهو الكتاب الذي صدر بالفعل بعنوان (خرافة الإلحاد) من إصدار مكتبة الشروق الدولية.

ما ينبغي للتلميذ أن يخاطب به أستاذه، وكنت أعيد صياغة بعض الفقرات إن لمست فيها ما قد يؤذي د. عمرو لما أعلمه عنه من أدبه ونبله ورقة طبعه مع إخلاصه الشديد لهذا الدين وحرصه البالغ على حفظه وصيانته، وكذلك فعلت مع جميع الفضلاء الذين وافقوا الداروينية في بعض أطروحاتها أو جلها، أسأل الله عز وجل أن يرشدنا جميعًا إلى الحق والصواب وأن يصلح قلوبنا ويجمعنا دومًا على الخير.

أما هذا الكتاب الذي بين يدي عزيزي القارئ فالغرض منه تناول نظرية داروين في النشوء والارتقاء المعروفة باسم نظرية التطور في صورتها الأخيرة المعروفة باسم النظرية الداروينية الحديثة Neo-Darwinism وعلاقتها بما ورد في نصوص الوحي في الكتاب والسنة. فالحقيقة أن القاعدة الأساسية المنهجية الذي دفعت بعض الناس لمخالفة ما ورد في نصوص الوحي بخصوص الخلق هو وجود نظرية علمية حديثة سلموا بها قبل النظر في النصوص الشرعية ودلالاتها، ثم عندما نظروا في هذه النصوص فسروها بما يتفق مع هذه النظرية، فكانت صورة الأمر أنهم تركوا دلالات النصوص الأصلية وتأولوها اعتمادًا على نظرية علمية قالوا إنه لا يمكن الجمع بينها وبين هذه الدلالات، فجعلوا النظرية العلمية هي المحكم والنص الشرعي هو الشبهة وتأولوا النصوص بما لا يتعارض معها!

فكان الهدف من هذا الكتاب هو بيان ضعف وتهافت هذه النظرية العلمية وأنها لا تنهض لمعارضة نصوص الوحي، فضلاً عن أن تفوقها في الدلالة بما يلجئ لتأويلها، وأن الأولى هو تأويل النظرية العلمية لتوافق كلام الوحي لا تأويل كلام الوحي ليوافق النظرية العلمية. وليس في هذا انتقاصٌ للعلم الحديث ومعطياته وإنجازاته ولا إعلانٌ للحرب على العلوم والثقافة والمعرفة ولا طلبٌ للجهل والتخلف والبلادة ولا

دعوةً للتخندقِ والانغلاق والسماجة، بل هي رؤية نقدية علمية عقلية شرعية منهجية للنظرية الداروينية الحديثة راعيت فيها الحق والإنصاف، وهي تنقسم إلى قسمين:

• القسم الأول: وفيه النقد العلمي للداروينية لبيان ضعفها وتهافتها في باب العلم الحديث، وأن الدعم المؤسسي والأكاديمي المقدم لها يتجاوز مجرد التأييد العلمي الطبيعي لنظرية تخطئ وتصيب، بل هو غارق حتى الآذان في الأدلجة والتحيز، فضلاً عن التضليل والتدليس المتعمد.

• القسم الثاني: هو النقد الشرعي للداروينية وبيان تعارضها مع الإيمان بالله وبما أنزله على رسله، وأن الخلاف الحاصل بين الإسلام والداروينية ليس أمرًا سطحيًا هامشيًا، بل هو يعود إلى الأصول الفلسفية المنهجية التي قامت عليها هذه النظرية. ولم يكن المقصود في هذا القسم تناول ما ذكره مؤيدو التطور من تأويلات للنصوص الشرعية، وإن كان لابد من ذلك صيانةً للنصوص وبيان وجه الحق فيها، فلهذا مقامٌ آخرٌ، لكن كان غرضي هو التناول العلمي والعقلي للنظرية ولحقيقة تعارضها مع الوحي، والكشف عن أصول نظرية داروين التي أدت إلى وقوع هذه التأويلات للنصوص، فإذا عرفت تلك الأصول ظهرت أسباب الانحراف التي ترتب عليه تأويل نصوص الوحي. وعندها يكون الأولى أن نخوض في نقد هذه الأصول وبيان أنها لا توافق الإيمان والوحي، والرد عليها وبيان زيفها وبطلانها في ذاتها، وعدم الاكتفاء بالرد على تأويلاتهم للنصوص الشرعية، وإن كان يجب الرد عليهم في ذلك أيضًا.

وإن كان لي بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وعلماء المسلمين قديمًا وحديثًا أجمعين أن أشكر أحدًا من الخلق، فإني أتوجه بالشكر لأكابر محاوري منتدى التوحيد المتخصصين في دراسة الداروينية الذين

انتفعت أيما نفع واستفدت أيما فائدة من كتاباتهم وأطروحاتهم: الشيخ أبي الفداء ابن مسعود ود. حسام الدين حامد والأستاذ أحمد يحيى ود. هيثم طلعت ود. أحمد إبراهيم والمهندس أحمد محمد حسن، سائلاً الله عز وجل أن يبارك لهم ويجعلهم منارات للحق والهدى.

وأتوجه بالشكر الخاص للدكتور عبد الله بن سعيد الشهري المشرف على مركز براهين لكل ما قدمه لي من الدعم والمساندة حتى خروج هذا الكتاب إلى النور، وكذلك جميع العاملين في مركز براهين لدراسة الإلحاد الذين لم يبخلوا في توفير المراجع والمصادر المطلوبة للكتاب في أسرع وقت، أسأل الله أن يجعل إصدار هذا الكتاب في موازين حسناتهم.

وقد وضعت الكتاب في صورة مقالات طويلة تفصيلية محررة، واجتهدت في إخلاص النية أثناء كتابتها، وكنت أصلي صلاة الاستخارة قبل وضع أي مقال في الكتاب داعيًا الله إن كان في إضافة هذا المقال خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري عاجله وآجله أن يكتبه لي ويبارك لي فيه وإن كان في إضافته شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري عاجله وآجله أن يصرفه عني ويصرفني عنه وأن يقدر لي الخير حيثما كان ويرضيني به، ثم راجيًا الله أن يسددني لإصابة الحق وهداية الخلق وأن يجعل لي لسان صدق بين الناس وأن يكتب لهذا الكتاب القبول في الأرض وأن يبارك لي فيه، اللهم آمين!

د. هشام عزمي

الباب الأول

نظرية التطور والعلم

مقدمة

يُعد عام ١٩٥٣ عامًا محوريًا في تاريخ الجدل القائم حول نظرية التطور؛ ففي هذا العام تم اكتشاف مادة الشريط الوراثي الـDNA على أيدي جيمس واتسون James Watson وفرانسيس كريك Francis Crick.

قبل هذا الاكتشاف لم يكن لدى العلماء أي فكرة عن كيفية تشكل الكائنات الحية. نعم، كانوا يعلمون كيف يتكون الجنين وكانوا يعلمون عن الجينات وتوارث الصفات، لكنهم كانوا يجهلون ما الذي يتحكم في عملية تميّز الخلايا والأنسجة الحية إلى ما هي عليه. الآن نحن نعلم أن تتابع النيوكليوتيدات – وحدات الـDNA – هو الذي يتحكم في ملايين الخطوات التي تحول البيضة المخصبة إلى كائن حي عديد الخلايا كالإنسان، وفي كل خلية من هذه الخلايا العديدة توجد نسخة كاملة طبق الأصل من نفس المادة الوراثية.

قبل اكتشاف الـDNA كان العلماء التطوريون بعد داروين ينظرون إلى الخواص الشكلية والظاهرية للحيوانات، ثم يقولون أن وقوع التشابه في هذه الخواص هو دليلٌ على التطور وأن هذه الحيوانات متصلة ببعضها البعض على شجرة التطور حيث تجد لكل واحد من الأنواع الحية مكانًا على هذه الشجرة. وكان علم المورفولوجي Morphology هو المختص بدراسة التركيب الظاهري للأنواع المختلفة لتحديد العلاقات التطورية بينها، لكنه الآن بعد اكتشاف الـDNA لم يعد له قيمة كدليل على صحة نظرية التطور. رغم هذا فما زال البعض يستعمل التشابهات الشكلية والمورفولوجية عند الحديث عن إثبات نظرية التطور، لكن من الناحية العلمية المحضة فهذه الأطروحات قد تجاوزها الزمن تمامًا.

قبل اكتشاف الـDNA كان من اليسير أن نجمع بعض الأنواع الحية المتشابهة شكليًا ثم نرسم شجرة التطور. وبسبب العدد المهول للكائنات الحية التي تعيش والتي عاشت على هذا الكوكب، فمن الممكن بسهولة وضع كل الكائنات في شجرة التطور المزعومة وجعلها تبدو قريبة شكليًا وتطوريًا من بعضها البعض. وبسبب هذا العدد المهول كذلك، كان من اليسير إيجاد أنواع "انتقالية" تصلح لسد الفجوات في شجرة التطور، فعلى سبيل المثال من الممكن عن طريق خلط بعض الحفريات الأساسية الخروج بادعاء أن بعض الحيوانات التي كانت تعيش على اليابسة، مثل الخرتيت، قد تطورت إلى حيتان تسبح في البحار كما يزعم بعض مؤيدي نظرية التطور بالفعل.

لكن رغم هذه الأدلة الظاهرية المزعومة لأنصار نظرية التطور لم تكن حجتهم قادرة دومًا على دحض مخالفيهم؛ فعلى سبيل المثال كان هناك العديد من الأنواع الحية لا يمكن إيجاد أسلافٍ تطوريةٍ لها بسبب خصائصها التشريحية والوظيفية الفريدة وفائقة التعقيد. فالزرافة مثلاً كان لديها خواص فريدة في القلب والرقبة وسائر الأعضاء تسمح لها بأن تهبط برأسها إلى أسفل لشرب الماء دون أن تختنق أو أن تنفجر الدورة الدموية للمخ عن طريق آليات فسيولوجية ليس لها نظير في أي كائن حي آخر، أي أن الزرافة ليس لها سلف في هذه الخصائص الفريدة.

مثال آخر لعدم وجود السلف التطوري هو الانفجار الكامبري؛ فكثير من الحفريات المكتشفة في كندا ليس لها أسلاف معروفة. في الحقيقة الانفجار الكامبري يثير قضية أخرى: فداروين تنبأ بأن عدد الأنواع الجديدة المكتشفة عن طريق الحفريات سوف يزداد مع الزمن حتى يملأ الفجوات التطورية بين الأنواع، لكن

الانفجار الكامبري يخالف هذا التنبؤ حيث ظهرت العديد من الأنواع في سجل الحفريات فجأة دون أي سلف.

بالطبع يمكن تفسير هذا الانقطاع في سجل الحفريات بأن هذه الأنواع التطورية الوسيطة لم توجد أصلاً أو أن الزمن قد قام بمحو حفرياتها وأي آثار تدل عليها. لكن التطوريين إدراكًا منهم لهذه المشكلة قد قاموا بابتكار مصطلح التوازن المتقطع Punctuated Equilibrium أو القفزات التطورية ليحل محل التدرج الذي دعا إليه داروين؛ لأن هذا هو نتيجة ملاحظاتهم في سجل الحفريات.

في هذه الحالة نحن رصدنا خطأً ما في المنظومة التطورية، فهرع التطوريون إلى استحداث مصطلح أكاديمي فخم، كالتوازن المتقطع، يعني بالضبط عكس ما تدعو إليه الداروينية، ثم هم مستمرون في الترويج لنظرية التطور وكأن شيئًا لم يكن! ألا ترون شيئًا خاطئًا في هذه الصورة؟

لكن استخدام المصطلحات الفاخرة كالتوازن المتقطع لن ينقذ النظرية من البطلان لأننا ما زلنا نذكر مزاعم داروين، ومن الجليّ أن معطيات علم الحفريات لا تساند عددًا لا يُستهان به من توقعاته الكبرى. لقد كان سجل الحفريات مليئًا بالثغرات بشكل كان يؤدي بنظرية التطور إلى الموت البطيء.

يقول العالم التطوري الشهير ستيفن جاي جاولد: «الغالبية العظمى من الأنواع لا تبدي أي تغيير تطوري ملموس على الإطلاق. فهي تظهر في الصخور للمرة الأولى

بدون أسلاف واضحة في الطبقات التحتية، وتظل مستقرة ثم تختفي في الطبقات الفوقية دون ترك أي نسل».(١)

وكذلك البروفيسور ديفيد روب: «... يعتقد معظم الناس بأن الحفريات توفر جزءًا هامًا جدًا من الحجة العامة لصالح التفسيرات الداروينية في تاريخ الحياة، ولكن للأسف، هذا ليس صحيحًا تمامًا».(٢)

وفي نفس السياق يقول رونالد ويست: «على عكس ما يكتبه معظم العلماء، فان سجل الأحافير لا يدعم نظرية داروين، لأننا نستخدم تلك النظرية لتفسير السجلات الحفرية. ولذلك نحن مذنبون بالوقوع في الاستدلال الدائري حين نقول إن السجل الأحفوري يدعم هذه النظرية».(٣)

ونفس الكلام يقوله جيفري شوارتز: «وفقًا للتطور الدارويني، فان التغير كان في حالة حركة مستمرة ... ويتبع ذلك منطقيًا أن السجل الأحفوري يجب أن يعج بأمثلة من الأشكال الانتقالية المتدرجة ... وبدلاً من سد الثغرات في السجل الأحفوري مع ما يسمى الحلقات المفقودة، وجد معظم علماء الحفريات أنفسهم في مواجهة مع حقيقة الفجوات في السجل الأحفوري، مع عدم وجود أدلة على وجود حلقات وسيطة متدرجة بين الأنواع موثقة أحفوريًا».(٤)

---

(1) Gould, Stephen Jay, The Structure of Evolutionary Theory, 2002, p. 753.
(2) Dr. David Raup, Curator of geology, Field Museum of Natural History in Chicago.
(3) Ronald R. West, Paleontology and Uniformitarianism, in Compass, p. 216.
(4) Schwartz, Jeffrey H., Sudden Origins, p. 89.

ونيفيل جورج: «لا حاجة للتحجج مجددًا بفقر السجل الأحفوري. لأنه قد أصبح غنيًا بشكل قوى، ... ورغم ذلك فان سجل الحفريات لا يزال مكونًا بالأساس من الثغرات».[١]

لكن اللوم الأكبر في هذا الأمر ينبغي أن يلقى على عاتق داروين نفسه، لأنه كان المفروض أن يجمع الملاحظات العلمية من السجل الأحفوري ثم يضع نظريته بناءً عليها، لكن ما فعله هو أن وضع نظريته على خلاف وقائع السجل الأحفوري في زمنه، ثم زعم أن السجل ناقص وغير مكتمل! وأن الكشوفات المستقبلية سوف تكمله وتثبت صدق نظريته. والآن بعد عشرات السنين والكشوف الباهرة في علم الحفريات ما زال السجل ناقصًا بحسب نظرية داروين ولم يكتمل حتى الآن، وهذا هو الكابوس الذي ظل يؤرق التطوريين حتى اضطر قامة كبيرة من رموز الداروينية بحجم ستيفن جي جاولد إلى استحداث مفهوم القفزات التطورية.

بعد اكتشاف الـDNA في عام ١٩٥٣ كان من المنتظر أن تسقط نظرية التطور بالضربة القاضية؛ الآن صار مفروضًا على علماء الداروينية أن يشرحوا لنا كيف تقوم سلسلة من الحوادث العشوائية بخلق جزيئات الـDNA بالغة التعقيد لملايين الأنواع الحية المختلفة. مع مرور الوقت ساء الوضع أكثر نظرًا للكشوفات العلمية المتوالية عن مدى التعقيد والدقة والتركيب الفائق لجزئ الـDNA، ومع كل اكتشاف كانت نظرية التطور تبدو في وضع أسوأ من السابق حيث تزداد صعوبة تفسير كيف ينشأ جزئ الـDNA الفريد الخاص بكل نوع من الأنواع الحية.

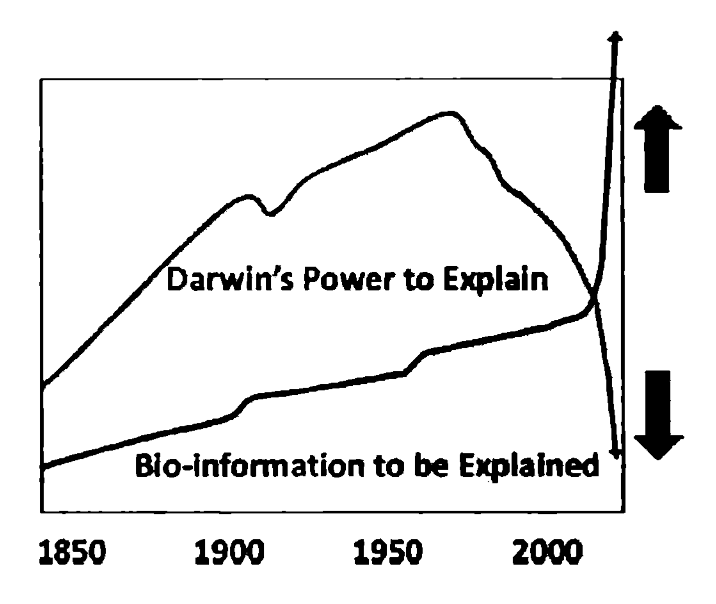
---

(1) George, T. Neville, “Fossils in Evolutionary Perspective,” Science Progress, vol. 48 January, pp. 1–3.

عندما أُكتشف الشريط الوراثي DNA، ظهر أن المعلومات الجينية إشبه ما تكون بالمعلومات التي يكتبها الإنسان؛ فلها شفرة لغوية وشريط من الحروف يمثل في النهاية نصًا لغويًا. من أين جاءت هذه النصوص اللغوية؟ عند علماء البيولوجيا الذين يتبنون نظرية التطور، الصدفة المحضة ثم التطور الدارويني يعللان ظهور هذه النصوص المعلوماتية! وقد بذل هؤلاء العلماء جهودًا جبارةً في محاولة تفسير هذا الكم المعلوماتي الهائل في الشريط الوراثي عن طريق الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي، وأغرقوا المجلات العلمية بتصوراتهم وتبريراتهم، وحاربوا بضراوة أي مخالفة للنموذج الدارويني حتى أنهم يعتبرون من يخالفه خائنًا للعلم ذاته!

لكن الحقيقة أنه أمام الزيادة المطردة في الاكتشافات الجينية في المحتوى المعلوماتي في الشريط الوراثي تضاءلت قدرة النموذج الدارويني السائد -المبني على الصدفة والعشوائية- على تفسير ظهور هذه المعلومات خصوصًا مع دقتها البالغة وتعقيدها العميق، كما يظهر في الرسم البياني بأسفل حيث نجد أن هناك انفجارًا معلوماتيًا هائلاً تم اكتشافه مؤخرًا في الشريط الوراثي يقابله انخفاض واضح في القدرة التفسيرية للنموذج الدارويني.[١] وهذه الشفرة المعلوماتية تدفعنا دومًا للسؤال المنطقي: من أين جاءت المعلومات؟ من الذي كتب برنامج الخلية بهذه اللغة الفريدة؟

(1) John C. Sanford (2013) Biological Information and Genetic Theory: Introductory Comments. Biological Information: pp. 203-209.



ولتقريب الصورة دعنا نضرب مثالاً قريبًا: هل من الممكن لانفجار فوضوي عشوائي في ساحة للسيارات الخردة مهجورة من ثلاثينيات القرن الماضي أن يؤدي لخلق سيارة مرسيدس جديدة من طراز ٢٠١٦ محركها يدور بكفاءة وبها مشغل اسطوانات CD Player يعمل بكفاءة وهاتف نقال يعمل عن طريق الأقمار الصناعية ومصابيحها الأمامية تضيء بقوة علمًا بأن مشغل الاسطوانات والهاتف النقال بالأقمار الصناعية لم يكونا قد اخترعا بعد في الثلاثينيات من القرن الماضي؟ مستحيل بالطبع! لكن هذا بالضبط ما يريدنا التطوريون أن نقبله في كلامهم عن نشأة الأنواع الجديدة عن طريق الطفرات العشوائية.

فضلاً عن هذا فإنه من المعلوم أن جميع الحيوانات والنباتات، بل والكائنات وحيدة الخلية، يحوي كل منها الـDNA الخاص به. وبالتالي فهناك ملايين الشفرات الوراثية للكائنات الحية والمنقرضة. ومع اكتشاف الـDNA تغيرت تمامًا دلالة شجرة

التطور، وصار من اللازم على العلماء أن يفسروا كيف ظهر شريط المادة الوراثية الDNA لكل أنواع الكائنات على وجه الأرض. وصار السؤال المحوري هو: كيف يتحول الشريط الوراثي الخاص بنوع ما بشكل يؤدي إلى ظهور نوع جديد تمامًا؟ ومما يزيد السؤال غرابة هو أن النوع الثاني الجديد كان يُعتبر أرقى وأكثر تطورًا وتعقيدًا. ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن هذا التحول كان يقع دون أخطاء، بمعنى أنه لا توجد ملايين المقابر العملاقة للمحاولات الفاشلة في هذا التحول من نوع إلى نوع آخر جديد كما قد يتوقع البعض، فالتحول دومًا مثالي ونموذجي! يا للعجب!

فالسؤال المحوري في الجدال القائم حول نظرية التطور هو: من أين جاءت المادة الوراثية للأنواع الجديدة؟ أو على وجه الخصوص: من أي جاءت المادة الوراثية للإنسان؟ أو بكلمات أخرى: من أي جاءت المادة الوراثية الفريدة المميزة لكل نوع من الكائنات الحية خصوصًا الإنسان؟

لا يملك التطوريون إجابة حقيقية على هذا السؤال، لهذا يخوضون في مسائل تشتت التركيز بعيدًا عن هذا السؤال المحوري، وفي نفس الوقت يتظاهرون بأنهم قد أجابوا السؤال فعلاً! ثم هم يلجئون إلى التلاعب بالمصطلحات بشكل يصرف الانتباه عن نقاط الضعف في النظرية حتى لا يتشكك أحدٌ في مصداقيتها.

إنما الحقيقة أنه لا بد من إبطال كل قوانين علم الإحصاء حتى يمكن لنظرية التطور أن تسوغ عقلاً وحتى يمكن أن تنشأ المادة الوراثية من طريق التطور الدارويني. قوانين الإحصاء وسيناريوهات المحاكاة المعدة عن طريق الكمبيوتر Computer Simulations لا يتم استدعائها أو الاستعانة بها من طرف التطوريين، بل يتم تجاهلها والإعراض عنها.

فعلى سبيل المثال، لا يوجد جهاز كمبيوتر على سطح الأرض قد بلغ من التعقيد والتركيب –ولو من طرفٍ بعيدٍ– ما بلغه شريط الـDNA الوراثي للإنسان، فمن المفروض أن تكون برامج المحاكاة المصممة عن طريق الكمبيوتر اختبارًا منصفًا لسيناريوهات نظرية التطور. لكن القوم يتلاعبون من خلال طرح نماذج محاكاة بدائية جدًا ولا تمثل حقيقة التعقيد في الشريط الوراثي أو الخلية الحية، ثم يضخمون من نتائجها ويبالغون فيها لأغراض دعائية غير علمية إطلاقًا.(١)

في الحقيقة لا يوجد في أي علم من العلوم –بخلاف نظرية التطور– الزعم بأن الحوادث العشوائية تستطيع خلق أي شيء معقد ودقيق ويعمل بكفاءة، لكن نظرية التطور تزعم أن هذا حدث ملايين المرات مع هامش خطأ ضئيل جدًا لا يكاد يذكر.

هل جرب أحدكم أن يأخذ برنامج كمبيوتر ويقوم بإجراء تعديلات عشوائية في الكود الثنائي binary code لهذا البرنامج ليخرج ببرنامج جديد يقوم بوظائف ومهام وعمليات جديدة لم يكن البرنامج الأصلي يقوم بها؟ طبعا مستحيل! رغم هذا فنظرية التطور تزعم أنه يمكن أخذ الشريط الوراثي من الـDNA الذي هو أعقد بمراحل من أي برنامج كمبيوتر صممه إنسان على وجه الأرض(٢) واستخراج الملايين من أشرطة الـDNA منه عن طريق الحوادث العشوائية.

---

(1) Ewert W (2014) Digital irreducible complexity: A survey of irreducible complexity in computer simulations. BIO-Complexity 2014 (1):1–10. doi:10.5048/BIO-C.2014.1.

(٢) مقولة شهيرة لبيل جيتس مؤسس مايكروسوفت الشهيرة:

"DNA is like a computer program but far, far more advanced than any software ever created" (Bill Gates, The Road Ahead, New York: Penguin Books, 1995, p. 188).

ومع تعمق العلماء في دراسة تركيب وتعقيد شريط الـDNA، تزداد نظرية التطور بعدًا عن العقل والمنطق السليم. لكن بدلاً من إعادة النظر في هذه النظرية والتشكيك في أطروحاتها، نجد أن القوم يزدادون تمسكًا بها دون أن يقدموا أدلة علمية معتبرة عن الأسباب التي تدعوهم لهذا.

لا يمكن للعشوائية أن تخلق الدقة والتعقيد والإحكام في كائنٍ واحدٍ، فضلاً عن ملايين الأنواع من الكائنات الحية على سطح الأرض. لكن نتيجةً للخداع والتدليس، خصوصًا في استعمال المصطلحات، قليلٌ جدًا من الناس ينتبه لحقيقة أن اكتشاف شريط الـDNA قد أظهر هشاشة وعبثية نظرية التطور، وسنسعى في هذه المقالات لتوضيح هذه النقطة بجلاءٍ وتفصيلٍ إن شاء الله تعالى.

التطور الصغير
Microevolution

كان من المفروض أن يؤدي اكتشاف الحمض النووي DNA إلى تغير الكثير من اصطلاحات علم الأحياء، وهو بالفعل قام بتغيرها ليس لتكون أكثر دقة، بل لتكون أكثر مراوغة! تكمن الخدعة الرئيسية للتطوريين في مسألة التلاعب بالألفاظ والمصطلحات، فهم لا يستعلمون المصطلحات بنفس المعاني التي توحي بها، لهذا من الضروري تحرير المصطلحات لدى طرفي النزاع (القائلين بالخلق المباشر والقائلين بالتطور) حتى يكون البحث على أسس وقواعد سليمة.

سنبدأ بأول مصطلح وهو تركيب الحمض النووي DNA structure لأنه مفتاح بقية المصطلحات، والمقصود به أن كل نوع من الكائنات الحية على وجه البسيطة أو تحت أديمها، سواء كان ما يزال موجودًا أو صار منقرضًا، وسواء كان حيوانًا أو نباتًا أو باكتيريا، لديه تركيب فريد من الحمض النووي unique DNA structure. كون تركيب الحمض النووي فريدًا لكل نوع من الكائنات يعني أنه يملك هيكل مخصوص لترتيب وتراص الجينات على الشريط الوراثي لا يشاركه فيه كائن آخر.

هذا التركيب للحمض النووي هو الذي يحدد ماذا سيكون هذا الكائن الحي وما هو شكله وما هي وظائفه الحيوية وما هي قدراته، فتركيب الحمض النووي لدودة القز يختلف تمامًا عن ذلك الذي للفأر وعن ذلك الذي لزهرة عباد الشمس. فمثلاً لو لدينا حيوانان يحتوي الحمض النووي لكل منهما على ١٠ آلاف جين لها نفس الوظيفة والترتيب والمواضع داخل الشريط الوراثي، فهذا يعني أن هذان الحيوانان

لهما نفس تركيب الحمض النووي حتى لو كانا مختلفين ظاهريًا مثل الكلب الدانماركي الضخم Great Dane والكلب الشيواوا Chihuahua .



هذا يقودنا إلى المصطلح الثاني وهو النوع species، وحقيقته أن كل تركيب مخصوص للحمض النووي يميز نوعًا مخصوصًا من الكائنات الحية، فإذا كان لكائنين نفس تركيب الحمض النووي فهذا يعني أنهما من نفس النوع. وإذا اختلفا في تركيب الحمض النووي، فهذا يعني أنهما من نوعين مختلفين. وكما ضربنا المثال بالكلب الدانماركي الضخم والشيواوا، هما كذلك من نفس النوع لأنهما يملكان نفس تركيب الحمض النووي رغم اختلاف الصفات داخل هذا التركيب، فهما من نفس نوع الكلاب رغم أنهما ينتميان لسلالتين مختلفتين. فعندما نقول إن الكلب الدانماركي الضخم والكلب الشيواوا من نفس النوع، فنحن لا نعني أن الشريط الوراثي متطابق في كل نيوكليوتيدة، بل نقصد أن هيكل ترتيب وتراص الجينات داخل الشريط الوراثي

وطول ووظيفة كل جين متماثلة مع وجود اختلاف في الصفات التي تحملها هذه الجينات.

ولنضرب مثالاً يقرب المفهوم إلى الأذهان؛ نحن نعرف أن السيارات كلها ذات أربع عجلات، لكن هذه العجلات تختلف في الشكل والمواصفات من سيارة لأخرى، إنما هذا لا يغير من حقيقة كونها سيارة في نهاية المطاف. كذلك تركيب الحمض النووي هو نفسه في النوع الواحد مع اختلاف صفات الجينات فجين لون العينين مثلاً موجود في كل الناس، لكن اللون نفسه يختلف من شخص لآخر، فهناك من يحمل جين اللون الأسود ومن يحمل جين اللون الأزرق أو البني أو الأخضر، لكن كل هذه الاختلافات تقع داخل النوع الواحد وليست بين نوع وآخر. كذلك لكي يكون الكلب الدانماركي الضخم والشيواوا من نفس النوع لابد أن يكون الحمض النووي لكل منهما له نفس الطول ونفس منظومة الجينات، وهذا هو الحاصل في الواقع. بينما تركيب الحمض النووي من الجينات الذي يميز الأسد يختلف تمامًا عن ذلك الذي يميز زهرة الأوركيد في طول الشريط الوراثي ومنظومة الجينات المتراصة عليه، وذلك لأنهما ليسا من نفس النوع.

فالمقصود بالنوع وتركيب الحمض النووي هو نفس الشيء، ولا فرق بينهما في حقيقة الأمر، وكل منهما يدل على الآخر.

يضاف إلى هذا أنه في الكائنات التي تتزاوج جنسيًا عن طريق تلاقي الذكر والأنثى لابد من توافق تركيب الحمض النووي لكل منهما حتى يحدث تخصيب البويضة بالحيوان المنوي، سواء حدث هذا التخصيب في الطبيعة أو في أنبوبة اختبار. ما الداعي لذكر أنبوبة الاختبار هنا؟ السبب هو التنوع الجيني داخل النوع الواحد مما

يؤدي إلى ظهور سلالات مختلفة ظاهريًا بشكل كبير، وهنا يصلح مثالنا عن الكلب الدانماركي الضخم والكلب الشيواوا، فهما سلالتان من نفس نوع الكلاب، والتزاوج بينهما غير ممكن في الطبيعة نظرًا للاختلاف الكبير في الحجم، لكنه يمكن حدوثه في أنبوبة اختبار بالمعمل نظرًا لتوافق تركيب الحمض النووي، ويكون الناتج هجينًا يحمل صفات الأبوين.

المصطلح الثالث هنا هو التطور الصغير microevolution ويُقصد به أنه عند تلاقح ذكر وأنثى من نفس النوع، فإن ذريتهما يكون لها نفس تركيب الحمض النووي وتنتمي إلى نفس النوع، لكن صفات هذه الذرية تختلف عن كل من الأبوين، فلا يكون الأبناء صورة طبق الأصل من الأب أو من الأم، بل هجين بينهما. فالتطور الصغير يشير إلى التنوع والاختلاف داخل النوع الواحد من الكائنات الحية وإلى التنوع والاختلاف داخل نفس تركيب الحمض النووي. يجدر بنا في هذه النقطة أن نذكر بأننا قصدنا بتركيب الحمض النووي الذي يميز نوع معين أن الحمض النووي للشريط الوراثي له نفس الطول والهيكل البنائي ونفس منظومة الجينات ومواضعها، لكن النيوكليوتيدات في الجين الواحد قد تختلف لتعطي صفات مختلفة وأنماط مختلفة من هذا الجين، وضربنا المثال بالجين المسئول عن لون العينين، فقد يحمل اللون الأسود أو الأزرق أو الأخضر أو العسلي .. إلخ .. لأجل هذا قد يبدو كائنان متماثلين أو مختلفين قليلاً أو مختلفين تمامًا رغم انتمائهما لنفس النوع.

وهذا هو نفس ما يحدث مع الكلاب (كنوع). فما يحدث في التطور الصغير عند تزاوج الذكر والأنثى –سواء في الطبيعة أو في أنبوبة اختبار– وإنجابهم ذرية قادرة على التكاثر بدورها، هو أن الحمض النووي للأبناء يكون خليطًا من الحمض النووي

للأبوين، لأنهم سيحصلون على شريط من الأب وآخر من الأم ليكون الشريط الوراثي المزدوج الذي سيكون له نفس تركيب الحمض النووي للأبوين والذي يميز نوع الكلاب. ورغم أنهم سيبدون مختلفين عن أبويهم إلا أنهم يحملون نفس تركيب الحمض النووي وينتمون لنفس النوع.

نفهم مما سبق أن التطور الصغير لا يخلق أنواعًا جديدة، لكنه قادر على خلق أفراد جديدة من نفس النوع أو سلالات جديدة داخل النوع الواحد، وهؤلاء الأفراد أو السلالات الجديدة يملكون نفس تركيب الحمض النووي وينتمون لنفس النوع. قد يكون للأبناء ألوان مختلفة أو أحجام مختلفة أو أشكال مختلفة، لكنهم سيظلون -مثلاً- كلابًا من نفس نوع الكلاب، وسيظل لهم نفس تركيب الحمض النووي بكل خصائصه ومواصفاته المميزة للنوع.

عندما نرى خصائص ظاهرية بارزة وسمات مميزة لمجموعتين من الحيوانات التي تحوي نفس تركيب الحمض النووي، فنحن نشير إليهم بأنهما سلالتان مختلفتان. مثال: الشيواوا والدانماركي الضخم سلالتان مختلفتان من نوع الكلاب. أو بتعبير آخر، السلالات المختلفة لها نفس تركيب الحمض النووي، لكنها لا تملك نفس ترتيب النيوكليوتيدات في الجينات داخل هذا التركيب. الجين في الشريط الوراثي قد يكون غاية في الطول، لكنه يتكون من أربعة أصناف من النيوكليوتيدات A C G T في الحمض النووي DNA. يؤدي التطور الصغير إلى وقوع تغير في ترتيب النيوكليوتيدات داخل الجينات، مما قد يؤدي إلى ظهور صفات مختلفة مثل تغير لون الفراء في الكلب، لكن طول الجين وعدد النيوكليوتيدات فيه يظل ثابتًا كما هو.

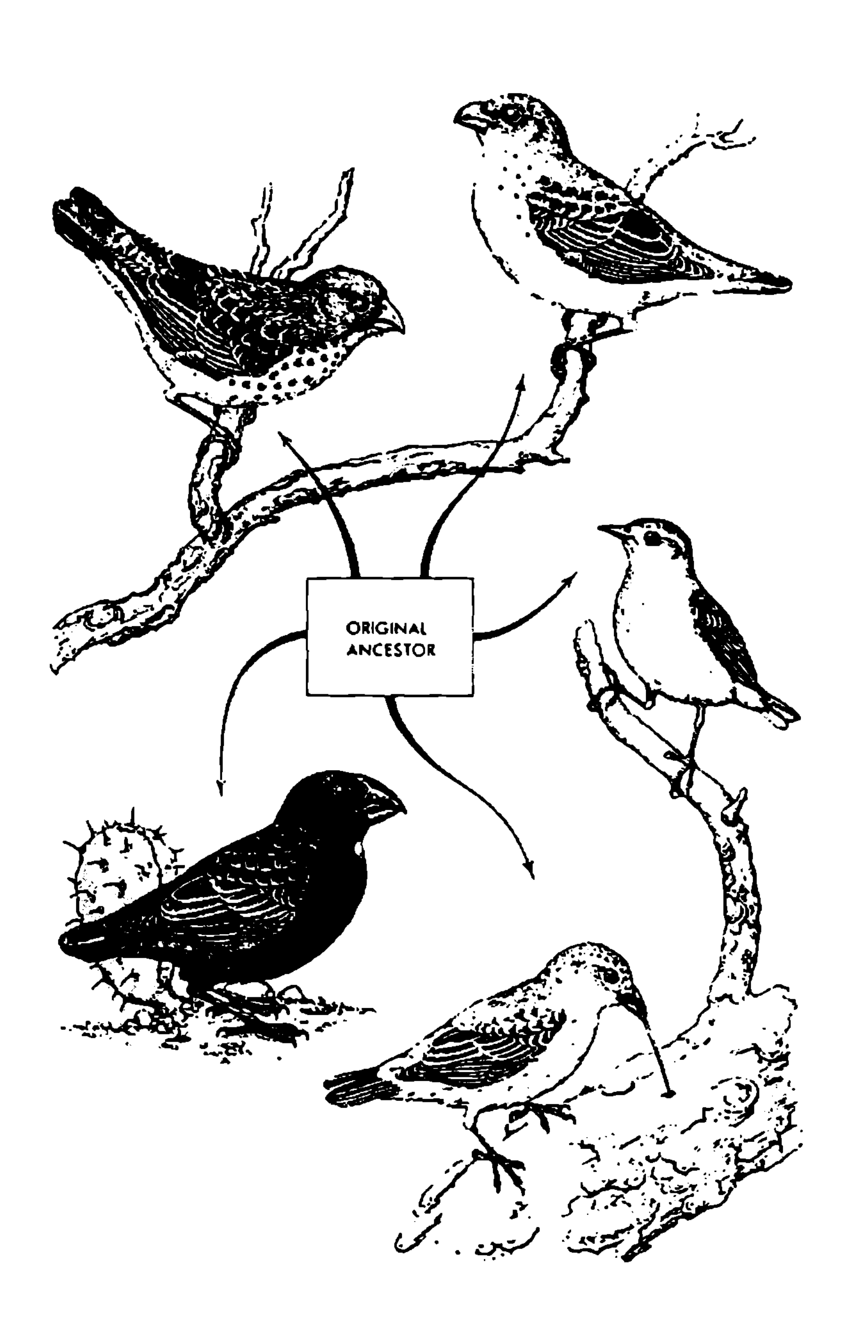
فحقيقة التطور الصغير أنه عبارة عن تغير يقع في المظهر الخارجي أو الوظائف الحيوية أو القدرة على التكاثر أو تتابع النيوكليوتيدات داخل الجين الواحد، لكنه لا يشمل التغير في تركيب الحمض النووي المميز للنوع. وبينما يقوم تركيب الحمض النووي بتحديد كل نوع، يقوم ترتيب النيوكليوتيدات داخل الجينات بتحديد التنوع والاختلافات بين سلالات النوع الواحد، وهذا هو التنوع هو المقصود بالتطور الصغير. فخلاصة الموضوع أنه مع التطور الصغير لا توجد أنواع جديدة، قد توجد سلالات جديدة، أما أنواع جديدة فلا! نشوء أنواع جديدة يتطلب وقوع التغير في تركيب الحمض النووي نفسه، وهذا ما سوف نناقشه عند الكلام عن التطور الكبير في المقال القادم.

باختصار فإن مصطلحات النوع وتركيب الحمض النووي والتطور الصغير كلها تدور حول نفس الشيء، وهو نفس النوع أو نفس تركيب الحمض النووي، فلو هناك كائنان على وجه الأرض من نفس النوع لكنهما يبدوان مختلفين ظاهريًا، فهذا يعني أنهما ينتميان لسلالتين مختلفتين، والسلالات تظهر عن طريق التطور الصغير.

من المهم جدًا أن نستوعب مفهوم النوع الذي يملك جميع أفراده نفس تركيب الحمض النووي لأنه سيقودنا إلى نقطة مهمة بخصوص الذرية القادرة على الإنجاب والتكاثر؛ فإذا تزاوج ذكر وأنثى من نفس النوع لكن من سلالات مختلفة، هل ستكون ذريتهما قادرة على الإنجاب؟ الإجابة هي نعم، لأن تركيب الحمض النووي عند تخصيب بويضة الأنثى بالحيوان المنوي الذكري سيكون متوافقًا، وبالتالي سيتكون شريط وراثي يمكنه نقل صفاته لأجيال أخرى مقبلة. لكن هل سيبدو الأبناء مثل الآباء في هذه الحالة؟ هنا الإجابة ليست بالضرورة نعم، فقد يشبهون أحد الأبوين أو لا،

وقد يشبه أحدهم أحد الأبوين في صفة أو أكثر ولا يشبهه في البقية، وقد تكون بعض صفات بعض الأبناء مختلفة تمامًا عن صفات الأبوين، وباب الاحتمالات مفتوح على مصراعيه. والحقيقة أن القائمين على تربية الحيوانات والطيور وغيرها لديهم خبرة كبيرة في تزويج السلالات المختلفة وتهجينها لإخراج سلالات ذات صفات معينة ومميزة ومخصوصة، لكنهم يدركون جيدًا أن هناك حدودًا لهذا التهجين الانتقائي، وذلك لأنه لا توجد جينات جديدة يمكن إضافتها من الخارج، بل هم محكومون بالجينات المتاحة في تركيب الحمض النووي للنوع. فالقضية المحورية هي أن الأبناء الناتجين عن تزاوج الذكر والأنثى من سلالتين مختلفتين سيكونون من نفس النوع ولهم نفس تركيب الحمض النووي كأبويهم، وسيكونون بالتالي قادرين على الإنجاب في الظروف الطبيعية، وستكون ذريتهم المستقبلية من نفس النوع، لكن لا يشترط أن تكون من نفس السلالة.

في هذا الإطار نستطيع أن نضع عصافير داروين Darwin's finches كمثال على التطور الصغير. كل هذه العصافير تنتمي لنفس النوع وتملك نفس تركيب الحمض النووي، لكن كل سلالة منها تحمل صفات مختلفة على جيناتها مما أدى إلى وجود اختلافات بينها في العديد من الصفات مثل حجم ولون الريش وقوة وشكل المنقار. الانتخاب الطبيعي أو قانون البقاء للأصلح يمكن تطبيقه على هذه العصافير المختلفة نظرًا لوجود هذه الاختلافات فيما بينها. هذا القانون (الانتخاب الطبيعي أو البقاء للأصلح) في الحقيقة يصلح تمامًا في إطار التطور الصغير.


ORIGINAL
ANCESTOR

قبل اكتشاف الحمض النووي DNA لم تكن هناك وسيلة للتميز بين التطور الصغير microevolution والتطور الكبير macroevolution، ولأجل هذا كانت تعتبر عصافير داروين أمثلة سليمة على صحة التطور في أيام داروين. أما الآن فنستطيع تصنيفها كأمثلة على التطور الصغير. بعد اكتشاف الحمض النووي، أدركنا أن عصافير داروين تقع في نفس النوع لأن الحمض النووي فيها يختلف فقط في إطار التطور الصغير. قد يعتبرون سلالات مختلفة، لكنهم من نفس النوع. وهذا ما نود تنبيه القارئ الكريم إليه؛ فإن التطور الصغير في أيام داروين كان يُشار إليه باسم التطور evolution لأن الحمض النووي كان مجهولاً ومصطلح التطور الصغير لم يكن قد ظهر إلى الوجود.

اختلاف تتابعات النيوكليوتيدات يمكنه أن يخلق أحجام وأشكال ووظائف مختلفة لمناقير العصافير وأنماط وألوان مختلفة للريش وغيرها من الاختلافات، لكنه لا يقدر أن يخلق نوعًا جديدًا تمامًا لأن كل عصفور سيكون له نفس تركيب الحمض النووي. نعم، يستطيع التطور الصغير أن يؤدي إلى إمكانيات أفضل للبقاء والتكيف، ثم يقوم الانتخاب الطبيعي بعمله على التطور الصغير. مفهوم البقاء للأصلح لا ينطبق إلا في حدود التطور الصغير. كان داروين مخطئًا في اعتبار العصافير أنواعًا مختلفة، لكنه توفى قبل اكتشاف الحمض النووي فهو معذور من هذه الجهة، ولم يكن هناك مصطلح يصلح لوصف مشاهداته إلا التطور.

المسألة المهمة في هذه المقالة هو التأكيد على حقيقة أن التطور الصغير لا يمكنه خلق أنواع جديدة؛ أي: لا يمكنه خلق تركيب جديد للحمض النووي سواء كان أطول أو يحتوي جينات جديدة أو منظومات جينية جديدة. وبما أن تركيب

الحمض النووي سيكون ثابتًا، فإن الذرية ستكون من نفس النوع لا غير. التطور الصغير لا يغير طول الحمض النووي، ولا يغير عدد الجينات، ولا وظائف الجينات، ولا أطوال الجينات، لكنه يستطيع أن يؤثر على مواضع النيوكليوتيدات داخل الجين. وبالتالي فهو لا يمكنه خلق أنواع جديدة أو تركيب جديد للحمض النووي، لكنه يستطيع أن يؤثر على المظهر الخارجي للحيوان أو النبات وأن يخلق سلالة جديدة ضمن سلالات النوع الواحد.

لو وضع العلماء أنواعًا مختلفة من الحيوانات، ذكورًا وإناثًا، على كوكب بعيد يحوي الهواء والغذاء وتركوهم لملايين السنين، ثم عادوا إليها لوجدوها قد تكاثرت وتنوعت إلى العديد من الأشكال والأحجام والألوان، لكن كل نوع من الحيوانات سيكون له نفس تركيب ونفس طول الحمض النووي الذي كان عليه أسلافه الذين جاؤوا الكوكب أول مرة، وسيكون الحمض النووي له نفس الحجم والطول والوظائف، إنما سيقع التنوع والاختلاف داخل الجينات أنفسها، وليس في طول الحمض النووي أو تركيبه.

التطور الكبير
Macroevolution

من العسير في الحقيقة وضع تعريف للتطور الكبير نظرًا لأنه لم يسبق رصده أو رؤيته في الطبيعة أو حتى في معامل الاختبار. التطور الكبير عبارة عن مفهوم نظري افتراضي يشير إلى نشوء أنواع جديدة، أي: نشوء تركيب جديد ومختلف للحمض النووي، ويفترض العلماء التطوريون أن التطور الكبير قد وقع ملايين المرات على كوكب الأرض، لكنهم لم يسبق لهم رؤيته يقع سواء في الطبيعة أو في المعمل. فهم في حقيقة الأمر لا يدرون كيف حدث، كل ما في الإمكان هو تخمين كيف يمكن أن يكون قد حدث، وهذا بالطبع لا يعني أنه حقيقة. فها هو العالم الداروني ثيودوسيس دوزانسكي Theodosius Dobzhansky يعترف بعدم وجود دليل متين يعمل على ربط التطور الصغير بالتطور الكبير، ولا توجد طريقة لفهم آليات التطور الكبير التي تحتاج للزمن بالمقاييس الجيولوجية إلا من خلال تعميم آليات التطور الصغير المشهودة في فترة حياة الإنسان، وانتهى إلى القول بأنه «لهذا السبب فإننا مجبرون على وضع علامة مساواة بين آليات التطور الصغير وآليات التطور الكبير وفق معلوماتنا القاصرة الآن للمتابعة في أبحاثنا إلى أقصى حد يمكن أن تسمح به هذه الفرضية»[1]، فدوزانسكي في الحقيقة كان مضطرًا إلى هذا الافتراض مع عدم وجود دليل عليه. ولا يزال هذا الافتراض محل جدل ونزاع، فعالم الوراثة ريتشارد جولدشميت Richard Goldschmidt كتب يحتج «بعدم كفاية التطور الصغير

(1) Theodosius Dobzhansky, Genetics and the Origin of Species, (1937; reprinted New York: Columbia University Press, 1982), p. 32

لفهم التطور الكبير»[1]، واستنتج أنه «لا يؤدي التطور الصغير إلى تجاوز حدود النوع الواحد، وإن الناتج النموذجي عن عمليات التطور الصغير -الأعراق المنتشرة على أراض مختلفة- ليست أنواعًا طليعية».[2]

وبالمثل كتب مجموعة من علماء الأحياء في مجلة علم الأحياء النمائي عام ١٩٩٦: «قد يكون علم الوراثة كافيًا لشرح التطور الصغير؛ لكن لا تصل التغيرات التطورية الصغيرة في تواتر الموروثات لحد تحول الزواحف إلى ثدييات أو تحول السمك إلى برمائيات. يؤدي التطور الصغير إلى التكيف مع البيئة بما يعني البقاء للأصلح ولا يعني ظهور الأصلح»، ووصلوا إلى استنتاج أن «أصل الأنواع – مشكلة داروين- تبقى مشكلة غير محلولة».[3] وكذلك كتب عالم الأحياء شين كارول Sean Carroll في مجلة ناتشر عام ٢٠٠١: «المشكلة العالقة في علم الأحياء التطورية هي كفاية العمليات المشاهدة في الجماعات والأنواع الحية – التطور الصغير- لتفسير التغيرات الكبيرة والتي تجري في فترات طويلة من تاريخ الحياة».[4]

ويعترف بهذا د. أحمد شوقي أستاذ الوراثة بجامعة الزقازيق رغم أنه من المؤيدين لنظرية التطور بقوله: «إن المستويات الدقيقة الأصغر microevolution يمكن

---

(1) Richard Goldschmidt, The Material Basis of Evolution (New Haven: Yale University Press, 1940), p. 8.
(2) Ibid., p. 396.
(3) Scott F. Gilbert, John M. Opitz, and Rudolf A. Raff, "Resynthesizing Evolutionary and Developmental Biology," Developmental Biology173 1996): 357–372.
(4) Sean B. Carroll, "The Big Picture," Nature 409 (2001): 669.

مشاهدتها وإحداثها، أما المستويات الأكبر macroevolution ففرضياتها أكثر من حقائقها». [١]

إذن كيف يمكن أن يحدث التطور الكبير؟

الاحتمال الأول هو أن التطور الكبير يحدث عن طريق حدوث طفرة في الحمض النووي الخاص بأحد الأبوين أو كلاهما، مما أدى إلى نشوء أبناء ذوي حمض نووي متطفر ومختلف وجديد تمامًا وقابل للحياة، أي: نوع جديد بتركيب جديد للحمض النووي. وهذا هو السيناريو الأشهر بين التطوريين لتفسير كيفية نشوء نوع جديد أو تركيب جديد للحمض النووي عن طريق التطور الكبير. لكنه لم يسبق أن رصده أو لاحظه أحدٌ من قبل.

الاحتمال الثاني هو أن يحدث التطور الكبير عن طريق تزاوج ذكر وأنثى من نفس النوع لكن الابن ليس من نفس نوع أبويه بسبب حدوث طفرة في تركيب الحمض النووي الخاص به بعد حدوث التخصيب، بالإضافة إلى هذا سيكون الابن قادرًا على الانجاب. لكن للأسف لن يكون هناك حيوان آخر قابل للتزاوج معه يحمل نفس تركيب الحمض النووي.

الاحتمال الثالث هو أن يحدث التطور الكبير عن طريق تزاوج ذكر وأنثى من نوعين مختلفين لكن متقاربان جدًا، مما يؤدي إلى نشوء أبناء بتركيب حمض نووي جديد ونشوء نوع جديد. وفي هذه الحالة سيكون الابن قادرًا فقط على التزاوج من أقرانه الذين يملكون نفس الطفرة لا غير.

---

(١) د. أحمد شوقي، "ثلاث قصص علمية؛ البيولوجيا، التطور، الوراثة"، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠١٣، ص١٤٨.

ما الذي يجمع هذه الاحتمالات الثلاثة؟ فيها جميعًا لابد من نشوء تركيب جديد للحمض النووي! بخصوص الأنواع التي تحوي ذكرًا وأنثى، فإن الحيوان الأول الذي يملك تركيب جديد للحمض النووي لن يجد من يتزاوج معه إلا ربما ابن آخر لنفس الأبوين. أما في حالة الاحتمال الثاني فإنه من المستحيل تقريبًا أن ينشأ نوع جديد؛ لأن الحيوان الأول لن يجد من يتزاوج معه نظرًا لوقوع الطفرة والتغير في تركيب الحمض النووي بعد الإخصاب. وبالطبع لن يحل التوائم المتماثلة هذه المشكلة لأنهم سيكونون من نفس الجنس ذكرانًا أو إناثًا.

ثم هناك نقطة أخرى محورية وهي أن الحمض النووي الجديد لابد أن يحوي على الأقل جينًا واحدًا جديدًا، وأن يكون فاعلاً، أي يقوم بخلق بروتين جديد نافع ومفيد وظيفيًا. وهذا هو السبب الرئيسي في استحالة وقوع التطور الكبير؛ لأنه لا يكفي أن يوجد جين جديد مميز من النيوكليوتيدات فقط، بل لابد أن يملك القدرة على تكوين بروتينات ذات وظيفة جديدة إضافية للكائن الحي.

نحن إذن بحاجة إلى جين واحد فقط لتجوز تسمية الابن بأنه نوع جديد، ولن يكون نوعًا جديدًا حتى تكون له وظائف جديدة، والوظائف الجديدة تتطلب جينات جديدة أو جينًا جديدًا واحدًا على الأقل. وإن لم يحتو التركيب الجديد للحمض النووي على جين جديد واحد على الأقل، فلن نعتبره نوعًا جديدًا، بل مجرد طفرة لا نوع جديد. فإنه لا يكون نوعًا جديدًا إلا إذا أضيف إليه جين جديد مما يعني أن يكون الشريط الوراثي أطول.

يضاف إلى كل هذا أن نشوء نوع جديد قادر على الإنجاب ويحوي تركيبًا جديدًا للحمض النووي أمرٌ لم يسبق رصده بواسطة أي من العلماء، وبالتالي فهذه

الاحتمالات كلها افتراضات نظرية لا أكثر. بمعنى آخر؛ فإنه لم يسبق لأحد من العلماء أن شاهد نشوء أي نوع جديد سواء في الطبيعة أو في المعمل عن طريق أي من هذه الوسائل. فنحن إذا اعتبرنا أن نشوء نوع جديد يعني نشوء حمض نووي جديد مما يتطلب نشوء جين واحد على الأقل، ففي هذه الحالة تكون كل هذه الاحتمالات نظرية لا أكثر لأنه لم يسبق حدوثها لا في الطبيعة ولا في المعمل. وسنرى عند تناول المشاكل الرياضية المرتبطة بحدوث التطور الكبير أن القضية كلها أوهام وضلالات.

في حالة الاحتمال الأول تحدث الطفرات قبل التزاوج، أما في حالة الاحتمال الثاني فتقع في الأبناء بعد التزاوج، أما في الحالة الثالثة فالنوعان مختلفان أصلاً لكنهما متقاربان جينيًا، فهما يتزاوجان وينجبان أبناء أحياء.

الفكرة المحورية في التطور الكبير هي نشوء تركيب جديد للحمض النووي فيه على الأقل جين واحد جديد ونافع وفعال وظيفيًا، أي: بروتين وظيفي واحد أو أكثر. كذلك سيكون من المطلوب أن يكون الحمض النووي الجديد أكبر في الطول من القديم بسبب إضافة الجين الجديد. ولنضع في اعتبارنا أنه في حالة التطور الصغير فإنه لم يؤد أبدًا إلى نشوء نوع جديد بمعنى أنه لم يؤد إلى نشوء تركيب جديد للحمض النووي. أما في حالة التطور الكبير، فإن هناك دومًا تركيبًا جديدًا للحمض النووي، مما يعني وجود جينات جديدة أو أطول في تتابع النيوكليوتيدات.

نفهم من هذا أن طول الحمض النووي في حالة التطور الكبير سيزداد عما كان عليه في الآباء. من الناحية النظرية يمكن أن يكون أقصر، لكن التطوريين يقولون إن الأبناء يكونون أرقى وأفضل من الآباء مما يتطلب وجود ميزات إضافية، أي: جينات إضافية.

لم يسبق لأحد من التطوريين أن تكلم عن نشوء أنواع أدنى من آبائها عن طريق التطور، بل الحقيقة أنه لم يسبق لأحد أن شاهد أو رصد نشوء نوع جديد أصلاً عن طريق التطور سواء أرقى أو أدنى! لكنهم مع هذا يزعمون أن الأنواع الجديدة تكون أرقى من أسلافها، وبالتالي فنحن نتوقع أن يكون الشريط الوراثي أطول لاحتوائه على المزيد من الجينات الجديدة التي تضيف ميزات إضافية جديدة للنوع الجديد.

وكما أوضحنا سالفًا فإن الكلام عن التطور الكبير يدور كله في إطار نظري محض طالما لم يسبق لأحد رصده. ومن هذه الجهة فإن من غير المحتمل أن تؤدي أي حالة من هذه الاحتمالات إلى نشوء ذرية قادرة على الإنجاب والتكاثر والاستمرار، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل في هذا المقال.

من الناحية العملية:

بعيدًا عن المشاكل الإحصائية بخصوص وقوع نفس الطفرات في كل من الذكر والأنثى، هناك مشاكل عملية؛ فالحمض النووي موجود في كل الخلايا الحية، كل حيوان وكل نبات يحوي الحمض النووي المميز له في خلاياه بحيث تحوي خلايا الكائن نفس الحمض النووي. لكن ما الفرق بين هذه الخلايا داخل الكائن الواحد؟ الفرق هو الجينات التي يتم تفعليها، فهي تختلف من خلية لأخرى، فالجينات الفعالة في الخلية العصبية تختلف عن الجينات الفعالة في خلايا الكبد تختلف عن الجينات الفعالة في خلايا القلب، وهكذا...

معظم هذه الخلايا ليس لها علاقة بعملية التزاوج والتكاثر، أما الخلايا المتخصصة في عملية التكاثر فهي الخلايا التي سيكون حمضها النووي مؤثرًا في

الأجيال التالية. فالخلية الموجودة في الجلد أو في القلب أو في المخ لن يكون لها دورٌ في التزاوج، وبالتالي لن تؤثر أي طفرة فيها في الأجيال التالية حتى لو كانت طفرة مفيدة ونافعة وظيفيًا. فلكي ينشأ نوع جديد لابد أن تقع الطفرة أو الطفرات في العدد المحدود من الخلايا المختصة بعملية التكاثر، فمن بين كل خلايا الجسم فإن نخبة قليلة ونادرة من الخلايا هي التي لابد أن تقع فيها الطفرات الصحيحة لكي تنقلها إلى الجيل القادم. فلو حتى وقعت هذه الطفرات في خلية بالجلد أو القلب أو الطحال أو أي خلية أخرى غير مختصة بالتكاثر، فلن يكون لها أي تأثير على الجيل القادم.

لنقولها بطريقة أخرى: في الأنواع المشتملة على ذكر وأنثى لابد أن تقع نفس الطفرة أو الطفرات في الحيوان المنوي الذكري والبويضة الأنثوية اللذين سيتم وقوع التزاوج أو التخصيب بينهما (وليس في أي حيوان منوي وأي بويضة) حتى تظهر الطفرة في الجيل التالي. وهذا يعني أنه من بين كل الخلايا القادرة على التكاثر (الحيوانات المنوية والبويضات) لابد أن تقع الطفرة في الحيوان المنوي المعين والبويضة المعينة اللذين سيتم تزاوجهما وليس غيرهما. فهل هذه الكيفية الموغلة في الندرة واللااحتمالية هي التي يمكن أن تكون الآلية الطبيعية لنشوء الأنواع الجديدة؟

تعقيد الخلية:

وظيفة الجينات هي تخليق البروتين، ويقوم الحمض النووي البشري –على سبيل المثال– بتخليق آلاف البروتينات المختلفة عن طريق الجينات، هذه البروتينات إما تدخل في تركيب الخلية أو يكون لها أدوار وظيفية. ما يحدث داخل الخلية عبارة عن تفاعلات موغلة في التعقيد، والعلماء يفنون أعمارهم في تعلم جزء يسير مما

يحدث داخل الخلية، فمن السخيف إحصائيًا أن تنشأ جينات جديدة من النوع الذي يضيف ميزات أو وظائف جديدة للخلية بهذه الطريقة العشوائية.

ولكي نفهم هذا الأمر بطريقة أفضل دعونا نفكر في عملية إضافة جين جديد يقوم بتخليق بروتين جديد ليحسن من تعقيد ووظائف بروتينات الخلية المتداخلة والمتشابكة العلاقات كمثل إضافة قطعة معدنية جديدة في ساعة حائط متوقعين أن تجعلها تعمل بطريقة أفضل. الفكرة هنا أن تروس الساعة مصممة لكي تعمل معًا بشمل متكامل، فكيف يمكن لقطعة معدنية إضافية أن تعشق بنجاح معها بشكل صحيح وتساهم في تحسين عمل التروس المتكاملة في الساعة؟ إنها ستكون كالرجل غير المناسب في المكان غير المناسب، ستكون قطعة غير مناسبة في مكان شيء كان يعمل بطريقة جيدة.

على نفس المنوال فإن البروتينات داخل الخلية مصممة لتعمل بشكل جماعي متكامل، وإضافة أي بروتين جديد عن طريق جين جديد سيضر أكثر مما ينفع، وفي الحقيقة فإن ما يحدث داخل الخلية أعقد بمراحل مديدة مما يحدث داخل ساعة الحائط.

حتى الآن نحن وصلنا لإدراك حقيقة أن النوع المشتمل على ذكر وأنثى من المستبعد أن يقع فيه التطور الكبير عن طريق بعض الصدف السعيدة التي لابد أن تقع في نفس الذكر والأنثى وفي الخلايا الصحيحة وفي نفس الوقت، وهذه البروتينات الجديدة لابد أن تكون مفيدة ونافعة. طبعًا من غير المعقول أن نصدق أن هذا يمكن أن يقع مرة واحدة، فضلاً عن أن يقع ملايين المرات على هذا الكوكب. الشيء المؤكد أن هذا السيناريو المستحيل لو وقع سيبدأ النوع الجديد من أخ وأخته، فهذا

هو أقرب شيء لوقوع منظومتان متماثلتان من الطفرات، لكن هذا طبعًا لا يمكن تصوره إلا بقدر كبير من الخيال الواسع جدًا.

تعريف التطور الكبير

لم يسبق لأحد من العلماء أن شاهد نشوء نوع جديد من الكائنات الحية، لهذا فهم ليس لديهم علم حقيقي بكيفية نشوئها. رغم هذا سوف نقوم بافتراض –على سبيل المجاراة– أن الطفرات تؤدي بكيفية ما إلى نشوء نوع جديد يشتمل على ذكر وأنثى يحمل كل منهما تركيبًا جديدًا تمامًا للحمض النووي، وسوف نتناولها بالتفصيل من الناحية الرياضية والإحصائية إن شاء الله في أحد مقالات هذا الكتاب.

وكما تكلمنا عن التطور الكبير فدعونا نضع له تعريفًا مناسبًا؛ التطور الكبير هو نشوء نوع جديد من الكائنات الحية عن طريق التغيرات العشوائية في تركيب الحمض النووي في أبوين من نوع آخر موجود مسبقًا أو في الحمض النووي للأبناء أنفسهم أو عن طريق تزاوج نوعين مختلفين مما يؤدي إلى نشوء تركيب جديد تمامًا ومختلف عن الأبوين للحمض النووي، أي: نشوء نوع جديد. وحسب هذا التعريف فإن التركيب الجديد للحمض النووي يقتضي نشوء جين جديد واحد على الأقل على الأقل يكون فعالاً وظيفيًا، أي: يقوم بتخليق بروتين مفيد ونافع وله وظيفة داخل الخلية.

التطور الكبير يقع عندما ينشأ نوع جديد –أي: تركيب جديد للحمض النووي– عن طريق الطفرات العشوائية في الحمض النووي للذكر أو للأنثى أو كلاهما قبل التزاوج، أو في الحمض النووي للأبناء بعد التزاوج، أو تزاوج ذكر وأنثى من نوعين مختلفين لينجبا أبناء من نوع ثالث جديد تمامًا ومختلف. ومن الجدير بالذكر في هذا

المقال أن نؤكد على فكرة أن وقوع التطور الكبير من نوع يشتمل على ذكر وأنثى مستبعدٌ تمامًا نظرًا للكم المهول من المصادفات العشوائية المتجانسة المطلوب توافرها في الطفرات الجينية المفترض وقوعها في الحمض النووي للأبوين أو للأبناء، إنه احتمال أبعد بمراحل من احتمال تلاحم قطرتين من ماء المطر في المحيط بينهما مسافة ألف كيلومتر! في إطار نظرية التطور، فإن الطفرات العشوائية للحمض النووي سواء قبل أو بعد أو أثناء التزاوج والتخصيب هي السبيل الوحيد لنشوء نوع جديد، وهذا ما لم يسبق رصده علميًا على الإطلاق.

ننتقل الآن إلى الكلام عن تعريف التطور من وجهة نظرنا، فكيف نعرّفه إذن؟ مصطلح التطور كان موجودًا قبل اكتشاف الحمض النووي، وبالتالي فنحن بحاجة إلى التفكر في معناه بعد اكتشافه. يدور مفهوم التطور حول نشوء الإنسان من الخلية الحية الأولى، لم يكن داروين يعلم ماهية الخلية الحية الأولى في زمنه، ولا حتى نحن الآن بالمناسبة! لكنه افترض أن كل نوع من الكائنات الحية تطور عن نوع آخر بدائي عنه، وهذا ينطبق على كل الحيوانات والنباتات. لم يكن داروين يعلم شيئًا عن الحمض النووي، وبالتالي فعلماء اليوم عليهم أن يقوموا بتأويل نظريته في ضوء الاكتشاف الجديد، فقالوا إن الحمض النووي البشري تطور عن حمض نووي صغير وقصير وبدائي في الخلية الأولى عن طريق آلاف الأنواع الوسيطة، وفي كل مرحلة من مراحل التطور كان الحمض النووي للنوع الجديد يزداد طولاً عن أسلافه مع وضع في الاعتبار أن يكون أرقى من هؤلاء الأسلاف. عند هذه النقطة نلاحظ أن مفهوم التطور الذي وضعه داروين وتم إعادة تخريجه بعد اكتشاف الحمض النووي يتطابق مع ما نعرفه نحن باسم التطور الكبير.

يُعرف التطور الكبير بأنه الوسيلة التي يتم بها ارتقاء الأنواع ونشوء أنواع جديدة، ويدور مفهوم التطور الدارويني حول فكرة أن العديد من الأنواع الوسيطة المتابعة تنشأ خطوة بخطوة حتى يخرج إلينا الإنسان منحدرًا من الخلية الأولى، وكل نوع وسيط في هذه السلسلة هو في الحقيقة عبارة عن نوع جديد ينشأ عن سلفه. من هنا يظهر لنا أن مفهومي التطور الدارويني والتطور الكبير يعنيان نفس الشيء بمعنى أن تركيبًا جديدًا للحمض النووي يتخلق منشئًا نوعًا جديدًا في كل مرة. هنا تظهر حاجتنا إلى مصطلح التطور الكبير ليؤكد على حقيقة أن التطور الصغير لا يخلق تركيبًا جديدًا للحمض النووي، وكلا المصطلحين يعتمدان في تعريفهما على تركيب الحمض النووي DNA oriented، لكن الفارق أن التطور الصغير لا يؤدي إلى نشوء تركيب جديد للحمض النووي، بينما التطور الكبير هو الوسيلة الوحيدة لنشوء تركيب جديد أطول أو أحسن أو أرقى من الحمض النووي.

لكن لماذا لا ندخل التطور الصغير داخل مفهوم التطور الدارويني؟ يمكننا ذلك لكن المشكلة أن التطور الصغير لا يؤدي إلى نشوء تركيب جديد للحمض النووي، ولأجل أن تكون نظرية داروين صحيحة لابد من أن يكون التطور قادرًا على تخليق ملايين التراكيب الجديدة المتابعة من الحمض النووي، وهذا ما لا يحققه التطور الصغير إطلاقًا، وليس هو مقصود التطوريين عند الكلام عن نظرية التطور، ولأجل هذا فهو لا يصلح لإدخاله في مصطلح التطور الدارويني.

نشوء نوع جديد من نوع قديم هو قلب وروح الداروينية، رغم أن داروين نفسه لم يكن لديه أي معرفة بالفارق بين التطور الصغير والتطور الكبير. نعم، هو لاحظ التطور الصغير وسماه تطورًا، لكن جوهر نظريته يدور حول مفهوم تطور الإنسان من

أنواع أخرى أدنى، مثل الرئيسيات، وهذا يتطلب أن يكون التطور الكبير حقيقة ثابتة. فرغم أن داروين استعمل لفظ التطور ليشير إلى أمثلة من التطور الصغير والكبير على السواء إلا أننا ينبغي أن نضع في الاعتبار جوهر النظرية، ألا وهو نشوء الأنواع الجديدة من أخرى قديمة صعودًا حتى الإنسان. فقط التطور الكبير يحقق هذا المقصود، وبالتالي فإن مقصود النظرية في الحقيقة لا يتفق إلا مع التطور الكبير القادر على تخليق أنواع جديدة، ولأجل هذا فنحن نستعمل مصطلح التطور لنقصد به التطور الكبير فقط لا غير.

ما تحتاجه نظرية التطور لكي تكون حقيقة هو تفسير هذا الصعود أو الارتقاء من الخلية الحية الأولى (مفهوم الخلية الأولى هو كذلك أحد فرضيات نظرية التطور) حتى الإنسان مما يتطلب العديد والكثير جدًا من تراكيب الحمض النووي الوسيطة.

لو كان التطور حقيقة، فإن الحمض النووي للخلية الأولى المفترضة ينبغي أن يكون قصيرًا جدًا وبدائيًا جدًا، لأنه نشأ –من وجهة نظر التطوريين– عن طريق التفاعلات العشوائية بين الماء والطين والتربة والبرق الكهربي. ففي سبيل تفسير كيف نشأ الحمض النووي للإنسان لابد أن يوضح علماء التطور بدءًا من الخلية الأولى جميع مراحل هذا التطور والارتقاء بالحمض النووي في الأنواع المختلفة ليصير أطول وأكثر تعقيدًا حتى نصل في نهاية المطاف إلى الحمض النووي البشري. لكن هذا الارتقاء بالحمض النووي ليصير أطول وأكثر تعقيدًا لا يقع إلا عن طريق التطور الكبير فقط، لأن التطور الصغير لا يغير من تركيب ولا طول الحمض النووي. إذن فالتطور الكبير فقط لا غير هو المسئول عن تطور كل الأنواع على هذا الكوكب ما عدا الخلية الأولى المزعومة. وعليه فلكي نعلل وقوع التطور فإنه يلزمنا خلق الملايين من تراكيب

الحمض النووي عن طِريق الطفرات العرضية والعشوائية في الحمض النووي بما يؤدى إلى نشوء كل أنواع الكائنات الحية الموجودة والمنقرضة.

لو عددنا كل الجينات الفعالة في كل أنواع الكائنات الحية الموجودة والمنقرضة سنجد أنه يوجد ما يقرب من مليار جين على وجه الأرض. رغم هذا فإنه لم يسبق رصد نشوء جين واحد فعال جديد عن طريق الصدفة، إنما فقط عن طريق التلاعب بالمصطلحات يقوم القوم بخداع العوام والطلبة ليحسبوا أن هناك دليلاً على وقوع التطور الكبير.

باختصار، فإنه حسب نظرية التطور فإن كل نوع من الكائنات الحية ما عدا الخلية الأولى على وجه الأرض قد نشأ عن طريق طفرات صدفية عشوائية للحمض النووي إما قبل التزاوج أو بعده أو أثنائه.

دعنا الآن نرى الفرق بين التطور الكبير والتطور الصغير:

التطور الصغير لا يؤثر على تركيب الحمض النووي، هو يؤثر فقط على تتابع النيوكليوتيدات داخل نفس هذا التركيب، التطور الصغير قد يخلق سلالات جديدة لكنه لا يخلق أنواعًا جديدة لأنه لا يستطيع أن يخلق تركيبًا جديدًا للحمض النووي. وبالتالي فإن التطور الصغير ليس له أي علاقة بنظرية داروين، لأنه لا يغير طول أو تركيب الحمض النووي، ولا يمكن للبشر أن ينشئوا من الخلية الأولى أو أي من الرئيسيات عن طريق التطور الصغير لأن تركيب الحمض النووي سيظل ثابتًا. فلو كان التطور الصغير هو السبب لكان تركيب وطول الحمض النووي في الإنسان مماثلاً لذلك في الخلية الأولى وفي كل الأنواع.

أما التطور الكبير فهو قادر على خلق تركيب جديد وفريد للحمض النووي، وهو السبيل الوحيد لنشوء الأنواع الجديدة ذات التراكيب الجديدة للحمض النووي. وبالتالي فإن التطور الكبير هو الوحيد القادر على خلق تركيب جديد للحمض النووي لملايين الأنواع التي عاشت أو تعيش على كوكب الأرض.

وهذا يؤدي بنا إلى ملاحظة أنه بهذا التفريق فكل من التطور الكبير والتطور الصغير يحمل مفهومًا مغايرًا تمامًا للآخر، وكل منهما يؤدي إلى نتائج مختلفة تمامًا، فالتطور الصغير لا ينتج عن الصدفة ولا يؤدي إلى نشوء أنواع جديدة، بينما التطور الكبير ينتج عن الصدفة ويؤدي إلى نشوء أنواع جديدة.

إذن لماذا استغرقنا كل هذا الوقت وكل هذه الصفحات في التعريفات والمصطلحات؟ الغرض من هذا هو عدم إضاعة الوقت في جدل عقيم حول قضايا فرعية، أو بمعنى آخر: تعريف هذه المصطلحات يبين الفرق بين سلالة جديدة (التطور الصغير) ونوع جديد (التطور الكبير). فلو زعم أحد الناس أن التطور حدث في الطبيعة، فعليه إثبات أن هناك جينات جديدة مختلفة قد نشأت ملايين المرات من قبل مما يعني نشوء تركيب جديد للحمض النووي في كل مرة. فإذا لم توجد جينات جديدة، فهذا يعني أنه لا تطور هاهنا، لأنه لكي ترتقي من الخلية الأولى حتى الحمض النووي البشري فأنت بحاجة إلى ملايين الجينات الجديدة الفريدة التي يتم تخليقها عن طريق الصدفة العمياء والعشوائية المحضة. هذا الجين الجديد يجب أن لا يكون موجودًا في النوع القديم ولا بد أن يحمل وظيفة فعالة في النوع الجديد، أي: يقوم بتخليق بروتينات ذات وظيفة.

من المهم لقارئ هذا المقال أن يدركِ الفارق بين التطور الصغير والتطور الكبير، وأنهما مفهومان مختلفان تمامًا، وأن التطور الكبير يعني زيادة في طول الحمض النووي وإضافة جينات جديدة ونشوء نوع جديد، وأن التطور الداروني يساوي ويطابق مفهوم التطور الكبير، وأنه لا علاقة للتطور الداروني بالتطور الصغير.

النوع

Species

يستخدم العلماء المؤيدون للتطور والمعارضين نفس المصطلحات العلمية تقريبًا، لكنهم يقصدون بها معان مختلفة تمامًا، فمثلاً ظهر لنا في المقالات السابقة أن هناك فرقًا شاسعًا بين التطور الصغير والتطور الكبير وأنهما شيئان غاية في الاختلاف، لكن التطوريين يرون أنهما نفس الشيء ولا فرق بينهما ولا داعي للتفريق، كيف هذا؟ هذا هو الحاصل وذلك لأنهم يسعون للتدليس على الطلبة بخصوص حقيقة التطور وحقيقة الأدلة عليه.

القوم لا يملكون أي دليل علمي على وقوع التطور الكبير الذي هو حقيقة التطور الداروينى، فبالتالي هم يقومون بالتدليس ليتظاهروا بأنه يوجد دليل علمي على التطور، ثم يستعملون نفوذهم العلمي والإعلامي للحط من مخالفيهم. فلا بد لهم من التظاهر بوجود دليل علمي على التطور حتى يقنعوا الآخرين، ولأنهم لا يملكون هذا الدليل المادي فهم يسعون للتدليس في المصطلحات. لأجل هذا استغرقنا كل هذه الصفحات لتوضيح وبيان المقصود بهذه المصطلحات. إذا كانت كل المصطلحات مبينة على تركيب الحمض النووي، وكان التطوريون مخلصين في استعمالها بشكل صحيح لما اقتنع بالتطور الداروينى أي شخص على الإطلاق، لهذا فهم بدلاً من استعمال مصطلحات دقيقة مبنية على الحمض النووي، يقومون باستخدام المصطلحات بشكل ضبابي فيه الكثير من الغموض والتلاعب والتدليس. وفي نهاية المطاف سيظهر أنه لا دليل حقيقي على الداروينية إلا التدليس والتلاعب

بالمصطلحات، فإنه في واقع الأمر لا يوجد أي دليل على حدوث التطور الكبير الذي هو التطور الدارويني.

طبعًا يعي القارئ أن مفهوم التطور الكبير مرتبط بمفهوم النوع الذي هو بدوره مرتبط بمفهوم تركيب الحمض النووي، وذلك لأن مصطلح النوع ومصطلح تركيب الحمض النووي يعنيان نفس الشيء في الحقيقة.

مع اكتشاف الحمض النووي في ١٩٥٣ كان من المنتظر من كتب العلوم أن يتم ربط كل المصطلحات العلمية بتركيب الحمض النووي، لكن هذا لم يحدث، وليس من المتوقع أن يحدث، فمؤيدو التطور حريصون على أن يظل الغموض محيطًا بالمصطلحات العلمية. ورغم أننا لا يمكننا التحصل على الحمض النووي الخاص بالعديد من الكائنات المنقرضة إلا أن لدينا ثروة من الأحماض النووية المختلفة لكل الأنواع الحية وبعض الأنواع المنقرضة، بالإضافة إلى أن تقنية قراءة النيوكليوتيدات في الحمض النووي قد تقدمت كثيرًا. لكن الحقيقة أنه حتى لو حصلنا على الحمض النووي الخاص بكل حيوان ونبات وكائن وحيد الخلية أو عديد الخلايا على وجه الأرض، فلن يتم ربط مصطلح النوع بتركيب الحمض النووي، لماذا؟ لأن هذا الغموض والاضطراب يخدم في الحقيقة الأيديولوجيا الإلحادية.

من المؤكد أن القارئ العزيز يتساءل الآن عن تعريف مصطلح النوع عند الداروينيين، في الحقيقة لا أحد يمكنه أن يجيب عن هذا التساؤل لأن القوم ليس لديهم حتى الآن تعريف للنوع! وهذا يعطيهم الكثير من المرونة عند الحديث عن التطور. بكلمات أخرى، فإنه إذا لم يكن للنوع تعريف محدد عند القوم فليس عليهم حرج في عدم ربط التطور بالنوع، وبالتالي يكون لديهم مساحة للمراوغة في الكلام

عن نظرية التطور دون الرجوع للحمض النووي أو تركيبه، ويبدو هذا واضحًا في كون أمثلتهم على صحة الداروينية لا تشترط إطلاقًا نشوء جينات جديدة. الغموض يولد مزيدًا من الغموض ومع تعريف غامض أو حتى بدون تعريف محدد للنوع يستطيع التطوريون أن يزعموا وجود أدلة على صحة التطور كما يشاؤون دون أي قيود.

لكن قبل أن نحكي تعريف التطوريين للنوع دعنا نؤكد على تعريفنا نحن له: النوع المحدد المعين هو الذي يكون له تركيب محدد معين للحمض النووي. تعريف غاية في الدقة، أليس كذلك؟ رغم هذا نجد التطوري الشهير إرنست ماير Ernest Meyer يقول بخصوص عدم قدرة التطوريين على وضع تعريف محدد للنوع:

(لا يستطيع المرء أن يدرس أصل الفجوات بين الأنواع إلا إذا درس ما معنى الأنواع أصلاً. لكن الطبيعيين يمرون بوقت مرير عند محاولة الوصول لإجماع على هذه النقطة. في كتاباتهم يُعرف هذا الأمر بمشكلة الأنواع species problem. حتى الوقت الحاضر لا يزال لا يوجد اتفاق على تعريف النوع. هناك أسباب عديد لهذه الخلافات، لكن أهمها اثنان. الأول هو أن مصطلح النوع يستعمل للإشارة إلى أشياء مختلفة كثيرًا، للنوع كمفهوم وللنوع كتصنيف. مفهوم النوع يشير إلى معنى الأنواع في الطبيعة وإلى دورها في البيئة الطبيعية. أما تصنيف النوع فيشير إلى موضوع خاص بعلم الحيوان، إلى تجمع سكاني يقوم سويًا بتحقيق مفهوم النوع.

تصنيف الإنسان العاقل homo sapiens هو تجمع من السكان الموزعين جغرافيًا يندرج ككل تحت مفهوم نوع معين.

السبب الثاني هو أن مفهوم النوع قد تغير على أيدي الطبيعيين في المائةِ عام الأخيرة من كونه لصيقًا بمفهوم النوع التوبوجرافي إلى قبول مفهوم النوع البيولوجي.

لو كانت الاختلافات بين السكان عبر نطاق جغرافي لنوع ما قليلة ولا تندرج تحت فروق تصنيفية، فالنوع يسمى أحادي الصورة monotypic. رغم هذا ففي الغالب تكون السلالات الجغرافية من نوع ما مختلفة بشكل يبرر تصنيفها إلى أنواع فرعية subspecies، وتصنيف النوع الذي يتكون من عدة أنواع فرعية يسمى متعدد الصور polytypic».[1]

لاحظ أنه على مدار هذه الفقرات الطويلة لم يخرج لنا ماير بتعريف للنوع، بل إنه لم يذكر الحمض النووي ولو لمرة واحدة! لماذا لا يقوم هؤلاء القوم بتعريف النوع حسب تركيب الحمض النووي؟ إنهم يتصرفون كما لو كان الحمض النووي لم يكتشف بعد!

هم يتعمدون الغموض لأن الحقيقة ستهدم مكرهم بالليل والنهار، وإن مكرهم لتزول منه الجبال، لابد لهم من التضليل والتدليس في المصطلحات وإظهار المسألة بصورة معقدة متحذلقة بحيث لا يفهم طلبة العلوم ما الذي يجري.

كل ما عليهم أن يفعلوه هو أن يعرفوا النوع بأنه التركيب المعين للحمض النووي، ثم يربطون كل مصطلحاتهم بهذا التعريف. لكنهم لن يفعلوا هذا، لابد من تغليف المسألة بسحابة من الغموض والرطانة العلمية غير المفهومة. العلماء المؤمنون بالخلق لا يحتاجون إلى هذه الأساليب المخادعة، فمصطلحاتهم مرتبطة بتركيب

(1) Ernest Mayer, What Evolution Is, pp. 163–165.

الحمض النووي، وهم يعلمون جيدًا أن الحمض النووي اكتشف عام ١٩٥٣. لهذا ينبغي التنبيه على أن تعريفاتنا للمصطلحات لا تتفق وتعريفات التطوريين المبثوثة في كتب علم الأحياء التي يدرسها الطلاب في بلادنا. لن تجد في كتب علم الأحياء أي ذكر للتطور الصغير أو التطور الكبير، وهذا مقصودٌ ومتعمدٌ بالطبع.

كذلك من الأمثلة الفجة على هذا التدليس كلامهم عن الانتواع speciation، وهو افتراق نوع واحد إلى نوعين، أي: نشوء نوع جديد من نوع قديم، ولأنهم لا يملكون تعريفًا واضحًا محددًا للنوع، فمفهوم الانتواع عندهم مضطرب بشدة كذلك. فلا تعرف هل هم يقصدون به نشوء سلالة جديدة بدون استحداث تركيب جديد للحمض النووي أم نشوء نوع جديد بتركيب جديد للحمض النووي. يقول التطوري إدوارد وايلي Edward Wiley: «لقد قتلت هذه العملية (أي: الانتواع) بحثًا، والحق أن إشكال "ما هو النوع" وإشكال "كيف ظهرت الأنواع" بعيدان عن الحل».[1] ولأجل هذا تجدهم يأتون بأمثلة على التطور وهي في الحقيقة أمثلة على التطور الصغير لا الكبير، لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي أمكن رصده في الطبيعة، أما التطور الكبير فلم يسبق رصده أبدًا، وبالتالي فليس عليه دليل واحد. رغم هذا كله يقولون إن لديهم جبالاً من الأدلة على التطور مستعملين أسوأ أساليب التدليس والتضليل.

---

(1) Edward O. Wiley, The Evolutionary Species Concept Reconsidered. In: Ereshefsky, M. (edit.) The Units of Evolution: Essays on the Nature of Species; MIT Press, 1992, p. 79.

التدليس في المصطلحات

قمنا حتى الآن بوضع تعريفات لمصطلحات النوع والتطور الصغير والتطور الكبير حسب وجهة نظر العلماء المؤمنين بالخلق، فدعونا ننظر كيف يقوم العلماء التطوريون بتعريف هذه المصطلحات.

في الواقع موقف التطوريين ليس على ما يرام، هم لديهم جبال من الأدلة على التطور الصغير لكنهم لم يسبق لهم رصد التطور الكبير، وبالتالي فهم لا يملكون دليلاً على التطور الداروني. هذه مشكلة عويصة للقوم، فإنه إذا لم يوجد دليل على التطور الكبير، فلا يوجد دليل على نظرية داروين، فإنه لم تسبق مشاهدة التطور الكبير إطلاقًا من قبل سواء في الطبيعة أو في المعمل مما يعني أن التطور الحقيقي لم تسبق رؤيته في أي مكان. هم يزعمون أن الأدلة على صحة التطور قوية ساحقة ماحقة لدرجة أنهم يعتبرونها في منزلة الحقيقة العلمية القطعية، تأمل مثلاً عبارات دوكينز: «التطور حقيقة بنفس معنى الحقيقة في أن باريس تقع في نصف الكرة الأرضية الشمالي»[1]، «التطور حقيقة لا مفر منها .. التطور موجود من داخلنا، ومن حولنا، وأعماله مدفونة في صخور ما مر من الدهور»[2]، «الوسائل المساعدة التي للاستنتاج والتي قادت العلماء إلى حقيقة التطور هي وسائل أكثر عددًا إلى حد كبير، وأكثر إقناعًا، وأكثر اتصافًا بأنها لا تقبل الجدل، بالمقارنة بأي من تقارير مشاهدي العيان التي استخدمت

---

(١) ريتشارد دوكينز، أعظم استعراض فوق الأرض، ترجمة وتقديم مصطفى إبراهيم فهمي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ج١ ص٤٣

(٢) المصدر السابق، ص٥٣

في أيِ محكمة قانونية، في أي قرن، لإثبات التهمة في أي جريمة. برهانٍ يتجاوز أي شك معقول؟ شك "معقول"؟ هذا هو أقل ما يحكم به في كل الزمان».[1]

وهذا الكلام في الحقيقة صحيحٌ تمامًا لو كان المقصود بالتطور هنا مجرد وقوع التغير مع مرور الزمن أو التطور الصغير داخل النوع الواحد Microevolution، لكن للأسف لا ينطبق هذا الكلام على التطور الكبير Macroevolution، فتشارلز داروين عندما ألف كتابه لم يسمه كيف يقع التغيير داخل النوع الواحد مع مرور الزمن، بل أسماه أصل الأنواع بواسطة الانتخاب الطبيعي، ثم قرر في الكتاب أن كل الكائنات الحية بلا استثناء تنتمي إلى أصل مشترك واحد، ثم بفعل الانتخاب الطبيعي والتغييرات التدريجية العشوائية نشأت جميع أنواع الكائنات الحية سواء الموجودة على سطح الأرض أو المنقرضة.

ما رصده ولاحظه العلماء في هذا الصدد ينحصر في شيئين: الشيء الأول هو طفرات جينية لا تؤثر على تركيب الحمض النووي، أي: لا تؤدي إلى نشوء جينات جديدة، وفي بعض الأحيان تؤدي هذه الطفرات إلى بعض الميزات في الصراع من أجل البقاء؛ والشيء الثاني هو التطور الصغير. لكن لا شيء منها قادر على تفسير التطور الداروني؛ لأن الأخير يتطلب النشوء العشوائي لملايين الجينات المعقدة إلى أقصى درجة والتي تحمل شفرات معقدة إلى أقصى درجة، بينما لم يشهد العلماء أي جين جديد نشأ عن طريق التطور أصلاً، ولم يروا شريط الحمض النووي يزداد طولاً بإضافة جينات جديدة إطلاقًا.

---

(١) المصدر السابق

فعلم الأحياء التطوري إذن في أزمة، فليس لديهم دليل علمي على صحة نظرية التطور، إذن ما العمل؟ كيف يقنعون طلبة العلوم وغيرهم بأن نظرية التطور حقيقة بينما لا يوجد دليل علمي واحد ولا مشاهدة علمية واحدة للتطور الكبير؟ الحل هو دفن الحقيقة، الحل هو ممارسة الخداع عن طريق التلاعب بالمصطلحات والتعريفات، ولننظر كيف قام هؤلاء القوم بهذه الممارسات.

(١) جعل التطور مصطلحًا مائعًا

سعينا في هذه السلسلة من المقالات إلى بيان الفرق الشاسع بين التطور الصغير والتطور الكبير. لهذا قام التطوريون بجعل مصطلح التطور مصطلحًا مائعًا يصلح للمعنيين، فقد يشير إلى التطور الصغير وقد يشير إلى التطور الكبير. حسبما اتفقنا فإن المصطلحين يعنيان شيئين مختلفين تمامًا، لكن التطوريين يستعملون للاثنين نفس المصطلح: التطور. وهذا يعطيهم مرونة كبيرة عند الكلام عن التطور، فقد يتكلمون عن التطور الصغير أو الكبير وهم يقصدون الداروينية والتطور الدارويني. هذه الميوعة في الاصطلاح تجعل المصطلح يعني شيئًا ما في وقت، ثم في الدقيقة التالية يعني شيئًا مختلفًا تمامًا، هذا الغموض غير القابل للسيطرة والتوقع مقصود، فأنت لن تعرف ما الذي يقصده المتكلم التطوري حقًا عندما ينطق كلمة "التطور"، وبالتالي لن يقدر طلبة العلوم والأحياء على اكتشاف الحقيقة أو تحديد موطن الخلل، وهذا لأن المصطلح المائع قد يعني التطور الصغير أو التطور الكبير.

مثلاً إذا كان موضوع الكلام هو عصافير داروين Darwin's finches وأنهم أدلة على وقوع التطور في الطبيعة، بل هم في الحقيقة من أيقونات نظرية التطور، ففي

هذه الحالة يتم استخدام مصطلح التطور بغض النظر عن حقيقة الموضوع، وبهذه الطريقة سيظل الطلبة متعلقين بنظرية التطور وأنها تملك أدلة علمية على صحتها.

وفي هذا نحن نرى أنه لا غضاضة في استخدام مصطلح التطور ليشير إلى التطور الكبير باعتبار أنهما يعنيان نفس الشيء، لكنه من الغش والتدليس أن يتم استخدامه ليشير إلى التطور الصغير الذي يحمل معنى مغايرًا تمامًا.

فأهم وأخطر جانب في هذه الحيلة الخداعية هو أن مصطلح التطور صار يستعمل للإشارة إلى التطور الصغير الذي يخالفه في المعنى عند الكلام عن أمثلة على صحة الداروينية ونماذج حقيقية واقعية، وهذا من أبشع التدليس والغش والتضليل الذي يمارسه القوم في الحقيقة.

يتكلمون عن التطور كمصطلح بديل عن التطور الصغير لأنه توجد أمثلة عديدة جدًا ولا حصر لها على التطور الصغير، ولأنه قد وقع وحدث وعليه شواهد وأمثلة وأدلة لا يمكن منازعتها، إذن فالتطور الدارويني حقيقة ووقع وحدث وعليه شواهد وأمثلة وأدلة لا يمكن منازعتها، ما رأيكم في هذه الخدعة؟

(٢) التجاهل التام لمصطلحات التطور الكبير والتطور الصغير

أفضل طريقة لعدم التورط في استعمال مصطلح التطور بدلاً من التطور الصغير هو إلغاء مصطلحات التطور الصغير والتطور الكبير من القاموس! لا تؤدي هذه الطريقة إلى جعل مصطلح التطور مصطلحًا مائعًا فحسب، بل تعمل كذلك على تجاهل المصطلحات الصحيحة وإقصائها.

مصطلحات التطور الصغير والتطور الكبير مصطلحات دقيقة ومحددة ومرتبطة بتركيب الحمض النووي. رغم هذا لا يسمع عنها طلاب العلوم، بل يسمعون فقط عن التطور خصوصًا عند الكلام على أمثلة التطور الصغير مما يجعل الطلبة يقتنعون بالداروينية.

مصطلحات التطور الصغير والتطور الكبير كانت ستؤدي بالطلبة إلى التساؤل والتشكك في الداروينية، لهذا كان لابد من تجاهلها وإقصائها تمامًا، خصوصًا مصطلح التطور الصغير.

(٢) التظاهر بأن التطور الصغير والكبير يعنيان نفس الشيء

لأن العلماء المؤمنين بالخلق يواظبون على استعمال مصطلحات التطور الصغير والتطور الكبير، فإن التطوريين لم يتمكنوا من التجاهل التام لهذه المصطلحات وأصبحوا مضطرين إلى الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بهذين المصطلحين، وعندها كان منهجهم هو التظاهر بأن كل من التطور الصغير والكبير يعنيان نفس الشيء، وهذا هو مسلكهم في التهرب من هذا الإشكال الجوهري.

كنا قد تكلمنا في مقال سابق عن تناولهم المراوغ والسخيف لمصطلح النوع، وأنه بهذا المسلك لا يعود هناك أي معنى للتطور الصغير والتطور الكبير، وعليه فيمكنهم الزعم بأنهما نفس الشيء. بكلمات أخرى، كيف يمكن وضع تعريف دقيق ومحترم للتطور الصغير والتطور الكبير دون وجود تعريف للنوع؟ لهذا لا غرو أنهم يزعمون أن التطور الصغير والتطور الكبير يعنيان نفس الشيء. لكن هل هما فعلاً

كذلك؟ لقد فصلنا هذا الموضوع تفصيلاً في المقالات السابقة، ورغم أنه من الواضح أنهما لا يعنيان نفس الشيء إلا أنه يتم التعامل معهما رسميًا كنفس الشيء!!

دعونا نقتبس كلام الملحد التطوري الشهير ريتشارد دوكينز Richard Dawkins بخصوص هذه القضية:

«حسنٌ، لابد أن أشير إلى التفرقة المزعومة بين التطور الكبير والتطور الصغير، وأنا أقول "مزعومة" لأن وجهة نظري أن التطور الكبير (التطور على مدار ملايين السنين) هو ما نحصل عليه عندما يعمل التطور الصغير (التطور على نطاق دورات حياة الأفراد) لملايين السنين ... أنا لا أجد أي سبب وجيه للشك في هذه المقولة: التطور الكبير هو عبارة عن العديد من قطع التطور الصغير بعد ضمها إلى بعضها البعض على مدار الزمن الجيولوجي واكتشافها بواسطة الحفريات بدلاً من العينات الجينية».(١)

لاحظ أنه يستعمل مصطلحات التطور الصغير والتطور الكبير دون أي إشارة لمعنى مصطلح النوع، بمعنى آخر هو يظن أنه إذا حصل على العديد من الأمثلة على التطور الصغير التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تؤدي إلى زيادة حجم أو طول الحمض النووي مهما كان عددها، سوف يصل في النهاية إلى وقوع زيادة في طول وتعقيد الحمض النووي!

(1) Richard Dawkins, The Ancestor's Tale – A Pilgrimage to the Dawn of Evolution, pp. 603-605

كيف يمكن لصفر + صفر + صفر + صفر + ... + صفر من النيوكليوتيدات الإضافية والجينات الإضافية أن تساوي ٣ بليون نيوكليوتيدة؟! هذه فضيحة رياضية بكل المقاييس!

لكن الحقيقة أنه لو لم يكن لديك إلا التطور الصغير لملايين السنين وبدأت بكائن دقيق وحيد الخلية، فسوف تحصل في النهاية على كائنات دقيقة عديدة لكنها كلها لها نفس تركيب الحمض النووي ونفس عدد الجينات ونفس طول الحمض النووي، بمعنى آخر ستكون كل الكائنات عبارة عن سلالات مختلفة من نفس هذا الكائن الدقيق وحيد الخلية. لكن دوكينز على ما يبدو لا يعرف أنه مهما كان طول الزمن فإن مجموع الأصفار لن يصل أبدًا إلى ٣ بليون تيوكليوتيدة.

التدليس من خلال المصطلحات وسيلة ماكرة لجعل الناس يعتقدون صحة نظرية التطور، لكنها في النهاية ليست إلا كذبة! التطور الصغير والتطور الكبير عبارة عن شيئين مختلفين، أحدهما حقيقة والآخر زائف، لهذا عندما يزعم أحد التطوريين أنهما نفس الشيء فهو يرتكب خطيئة كبرى في جناب العلم وفي جناب الحقيقة.

(٤) الخلاصة

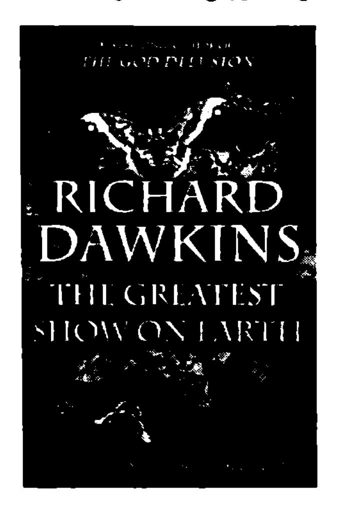
أول خطوة في إقناع الناس بصحة الداروينية هي الزعم بأن التطور الصغير والتطور الكبير يعنيان نفس الشيء أو أن التطور الكبير ليس إلا مجموع العديد من أمثلة التطور الصغير. هذا سمح للتطوريين أن يقوموا بإقصاء هذين المصطلحين من كتبهم. وبهذا صار مصطلح التطور يستعمل عند الكلام على أمثلة التطور الصغير، والحقيقة أن الغرض الرئيسي من كل هذه الأساليب الخادعة هو أن يوضع مصطلح

التطور في محل التطور الصغير عندما لا توجد أمثلة على التطور الكبير. القوم يريدون إقناع الناس بصحة نظرية داروين وهذا غير ممكن إذا استعملوا مصطلح التطور الكبير لأنه لا توجد عليه أي أمثلة تم رصدها أو من الممكن تكرارها، وهم لا يريدون استعمال مصطلح التطور الصغير وحده لأنه سيثير تساؤلات حول كفاية التطور الصغير لتفسير نشوء الأنواع الجديدة. لأجل هذا كله هم يستعملون مصطلح التطور بدلاً من هذين المصطلحين، وبهذه الطريقة لن يكتشف أحد الخدعة الكبيرة التي وقعوا فيها. وبالطبع فإن التعريف غير الموجود لمصطلح النوع يقدم لهم خدمة كبرى في هذا الصدد.

وبناء على هذا كله يستطيع التطوريون أن يظهروا الأمثلة على التطور الصغير على أنها التطور الداروني الذي يعمل في الطبيعة Darwinian evolution in action وبهذا تكون الداروينية حقيقة!

نموذج تطبيقي

دعونا ننظر في كتاب (أعظم استعراض على وجه الأرض – البرهان على صحة التطور) The Greatest Show On Earth – The Evidence For Evolution، وهو أحدث كتب ريتشارد دوكينز العالم البيولوجي الملحد. دوكينز في الحقيقة يعبد داروين ويقدسه، وعنوان كتابه يوحي بأن نظرية داروين قد صارت حقيقة



لا مراء فيها وأنه يوجد أطنان من الأدلة والبراهين على صحتها! ربما لو عملنا استفتاءً على أفضل كتاب عن نظرية التطور في التاريخ سيحصل كتاب (أعظم استعراض على وجه الأرض) على العديد من الأصوات، ولمن لا يعرف دوكينز فهو أشهر الملاحدة في زماننا هذا وأبرز المؤيدين لنظرية التطور وهو نفسه يرى أن كتابه (أعظيم استعراض على وجه الأرض) هو أفضل كتاب كتبه في حياته عن نظرية التطور.

إليكم المفاجأة إذن: كل الأدلة العلمية المعتبرة التي ذكرها دوكينز في هذا الكتاب للدلالة على صحة نظرية داروين هي أمثلة للتطور الصغير، وليس فيها دليل واحد حقيقي على التطور الكبير بأي صورة من الصور! هو بالفعل استعرض عددًا هائلاً من الأمثلة على التطور الصغير ليثبت أن الداروينية صحيحة وأنه لا يوجد إله.

كل ما كان على دوكينز أن يقوم به هو التخلص من مصطلحات التطور الصغير والتطور الكبير، واستعمال أمثلة التطور الصغير لكن باستخدام لفظ التطور فقط، مما

يسمح له بالزعم بأنه توجد أمثلة كثيرة جدًا على صحة التطور الدارويني (الذي هو في الحقيقة ليس إلا التطور الكبير). ودعونا نتناول مثال محدد على هذا المسلك لدوكينز.

في الصفحات من ١٨١ حتى ٢٠٠ من الترجمة العربية يحكي دوكينز عن سلسلة من التجارب المعقدة طويلة الأجل أقيمت في جامعة ولاية ميتشجان على يد البروفيسور ريتشارد لينسكي Richard Lenski، هذه التجارب تم إجرائها على الباكتيريا المعوية المعروفة باسم إي كولاي E. Coli، ويصفها دوكينز بقوله: «إثبات عملي جميل للتطور وهو يعمل»[١]، فما حكاية هذه التجارب؟

في عام ١٩٨٨ قام د. لينسكي مع فريق العمل التابع له ببدء هذه التجارب عن طريق وضع سلالة معينة من الباكتيريا المعوية في ١٢ أنبوبة معمل مختلفة بحيث توضع كميات محسوبة من الغذاء في كل أنبوبة ثم يتم نقل نسبة معينة من الباكتيريا الناجية من كل أنبوبة إلى أنبوبة أخرى جديدة تمامًا. غرض هذه التجربة هو رصد كيف تتغير أحجام وعادات الغذاء وغيرها في الباكتيريا مع الوقت في الـ١٢ أنبوبة، وطبعًا هذه التغيرات في كل مجموعة تقع بمعزل عن المجموعات الأخرى تمامًا لأنه غير مسموح بخلطها أو المزج بينها إطلاقًا. ولأكثر من عشرين عامًا حتى وقت تأليف دوكينز لكتابه (أعظم استعراض على وجه الأرض) استمرت التجربة وربما هي مستمرة حتى هذه اللحظة.

---

(١) ريتشارد دوكينز، أعظم استعراض فوق الأرض، ترجمة وتقديم مصطفى إبراهيم فهمي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ج١ ص١٨٢

كل الاثني عشر مجموعة من الباكتيريا زادت في الحجم عن طريق الانتخاب الطبيعي – أي: البقاء للأصلح– وهو ما يعد مثالاً على التطور الصغير. ولم يوجد أي جين جديد أو زيادة في طول الحمض النووي، فقط تغير في بعض تتابعات النيوكليوتيدات عن طريق الطفرات فيها، لكن دون نشوء أي جين جديد، أثناء انقسام الخلية. أحد هذه الاثني عشر قبيلة –بتعبير دوكينز- اكتسب القدرة على هضم السترات citrate كما لو كانت جلوكوز glucose، لكن سائر القبائل لم تكتسب نفس القدرة. هذه القدرة في الحقيقة تطلبت وقوع طفرتين متتابعتين، وليست واحدة فقط، ولهذا لم تقع إلا في قبيلة واحدة فقط. هنا لم يتم اكتشاف جين جديد ولم ينشأ حمض نووي جديد، فقط حدث تبدل في تتابعات النيوكليوتيدات التي تتحكم في هذه الصفة. بل إن هذه القدرة على هضم السترات لإنتاج الطاقة ليست صفة جديدة في حقيقة الأمر، بل هي موجودة أصلاً في الباكتيريا لكنها لا تعمل إلا في غياب الأكسجين، لهذا كانت الطفرة الجينية هي تكرار نسخ الجين المسئول عن هضم السترات في موضع يضم جينات تعمل في وجود الأكسجين، لهذا تم تنشيطه معها. وبمجرد تنشيط هذا الجين يبدأ هضم السترات، وتعمل بقية السلسلة البيوكيميائية المتخصصة في هضم وتفكيك وأيض السترات لإنتاج الطاقة في الخلية، فالمسألة ليست معتمدة على جين واحد فقط، بل حزمة من الجينات التي تعمل في تناغم وغائية واضحة لاستخلاص الطاقة من السترات، وهذه الطفرة التي يحكي عنها دوكينز بشكل يدفع القارئ للانبهار وحبس الأنفاس ليست إلا تكرارٌ لنسخ جين موجود أصلاً يعمل تفعيله على تنشيط سلسلة كاملة من الجينات المتخصصة في هضم وتفكيك وأيض السترات، لكن الفرق أنه بينما يعمل هذا الجين في غياب الأكسجين كوسيلة لإنتاج الطاقة للخلية في الظروف البيئية القاسية، حدثت طفرة

أدت إلى عمله في وجود الأكسجين. فحقيقة الأمر أن هذا الجين موجود أصلاً ولم ينشأ من نقطة الصفر بسبب الطفرات، بل تم دفعه من حالة الخمول لأجل العمل في وجود الأكسجين لا في غيابه.(١)

ما الذي نريد اثباته من هذا النموذج؟ على مدار ٢٠ صفحة كتبها دوكينز – حسب الترجمة العربية– عن هذه التجربة استعمل مصطلحات التطور والتطوري ومتطور ويتطور وتطور ٤٧ مرة تقريبًا، بينما لم يستعمل لفظة التطور الصغير أو التطور الكبير مرة واحدة، ما الإشكال هنا؟ على مدار تجربة لينسكي لم يحدث أن نشأت مادة وراثية جديدة، لا جينات ولا تركيب جديد للحمض النووي ولا نوع جديد من الباكتيريا ولا أمكن رصد التطور الكبير. فما تم رصده طوال هذه التجربة هو التطور الصغير، فلماذا إذن حافظ دوكينز على ترديد مشتقات كلمة التطور العديد من المرات؟ ولماذا يعتقد أن هذا الأمر مثال ناجح على وقوع التطور؟

في الإجابة على هذه التساؤلات نحتاج إلى استحضار معنى أنه لكي يقوم التطور بإيجاد الحمض النووي البشري من الخلية الأولى فإنه يلزمه آلاف المرات من إنشاء معلومات جينية جديدة أو مادة وراثية جديدة في كل نوع جديد ينشأ عن سلفه مؤديًا إلى نشوء آلاف الأنواع والتي تتمايز عن بعضها البعض بجينات إضافية على شجرة التطور المزعومة، ولكل نوع جديد على الأقل جين واحد جديد وإلا فلن يكون جديدًا.

---

(1) Zachary D. Blount, et al., Genomic analysis of a key innovation in an experimental Escherichia Coli population. Nature (489), pp. 513–518, 27 September 2012, doi:10.1038/nature11514

لم تتم ملاحظة أو رصد نشوء أي مادة وراثية جديدة في تجارب لينسكي، لكن تمت ملاحظة التطور الصغير بوضوح شديد من خلال الطفرات التي تعني استبدال نيوكليوتيدة بأخرى في الشريط الوراثي وهو ما يعرف بالتطور الصغير. بكلمات أخرى فهذه التجارب ليس لها أي علاقة بالتطور الكبير الذي هو حقيقة الداروينية، وكل اكتشاف في هذه الدراسة لم يكن إلا مثال على وقوع التطور الصغير microevolution in action.

ولك أن تتخيل عزيزي القارئ عدد المرات التي استعمل فيها دوكينز مصطلح التطور الصغير في هذه الصفحات؛ ولا مرة! وهذا هو بالضبط ما نود إظهاره والتأكيد عليه. أمثلة التطور الصغير يتم استعراضها وإظهارها لكن باستعمال لفظ التطور فقط، وليس التطور الصغير، وهذا المثال تعبير نموذجي عن هذا المسلك للتطوريين في إثبات صحة التطور، هم يستخدمون أمثلة التطور الصغير تحت مسمى التطور فيعتقد القارئ أو الطالب أو الدارس وغيرهم أنهم يقصدون التطور الكبير، وليس الأمر إلا خداعًا وتدليسًا. وكل هؤلاء العلماء مثل دوكينز يستعملون مصطلح التطور بدلاً من المصطلح الأدق التطور الصغير لأجل هذا الغرض.

لأجل هذا فإن قارئ هذا الكتاب عليه أن يعتاد فكرة أنه عندما يزعم أحد هؤلاء أن لديه دليلاً أو برهانًا على صحة التطور فلابد حينئذٍ أن نسأله هل سبق اكتشاف مثال لجين جديد وظيفي نشأ عن طريق الطفرات العشوائية، ولن تكون الإجابة بنعم أبدًا.

ما قام به دوكينز في كتابه يحدث في أحكم المجلات العلمية وفي حصص علم الأحياء كل يوم للأسف. كل هؤلاء العلماء بحاجة إلى إثبات صحة الداروينية، ولأجل هذا الهدف قاموا بإلغاء مصطلحات التطور الصغير والتطور الكبير من كتاباتهم أو تظاهروا بأنهما نفس الشيء، ثم أثبتوا صحة التطور والداروينية والإلحاد بهذه الطريقة! ولك أن تتعجب من هذا التلاعب المضلل ومكر الليل والنهار الذي يمارسه القوم لإثبات نظرية علمية ليس عليها دليل علمي واحد!

نظرة أعمق للفرق بين التطور الصغير والتطور الكبير

سوف نتناول في هذا المقال الفرق بين الحمض النووي للخلية الحية الأولى والحمض النووي البشري، لكننا سنتناوله من منظور يتعلق بمدى تعقيده وتركيبه. فلو وجدت الخلية الحية الأولى، كيف نقارن حمضها النووي بالحمض النووي البشري من جهة التعقيد؟ ستكون أشبه بالمقارنة بين قارب خشبي صغير ويخت حديث فاخر!

لكي يقفز التطور من القارب الخشبي إلى اليخت الفاخر يحتاج إلى إنتاج مقادير مهولة من المادة الوراثية المغرقة في التعقيد في كل مرة ينشأ فيها نوع جديد من الكائنات الحية حسب شجرة التطور المفترضة، فيزيد تبعًا لذلك طول الحمض النووي وتزداد الشفرات الوراثية تعقيدًا وتركيبًا بصورة مطردة.

فلو فرضنا على سبيل المثال أن الخلية الحية الأولى تحوي عددًا قليلاً من النيكليوتيدات مقارنة بـ٣,٢ بليون نيوكليوتيدة في الحمض النووي البشري، ولنقل مثلاً ٢٠٠ مليون، كيف يمكن للتطور أن يضيف ٣ بليون نيوكليوتيدة للشريط الوراثي الخاص بالخلية الأولى؟ سيقول التطوريون طبعًا إن هذا حدث تدريجيًا على دفعات متتالية من خلال أنواع متتالية متتابعة على سلم التطور.

حسنٌ، فلنفترض –مجرد افتراض– أن كل نوع وسيط بين الخلية الأولى والإنسان أضاف للحمض النووي للنوع الذي يسبقه ٣٠٠ ألف نيوكليوتيدة، فإذا أردنا أن نحسب عدد الأنواع الوسيطة بين الخلية الأولى والإنسان بشكل تقريبي، فسوف يكون حوالي ١٠ آلاف نوع؛ حيث أن حاصل ضرب ١٠ آلاف في ٣٠٠

ألف يساوي ٣ بليون نيوكليوتيدة جديدة. هؤلاء يمثلون ١٠ آلاف نوع متتابعين وليسوا في نفس الوقت ولا في أي وقت، كل نوع يعتمد على ظهور النوع السابق عليه بنجاح، فإذا فشل أي نوع وسيط في زيادة عدد النيوكليوتيدات المطلوب، فلن تستمر السلسلة. فلابد أن يتم هذا التطور بالترتيب، فهم ليسوا ١٠ آلاف حزمة من الطفرات فقط، بل ١٠ آلاف حزمة معينة من الطفرات المتابعة في ترتيب دقيق ومحسوب ومدروس.

بمعنى آخر، فإن النوع الأول لابد أن ينشأ من الخلية الأولى ثم النوع الثاني من الأول ثم النوع الثالث من الثاني وهكذا.. ولن يستقيم التطور إلا بمراعاة ترتيب الأنواع وترتيب وقوع الطفرات التي تزيد طول الحمض النووي.

كذلك ستختفي العديد من الجينات في هذا المسار، فلا يمكن على سبيل المثال أن نتصور أن جينات النوع الخمسين بعد الخلية الأولى ما زالت موجودة في الحمض النووي البشري. لهذا فسوف تختفي آلاف الجينات في نفس الوقت الذي سوف تنشأ فيه آلاف الجينات الجديدة الأكثر طولاً والأكثر تعقيدًا وتركيبًا.

لكن الحقيقة المرة –بالنسبة للتطوريين– أن نشوء نوع جديد عن طريق الطفرات العشوائية في الحمض النووي أبعد احتمالاً من محاولة كسب قرعة اليانصيب، بل إن كسب اليانصيب أسهل بمراحل من نشوء نوع جديد، ومسابقات اليانصيب هذه لابد من كسبها على التوالي واحدة تلو الأخرى. لهذا من منظور إحصائي محض فإن احتمالية التطور تساوي احتمال كسب نفس العائلة لقرعة اليانصيب ١٠ آلاف مرة على التوالي! بل إن احتمالية نشوء نوع جديد واحد عن طريق سلسلة من الطفرات العشوائية أبعد احتمالاً بمراحل متجاوزة من ربح مسابقة يانصيب على مستوى الشرق الأوسط كله.

مفهوم الاحتمالات المستحيلة المتابعة هذا هو أحد الأمثلة أو أحد الأدلة على سخافة نظرية التطور من الجهة الرياضية أو الحسابية البحتة. فهو يتطلب وقوع حدث، احتمال غير قابل للحدوث، ويريد منه أن يتكرر عشرات الآلاف من المرات مرة تلو الأخرى في ترتيب معين، وبالتالي فإن شجرة التطور حتى بلوغ الإنسان سيكون عليها ما يقرب من ١٠ آلاف نوع مختلف متتاليين الواحد تلو الآخر حسب هذه التوقعات.

طبعًا مع ١٠ آلاف نوع على شجرة التطور، فإن نظرية التطور تعتمد على أنه من السهل ومن اليسير إضافة جزء جديد للحمض النووي الموجود في كل نوع لينشأ نوع جديد، لكن للأسف سيظهر لنا مع قراءة هذا المقال أنه من المستحيل تمامًا نشوء نوع جديد واحد عن طريق التطور على وجه الأرض أو حتى على أي كوكب آخر.

تذكر عزيزي القارئ أنه لكي يمضي هذا التطور في خلق ١٠ آلاف نوع من الخلية الحية الأولى حتى الجنس البشري لابد من إضافة قطعة جديدة من الحمض النووي في حدود ٣٠٠ ألف نيوكليوتيدة متتابعة بشكل معقد ومشفر في كل نوع من العشرة آلاف نوع. تذكر كذلك أن التطور الصغير لا يقوم بإضافة مادة وراثية جديدة، وبالتالي فهو لا يؤدي إلى نشوء أنواع جديدة، وليس له أي دور في شجرة التطور المفترضة. وإذا وضعنا في الاعتبار كل أنواع الكائنات الحية التي تعد بالملايين، سنجد أن لكل منها تركيب فريد غاية في التعقيد للحمض النووي يختلف عن سلفه المفترض، ومن المفترض –حسب نظرية التطور– أن هذا التركيب الفريد للحمض النووي قد جاء عن طريق الطفرات العشوائية غير المقصودة وغير الموجهة في الحمض النووي لأسلافها بواسطة التطور الكبير.

فمفهوم نشوء تركيب جديد للحمض النووي هو موضوع جوهري في الجدل الدائر حول نظرية التطور، لكنه يتم تجاهله باستمرار. وهذا عجيب جدًا حيث نجد أن القضايا المحورية يتم تجاهلها والتدليس فيها باستخدام المصطلحات المائعة والتكتيكات الخادعة الأخرى لصرف أنظار الطلبة والدارسين عنها. لأجل هذا فإن القضية المحورية التي لابد من استحضارها دومًا هي أن الحمض النووي للخلية الحية الأولى يختلف تمامًا عن الحمض النووي البشري، وبالتالي فهناك الكثير جدًا من تراكيب الحمض النووي الوسيطة على امتداد شجرة التطور من الخلية الأولى حتى الإنسان، ولنفترض أن عددهم مثلاً ١٠ آلاف نوع متتابعين، فيكون مثلاً عدد النيوكليوتيدات المطلوب إضافتها لكل نوع في السلسلة هو ٣٠٠ ألف من النيوكليوتيدات الجديدة المتطورة والأكثر تعقيدًا وتركيبًا. ولو حاولنا تخفيض عدد النيوكليوتيدات في كل خطوة سنحتاج إلى زيادة عدد الأنواع الوسيطة التي ستنشأ على هذا المسار، فإذا فرضنا مثلاً أننا بحاجة في كل نوع جديد إلى ١٥٠ ألف نيوكلوتيدة جديدة، فهذا سيستغرق ٢٠ ألف جيل من الأنواع الوسيطة، وهذا يصعب الأمور أكثر وأكثر.

الحقيقة المحورية:

الحقيقة الناصعة في وسط كل هذا هو أنه بينما يعتبر التطور الصغير حقيقة علمية ثابتة بشكل كامل وعليها أطنان من الأدلة، فإن التطور الكبير ما زال مجرد فرضية نظرية لم يثبت وقوعها ولو مرة واحدة في التاريخ الطبيعي أو في المعمل. بمعنى آخر فإنه لا يوجد في العلم إطلاقًا أن مادة وراثية جديدة، أي تركيب جديد للحمض النووي، قد نشأت عن طريق التطور الكبير. فالتطور الكبير هو افتراض أو

نظرية بلا دليل، أما التطور الصغير فهو حقيقة علمية ثابتة بالعديد من الأدلة بما فيها عصافير داروين.

فلو كان التطور حقيقة، فلابد أن ملايين الأنواع من الكائنات الحية قد نشأت عن طريق نشوء حمض نووي جديد للنوع الذي ينشأ من نوع آخر سلف له، فيكون لدينا الحمض النووي بتركيبه المميز للنوع السلفي والحمض النووي الجديد للنوع الجديد. لكن الواقع هو أن هذا لم يثبت حدوثه ولا حتى مرة واحدة في تاريخ العلم. وبالتالي تظل الداروينية مجرد نظرية أو فرضية وليست حقيقة علمية، أما من الناحية الرياضية الإحصائية فهي لا تبلغ حتى مبلغ النظرية، بل هي أضغاث أحلام!

فإذا جاء أحدهم واستغل الأدلة والأمثلة على وقوع التطور الصغير ليبرهن بها على صحة نظرية داروين، فهو إما جاهلٌ جهلاً عميقًا أو متعمدٌ للكذب والخداع؛ فإنه لا يوجد دليل علمي واحد على صحة التطور ولا يوجد مثال واحد له في الطبيعة أو حتى في المعمل. فضلاً عن هذا، فإنه إذا زعم أحدهم أنه يوجد دليل على التطور الكبير فإنه إما جاهلٌ يهرف بما لا يعرف أو كذابٌ أشرٌ! أي شخص يسعى لتوظيف أمثلة التطور الصغير كأدلة على صحة الداروينية قبل اكتشاف الحمض النووي عام ١٩٥٣ فهو معذور، لأنه حتى هذا التاريخ لم يمكن التفرقة بين التطور الصغير والتطور الكبير، ولأن فهم الفرق بين الاثنين يتطلب معرفة الحمض النووي DNA، لكن بعد أعوام قليلة من اكتشاف الحمض النووي صار بالإمكان تعريف التطور الصغير والتطور الكبير وبيان الفرق بينهما. وعليه فإن داروين نفسه كان معذورًا في الخلط بين الاثنين واستخدام عصافير داروين كدليل على صحة التطور لأن الحمض النووي لم يكن قد اكتشف بعد.

مثال على التدليس:

تجارب لينسكي التي تناولناها سابقًا تتعامل فقط مع الكائنات وحيدة الخلية، لكن ماذا عن الطفرات التي تقع في الكائنات المماثلة وتؤدي إلى اكتسابها مميزات في الصراع من أجل البقاء؟

بالفعل قد تؤدي طفرة في الشريط الوراثي إلى نشوء ميزة إضافية للكائن الحي في الصراع من أجل البقاء، لكنها لا تساهم بالضرورة في عملية التطور أو التطور الكبير لأنه لم تحدث إضافة لأي جينات جديدة أو مادة وراثية جديدة، فشرط وقوع التطور الكبير هو استحداث مادة وراثية إضافية أو جينات إضافية للشريط الوراثي.

فعلى سبيل المثال، إذا وجد العلماء أن حيوانًا ما قد اكتسب ميزة معينة تساعده في الصراع من أجل البقاء بين غيره من الحيوانات من نفس نوعه، فقد يقولون إن هذا الحيوان قد تطور على النمط الداروني، فيخمن القارئ أو الطالب أن هذا يعني نشوء جين جديد أو مادة وراثية جديدة عن طريق طفرة عشوائية في الحمض النووي، لكن هذا التخمين ليس في محله إطلاقًا.

فالحقيقة التي لا يتم ذكرها هو أنه لم يثبت في تاريخ العلم بأكمله أن نشأت ميزة إضافية لكائن حي عن طريق طفرة أضافت جينًا جديدًا أو مادة وراثية جديدة للحمض النووي، بل ما يحدث هو تغير في الحمض النووي، مجرد تبدل في النيوكليوتيدات، وليس إضافة، فما يقع حقيقة هو فقد مادة وراثية عن طريق الطفرات.

لكن كيف يؤدي ضياع المادة الوراثية إلى اكتساب ميزة للكائن في صراع البقاء؟ لنستوعب إجابة هذا السؤال دعونا نضرب مثالاً بحيوان وقعت له طفرة أدت

إلى جعله عديم الشعر. في البلاد الحارة ستعتبر هذه ميزة يتفوق بها على غيره، أما في البلاد الباردة فسوف تكون سببًا في هلاكه! فهذه الميزة التي اكتسبها هذا الحيوان ليست بسبب مادة وراثية جديدة أو جين جديد، بل بسبب ضياع مادة وراثية + الظروف البيئية، فهذا ليس مثالاً على التطور عن طريق اكتساب جينات جديدة. أو بمعنى آخر فهذا المثال إنما يشير إلى طفرة مدمرة أدت إلى حدوث ميزة للبقاء بسبب ظروف البيئة المحيطة. لأجل هذا يجب أن يتسلح القارئ بالفهم والمعرفة الكافيين للتمييز بين التطور الصغير والتطور الكبير والأمثلة عليهما.

التشابهات بين الكائنات الحية

يقوم علماء الداروينية بالترويج لمسألة أن التشابهات بين الكائنات الحية تقدم أقوى دليل على وقوع التطور، فالتشابه عند داروين يعود إلى الأسلاف المشتركة كما هو التشابه بين أفراد العائلة الواحدة، تشابه كائنين حيّين يعود لانحدارهما من سلف مشترك، ويعكس مدى التشابه مدى قرابة الكائنات الحية بالنسبة لسلفها المشترك. ولا تقتصر هذه الحجة على وقوع التشابه في الشكل أو البناء التشريحي فقط، بل يمتد إلى التشابهات في البنية الجزيئية والمسارات البيوكيميائية. جرّب عزيزي القارئ أن تطالع كتابات علماء الداروينية في مسألة التشابه بين الكائنات الحية تجد أنهم لا يخرجون عن تفسيرها بوجود الأسلاف المشتركة لا غير[1]، بل هم يبنون على هذا التفسير استنتاجات أخرى مثل شجرة التطور والساعة الجزيئية! وإذا ذكر أيهم أي تفسير آخر لا يذكره من باب المناقشة الموضوعية، إنما من باب التحقير والسخرية![2]

إذا وقعنا على كتابين مكتوبين بنفس اللغة وبنفس الأسلوب في الكتابة، فلدينا احتمالان لتفسير هذا الأمر: التفسير الأول هو أن الكتابين عبارة عن نسختين من كتاب واحد أو أن أحدهما نسخة من الآخر؛ والتفسير الثاني أن الكتابين لهما مؤلف واحد. التشابه بين الكتابين في الشكل الظاهري وتقسيم الفصول والأبواب، ثم تشابههم على مستوى اللغة والتراكيب والعبارات، يؤدي بالعقل السليم إلى تخير من هذين التفسيرين؛ إما المؤلف المشترك أو الأصل المشترك.

---

(١) Francisco Ayala, Darwin's Gift To Science And Religion, Joseph Henry Press, Washington DC, 2007, pp. 117-121

(٢) ريتشارد دوكينز، أعظم استعراض فوق الأرض، ج٢ ص١٣٧-١٣٨

كذلك مظاهر التشابه بين الكائنات الحية سواء على مستوى الشكل الظاهري أو الوظائف الحيوية أو البنية الجزيئية أو المسارات البيوكيميائية .. إلخ .. تقودنا إلى أحد التفسيرين: الخالق المشترك أو الأصل المشترك. لكن من مظاهر الخلل في التفكير أن تتم الإشارة إلى التشابهات في مؤلفات علماء الداروينية بهذه الغزارة على أنها دليل وبرهان على الأصل المشترك دون مناقشة التفسير الآخر إطلاقًا، بل يتم رفضه وإقصاؤه بالكلية لمجرد أنه يشير إلى خالق! وهنا يظهر الأساس الفلسفي لنظرية التطور وهو إنكار الخالق ابتداءً، أي أنها ترتكز على مقدمة عدم وجود خالق أصلاً، وبالتالي فهو احتمال غير مطروح وتفسير غير مقبول ابتداءً لدى القوم.

التشابه يشير إلى الخالق المشترك أو الأصل المشترك، وبما أنه لا يوجد خالق، فتفسير التشابه بين الكائنات الحية هو الأصل المشترك. هذه هي الصياغة الفلسفية أو العقلية لدلالة التشابه على حدوث التطور والأصل المشترك، ولهذا لا تجد واحدًا منهم يستعمل دلالة التشابه على أنها تصلح لتكون برهانًا أو حجةً لصالح الخالق المشترك، ولو على سبيل الاحتمال! ذلك أن نظرية التطور تستبطن عقيدة إنكار الخالق، ولولا هذا الأساس الفلسفي أو المسلمة العقلية لما صح الاحتجاج بوقوع التشابه على وقوع التطور. فالتشابه في ذاته ليس دليلاً على التطور، لكنه يصبح كذلك إن اصطحب معه إنكار وجود الخالق. وبالطبع فالعدو اللدود لنظرية التطور هو إثبات وجود الخالق القدير العليم الحكيم، لأن إثبات أن كل الكائنات الحية بأنظمتها البيولوجية المغرقة في الدقة والتعقيد والإحكام هي من آثار الخالق العليم الحكيم يهدم نظرية التطور من القواعد ويضربها في أساسها الفلسفي نفسه.

لأجل هذا نحن ننكر على المسلمين الذين يؤيدون التطور ويحسبون أنه يمكن الجمع بينه وبين الإيمان بالله دون تعارض، فهذا مع كونه خطأ يجعل الخلاف في غاية السطحية والسذاجة، ولا يراعي الخلفيات والأسس الفلسفية والعقلية للتطور التي تجعله معاندًا للدين ومخالفًا له، ويظهر هذا جليًا أكثر عندما نتناول السؤال الجوهري: هل الكائنات الحية وأنظمتها البيولوجية آيات لله في خلقه أم لا؟ ونستعرض إجابة معسكر نظرية التطور عليه سواء من المؤمنين بوجود الله أو المنكرين، وإجابة معسكر المعارضين لنظرية التطور.[١]

لماذا تأخر داروين؟

يحكي العالم التطوري ستيفن جاي جولد في إحدى مقالاته[٢] عن سبب تأخر داروين في الإعلان عن نظريته في التطور، وأنه ليس من الطبيعي أن يتأخر في تأليف كتابه أصل الأنواع عشرين سنة تقريبًا، وأن تبرير ذلك بأنه كان يسعى للتأكد من صحة نظريته مبرر واهٍ وغير مقبول.. ثم يخبر جولد بالسبب الحقيقي لكل هذا التأخير وهو الخوف، أي الخوف من رد فعل المجتمع تجاه نظريته وتوابعها، فقد كان داروين «مهتمًا بالفلسفة وواعيًا لما تنطوي عليه. كان يعرف أن الميزة الأساسية التي تميز نظريته في التطور عن جميع المذاهب الأخرى هي اتصافها الذي لا يهادن بالمادية الفلسفية»[٣]، حيث أنه كان قد «اعتنق أمرًا أكثر بدعية من فكرة التطور نفسها،

---

(١) انظر مقال (العلم والإيمان) وكذلك (فرانسيس كولينز والفرضية الزائدة)

(٢) ستيفن جاي جولد، تأخر داروين، ضمن كتاب (منذ زمن داروين – تأملات في التاريخ الطبيعي)، ترجمة د. ستار سعيد زويني، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، الطبعة الأولى ٢٠١٢

(٣) المصدر السابق، ص ٣٤

ولكنه يخشى الإفصاح عنه: المادية الفلسفية، وهي الفرضية القائلة بأن المادة جوهر وجود الأشياء، وأن كل الظواهر العقلية والروحية ناتج عرضي. وليس ثمة فكرة أكثر إرعاجًا لأكثر التقاليد رسوخًا في الفكر الغربي من القول بأن العقل مهما كان معقدًا وقويًا هو مجرد نتاج جانبي للدماغ»[1].. «طبق داروين بحزم في دفاتره نظرية التطور المادي على جميع ظواهر الحياة، بما في ذلك ما وصفه بـ"القلعة نفسها"، أي العقل البشري. وإذا لم يكن للعقل وجود حقيقي خارج الدماغ، فهل يمكن أن يكون الرب إلا وهمًا اخترعه ضرب من الوهم؟ كتب داروين في أحد طفاتره عن التحول: "الحب من تأثير إلهي منظم، أيها المادي... لماذا يعتقد بأنه إفراز الدماغ، وأكثر روعة من الجاذبية هي المادة؟ إنها غطرستنا، إعجابنا بذواتنا." بلغ هذا الاعتقاد من الهرطقة حتى أن داروين تجنبه في كتاب أصل الأنواع (١٨٥٩) الذي غامر فيه فقط بتعليق خفي أنه "سيلقي الضوء على أصل الإنسان وتاريخه". ولم يفصح عن معتقده إلا عندما لم يتمكن من إخفائه فترة أطول في كتابيّ (نسب الإنسان، Descent of Man، ١٨٧١) و(التعبير عن العواطف في الإنسان والحيوانات، The Expression of Emotions in Man and Animals، ١٨٧٢) .. سرعان ما أدرك أشد الماديين حماسًا في القرن التاسع عشر، ماركس وانجلز، ما أنجزه داروين وكانا مستعدين لاستغلال مضمونه الراديكالي. ففي عام ١٨٦٩، كتب ماركس إلى انجلز عن كتاب داروين (أصل الأنواع): "على الرغم من أن هذا الكتاب كُتب بأسلوب إنجليزي صعب، فإنه يحتوي على الأسس في التاريخ الطبيعي لنظرتنا.".. وكان ماركس يضع داروين في مكانة عالية الشأن».[2] ويحكي جولد عن مناقشات داروين مع

---

(١) السابق، ص ٣٣

(٢) السابق، ص ٣٥-٣٧

قبطان سفينة البيجل فيتزروي: «كانت فكرة فيتزروي الثابتة التي لا يتزحزح عنها، على الأقل في وقت لاحق من حياته، "الحجة النابعة من التصميم"، والاعتقاد بأن نِعَم الله (وحقًا وجوده بحد ذاته) يمكن الاستدلال عليها من الكمال في البنية العضوية. أما داروين فقط قبل بفكرة التصميم الممتاز ولكنه اقترح تفسيرًا طبيعيًا معاكسًا تمامًا لقناعة فيتزروي. وضع داروين نظرية التطور على أساس تغير الفرص والانتقاء الطبيعي اللذين تفرضهما البيئة الخارجية: وهي صيغة مادية للغاية (وملحدة أساسًا) من التطور».(١)

فجوهر الداروينية وقلبها النابض هو الفلسفة المادية التي ترى المادة حقيقة كل شيء، وبالتالي فلا خالق ولا إله. وبالتالي فإن تفسير التشابه بين الكائنات الحية بأنه يعود إلى الخالق الواحد الذي خلقها جميعًا ينفي تلقائيًا تفسيره بالأصل المشترك، لهذا نستطيع أن نفهم السياق الفكري أو الفلسفي الذي يجعل الخلق في مقابل التطور، وأنه من السذاجة والسطحية أن نتكلم عن تلفيق مفهوم التطور مع المنظومة الإيمانية، وأن هذا الطرح التلفيقي يجهل أو يتجاهل الأبعاد الحقيقية للنزاع بين الإيمان بالخلق والإيمان بالتطور. يقول الملحد الشهير دانيال دينيت: «نظرية داروين نظرية علمية ونظرية عظيمة، لكن ليس هذا هو كل ما هنالك. أتباع الخلق الذي يعارضونها بمرارة محقون بخصوص شيء واحد: فكرة داروين الخطيرة تخترق بشكل أعمق بكثير النسيج الخاص بأشد معتقداتنا رسوخًا، أكثر حتى مما يعترف به المدافعون المتحذلقون، حتى لأنفسهم .. هذا الإله الرحيم الذي صوّر كل واحد منا (كل المخلوقات كبيرها وصغيرها) وزيّن السماء بالنجوم اللامعة لتبهجنا، هذا الإله

---

(١) السابق، ص ٤٧

هو مثل بابا نويل مجرد خرافة من خرافات الطفولة التي لا يمكن أن يؤمن بها إنسانٌ بالغٌ عاقلٌ في كامل قواه العقلية».(١)

فنظرية التطور في جوهرها وفي أساسها الفلسفي مغرقة في المادية وإنكار الخالق، فهي من أبرز مجالات الترويج للفلسفة المادية الإلحادية كما يقول التطوري الملحد ريتشارد دوكينز: «داروين جعل الأمر ممكنا في أن تكون ملحدًا متكاملاً فكريًا»(٢)، ولهذا يقول عن نفسه: «شعوري الشخصي أن فهم التطور هو الذي قادني إلى الإلحاد»(٣). وكذلك ينقل لاري ويتهام عن ويليام بروفين بروفيسور الأحياء بجامعة كورنيل قوله: «التطور هو أعظم محرك للإلحاد»!(٤)

في عام ٢٠٠٧ نشر استبيان أمريكي حول الكليات والجامعات التي تدرس علم الأحياء، فوجدوا أن ٦١% من المدرسين يصفون أنفسهم بأنهم ملحدين أو لاأدريين، وهي نسبة ليست فقط أعلى من نسبتهم في المجتمع الأمريكي، بل حتى أعلى من نسبتهم في سائر التخصصات العلمية.(٥) ويظهر هذا التوجه الإلحادي

---

(1) Daniel C. Dennett, 1995 (May/Jun), Darwin's Dangerous Idea, The Sciences, 35(3):34,40

(2) Richard Dawkins, The Blind Watchmaker: Why the evidence of evolution reveals a universe without design, New York: W.W. Norton & Company, 1987, p. 6

(3) Richard Dawkins, Interview: "The Problem with God." 2005, at: http://www.beliefnet.com/News/Science-Religion/2005/11/The-Problem-With-God-Interview-With-Richard-Dawkins.aspx?p=2

(4) Larry A. Witham, Where Darwin Meets the Bible: Creationists and Evolutionists in America, Oxford: Oxford University Press, 2002, p. 23

(5) Neil Gross and Solon Simmons, "How Religious are America's College and University Professors?" (Feb. 6, 2007), available at: http://religion.ssrc.org/reforum/Gross_Simmons.pdf

بشكل أكثر وضوحًا بين العلماء المتميزين في الداروينية، حيث أن ٩٥٪ من علماء الأحياء في الأكاديمية الأمريكية الوطنية للعلوم NAS يعتبرون أنفسهم ملحدين ولاأدريين، وهي نسبة أعلى من أي تخصص أكاديمي آخر في الأكاديمية الوطنية للعلوم.(1) كذلك في عام ٢٠٠٣ نشرت جامعة كورنيل استبيانًا عن العلماء البارزين في مجال التطور، فكانت نتائجه أن ٨٧٪ منهم ينكرون وجود الله، و٨٨٪ ينكرون الحياة الآخرة، و٩٠٪ منهم يرفضون مبدأ أن التطور موجه وذو هدف وقصد وغاية.(2) هذه الإحصائيات ينبغي ألا تكون مفاجئة لنا، فعقيدة الداروينية تنص على أن مظاهر الجمال والتعقيد والدقة والإحكام والإتقان في الكائنات الحية وأنظمتها الحيوية على جميع مستوياتها ليست آياتٍ على خلق الله وعلمه وحكمته وقدرته، بل هي نتاج عملية عشوائية غير موجهة، وأن الخلق خرافة لا يقبلها العقلاء!

عودة إلى موضوع التشابهات:

نعود إلى مثال الكتابين المتشابهين الذي ذكره العالم التطوري فرانشيسكو آيالا، كيف نعرف أن هذين الكتابين من نتاج مؤلف واحد أم أصل واحد؟ نعرف هذا بالنظر إلى محتويات الكتابين ومواضع الاختلاف بينهما، هل هي تشير إلى مجرد أخطاء في النسخ؟ أم أنها تتضمن محتوى معلوماتيًا لا يصدر إلا عن علم وحكمة وقصد؟

---

(1) See Larry Witham, Where Darwin Meets the Bible: Creationists and Evolutionists in America, pp. 271–273
(2) Gregory W. Graffin and William B. Provine, "Evolution, Religion and Free Will," American Scientist 95 (July–August 2007): pp. 294–297; results of Cornell Evolution Project survey, at:
http://www.polypterus.com/results.pdf

تصور مثلاً أن لدينا كتابين متماثلين إلا في مواضع معينة، لكن مواضع الاختلاف عبارة عن جمل وعبارات ذات معنى تحمل رسائل ذات مغزى، فهل يصح في هذه الحالة أن يكون نشوء هذه الجمل والعبارات بما فيها من مضامين عن طريق أخطاء النسخ وأغلاط الطباعة؟ أم يكون الأولى في هذه الحالة أن كل كتاب قد تم تأليفه بشكل منفصل لكن على يد نفس المؤلف؟ فكيف إذا اتضح لنا أن مواضع الاختلاف بين الكتابين مقصودة بدقة وبراعة حتى تخرج لنا مضمونًا مختلفًا بشكل كبير من كتاب لآخر؟ كيف إذا وجدنا أن كل كتاب يحوي شفرات سرية غير ظاهرة متضمنة داخل سطوره وفقراته؟ هل يظل بعدها أي احتمال لأخطاء النسخ وأغلاط الطباعة قائمًا؟

في عام ٢٠٠٤ كتب ويليام ديمبسكي عن الأنظمة البيولوجية في الكائنات الحية: «إذا كانت هذه الأنظمة مصممة مسبقًا، لسوف نتوقع من المعلومات أن تكون مضغوطة ومتعددة المستويات .. وبالتالي فإن ضغط المعلومات وتعدد مستوياتها يصلح للتنبؤ بالتصميم الذكي».(١) وفي عام ٢٠١٠ اكتشف علماء الأحياء وجود شبكات معقدة لمعالجة المعلومات –وهي إحدى خواص دوائر الكمبيوتر المتكاملة واسعة النطاق– في الأجهزة العصبية لكل من البشر والديدان الأسطوانية.(٢) كذلك بينما ظل العلماء لعقود يظنون أن ترجمة شفرة الشريط الوراثي الـDNA عبارة عن ترجمة للتتابع الخطي للنيوكليوتيدات، ظهر مؤخرًا أن ترجمة تتابع النيوكليوتيدات لا

(1) Dembski, The Design Revolution, pp. 317
(2) Danielle S. Bassett, Daniel L. Greenfield, Andreas Meyer-Lindenberg, Daniel R. Weinberger, Simon W. Moore & Edward T. Bullmore, "Efficient physical embedding of topologically complex information processing networks in brains and computer circuits," PLoS Computational Biology 6:4 (2010)

يتم خطيًا فقط بالشكل المباشر التي كانوا يتصورنه، حيث أن المقطع الواحد من تتابع النيوكليوتيدات يمكن ترجمته من مواضع متعددة في الشريط الوراثي، ويمكن ترجمته من الشريط الأصلي أو حتى من الشريط المقابل له في اللولب المزدوج، وأن بعض الجينات تحتوي على شفرات وأكواد متعددة متداخلة! ففي عام ٢٠٠٧ قامت مجموعة من الباحثين المتخصصين في الجينات من عدة دول بتعريف ٤٠ جينًا في الإنسان بها «مواضع تشفير متداخلة» مما وصفوه بأنه «تقريبًا مستحيل عن طريق الصدفة».(١) وفي نفس العام قامت مجموعة من العلماء الإسرائيليين بدراسة العديد من العناصر المنظمة الكامنة في مواضع من الشريط الوراثي لا تشفر إلى بروتينات، ودراسة كذلك عدد من الجينات التي تحمل بالإضافة إلى الشفرة المعتادة للترجمة إلى بروتينات شفرات أخرى منظمة لعمل الشريط الوراثي، وخرجوا بنتيجة أن وجود نظام التشفير ثلاثي النيوكليوتيدات للأحماض الأمينية في شريط الـDNA يعتبر «تقريبًا مثاليًا في السماح بوجود معلومات إضافية داخل التتابعات المشفرة للبروتينات».(٢) وقد دعت هذه النتيجة عددًا من العلماء الأمريكيين للتعليق عليها بأن تضمن الجين الواحد لعدد من الشفرات في نفس الوقت يماثل «إرسال رسائل سرية متخفية في خطابات غير مثيرة للشك»، وهو نوع من الكتابات السرية المثير وجودها داخل الخلية حيث يتضمن النص الواحد رسالتين إحداهما متخفية داخل الأخرى، وهو

---

(1) Wen-Yu Chung, Samir Wadhawan, Radek Szklarczyk, Sergei Kosakovsky Pond & Anton Nekrutenko, "A first look at ARFome: dual-coding genes in mammalian genomes," PLoS Computational Biology 3:5 (2007)
(2) Shalev Itzkovitz & Uri Alon, "The genetic code is nearly optimal for allowing additional information within protein-coding sequences," Genome Research 17 (2007): 405–41

«يماثل وجود تتابع للنيوكليوتيدات يرمز إلى تتابع معين من الأحماض الأمينية، وفي نفس الوقت يحوي معلومات أخرى لا تترجم إلى أحماض أمينية».[1]

هل يمكن أن يكون نشوء هذا النظام المعلوماتي متعدد المستويات والمغرق في الدقة والإتقان والإحكام والتعقيد نتيجة لأخطاء في النسخ؟ أم أنه يشير بجلاء إلى خالق عليم حكيم خبير؟

لو تأمل العاقل المنصف لتساءل: كيف ظهر نظام التشفير من الـDNA إلى الـRNA إلى البروتين إلى الوجود؟ ولماذا كل ٣ نيوكليوتيدات متتابعة ترمز لحمض أميني معين؟ بل إن الحمض الأميني الواحد قد ينتج عن أكثر من تسلسل من تتابعات النيوكليوتيدات! فكيف نشأ هذا النظام أصلاً؟ وما مبرر ظهوره؟ .. فكيف إذا اكتشفنا أن هذا النظام المعقد يحوي ويضم داخله نظم تشفير أخرى ورسائل ضمنية خفية تتجاوز مجرد ترجمة لتتابعات النيوكليوتيدات إلى أحماض أمينية؟ ألا تدعو كل هذه الأسئلة الإنسان العاقل المنصف إلى نبذ فكرة التطور والأصل المشترك تمامًا؟ ويجعله يدرك بلا تردد أو ريبة أن هذا النظام الدقيق المعقد لا يصدر إلا عن خالق عليم حكيم؟

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

(1) Tobias Bollenbach, Kalin Vetsigian & Roy Kishony, "Evolution and multilevel optimization of the genetic code," Genome Research 17 (2007): 401–404

أزمة مفهوم التشابه عند التطبيق:

يظهر لنا مما سبق أن الاحتجاج بوجود التشابه بين الكائنات الحية كدليل على حدوث التطور هو في الأصل حجة فلسفية أو عقلية، وليس برهانًا علميًا من جنس الأدلة العلمية التجريبية المادية كما يظن من يطالع كتابات علماء الداروينية. والدليل على هذا أن علماء الأحياء قبل داروين لم يكونوا ينظرون إلى التشابهات بين الكائنات الحية على أنها برهان على السلف المشترك ولا أنها برهان على أن كل الكائنات الحية تطورت بشكل ما من أصول مشتركة، بل كانوا يعتبرون هذه التشابهات على أنها دليل على وحدة الخالق وأنها تشير إلى وحدة التصميم الموجود في عقل الصانع أو علم الخالق. ثم جاء داروين في كتابه عن أصل الأنواع بتفسير بديل يتفق والفلسفة المادية وهو الانحدار من سلف مشترك، ورغم القصور الواضح في هذا التفسير من الناحية النظرية البحتة إلا أنه عند التطبيق العملي يظهر لنا المزيد والمزيد من مواطن الضعف والقصور.

فالمفروض حسب نظرية داروين أنه كلما كانت الكائنات الحية أقرب في السلف المشترك كانت أكثر تشابهًا، لكننا في الواقع نرى أمثلة على خلاف ذلك، فمثلاً عين الفأر تشبه كثيرًا عين الإخطبوط ورغم ذلك فهما أبعد ما يكون في التصنيف، وسلفهما المشترك المفترض ليس له عينٌ أصلاً، فمن أين جاء هذا التشابه المذهل في تركيب العين؟!

ويظهر هذا الأمر بوضوح بالغ في التشابهات الكبيرة بين الجرابيات والمشيميات، فالجرابيات هي حيوانات تلد صغارًا غير كاملي النمو فيتم رعايتهم في جراب في بطن الأم حتى يكتمل نموهم، وأشهر مثال لها هو حيوان الكنغر الاسترالي

الشهير، أما المشيمياتُ فهي حيوانات لا تلد حتى يكتمل نمو صغارها حيث يعتمدون على التغذي من المشيمة داخل الرحم. ما يهمنا في هذه المسألة هو وجود تشابه كبير جدًا بين الجرابيات والمشيميات رغم أنهما قد افترقا من قديم في الأصل المشترك، لكننا وجدنا في كل فرع ما يقابل نظيره في الفرع الآخر رغم افتراقهم في التصنيف.

فهذا التشابه في التصميم بين كائنات متباعدة جدًا على شجرة التطور المزعومة يهدم تمامًا دلالة التشابه على الأصل المشترك، حيث يفترض القوم أن تلك الكائنات تطورت بطريقه متوازية على مر ملايين السنين لتنتج نفس التطابق الذي نعاينه دون وجود سلف مشترك وذلك بسبب وجود عوامل بيئية متشابهة! وهذا واضح البطلان.

وها هو العالم التطوري ريتشارد دوكينز عندما يناقش تشابه الذئب التسماني الجرابي مع الذئب الأمريكي المشيمي، ويقر بأنه لا يمكن التميز بينهما لعالم الحيوان غير المتخصص، يعود فيقول إن هناك من الاختلافات الدقيقة بينهما والتي تظهر للعالم المتخصص ما يجعلنا نرفض وقوع التشابه بينهما، فهو في الحقيقة ينكر التشابه الواضح الذي يحتج الداروينيون بما هو دونه لإثبات الأصل المشترك حتى يبرر لنفسه افتراق الحيوانيين في شجرة التطور المزعومة.[1] ونحن من المفترض بنا أن نصدق أن الفأر الجرابي أو القط الجرابي أقرب للذئب التسماني في شجرة التطور، مع الاختلافات الكبيرة بينهم، من الذئب الأمريكي الشمالي الذي يشبهه لدرجة أنه يصعب على غير المتخصص التميز بينهما! وهذا منطق واضح الفساد، ولا ريب أن

(١) ريتشارد دوكينز، أعظم استعراض فوق الأرض، ج٢ ص١٤٣

الأمور الفاسدة في منطق الشرع تكون كذلك فاسدة في منطق العقل والعلم، وكلما كان الشيء أفسد في الشرع، كان أفسد في العلم والعقل.

تأمل مثلا اعتراف دوكينز: «مجموعات الخفافيش المختلفة تستخدم السونار بطرق مختلفة جذريًا، يبدو أنها قد "ابتكرتها" على حدة وبصورة مستقلة، تمامًا مثلما نشأ الرادار على نحو مستقل عند البريطانيين، والألمان، والأمريكان»(١)، فإن إقرار علماء الداروينية بأنه من الجائز ظهور هذه التشابهات لأجل سبب آخر غير الأصل المشترك هو في الحقيقة هدمٌ كاملٌ لدلالة التشابه عند الداروينيين وإبطالٌ تامٌ لاحتجاجهم به؛ لأنها باختصار شديد تقر بعدم مسئولية السلف المشترك عن حدوث بعض التشابهات بين تلك الكائنات، وما يفترضوه على البعض نفترضه على الكل، وهذا أقرب للعقل بل هو مقتضى العقل؛ لأنهم في حقيقة الأمر لا يملكون من دليل على كون التشابهات ترجع إلى السلف المشترك إلا مجرد الافتراض، ثم هذه الافتراضات ليست متسقة أو مطردة، بل هي حسب الهوى، فما كان موافقًا لشجرة التطور يكون بسبب السلف المشترك، وما كان بخلاف شجرة التطور كان لأي سبب آخر، وهذا خلل عقلي وعلمي كبير!

وأسوأ من هذا أنه يُراد بنا أن نصدق أن الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي الأعمى قاموا على مدار ملايين السنين في تطور متوازٍ بإنتاج كائنات حية على هذا القدر الكبير من التشابه مع كونهم في سلسلتين تطوريتين متباعدتين تمامًا، فبنفس هذا المنطق يحق لنا أن ننكر بالكلية دلالة التشابه سواء الظاهري أو الجزيئي على

---

(١) ريتشارد دوكينز، الجديد في الانتخاب الطبيعي، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٤٨-٤٩

الأصل المشترك، أليس كذلك؟! فحقيقة الأمر أن الكائنات الحية لا تظهر فيها التشابهات على نحو متفرع شجري الطراز كما تزعم الداروينية، وإنما تظهر بشكل تباديل وتوافيق في كائنات عديدة تتشابه في وجوه وتختلف في وجوه، وكأن الوحدات البيولوجية الحيوية التي يتكون منها الكائن قد اختيرت من مكتبة عظيمة أو مخزن عظيم تحوي أو يحوي العديد من الخيارات والطرازات والموديلات.

عرض لكتاب

(خرافة الدنا الخردة The Myth of Junk DNA)

هذا الكتاب (خرافة الحمض النووي عديم الفائدة) من تأليف د. جوناثان ويلز Jonathan Wells صاحب عدة مؤلفات في نقد الداروينية أشهرها كتاب (أيقونات التطور) وكتاب (تصميم الحياة) الذي ألفه بالاشتراك مع ويليام ديمبسكي William Dembeski. في هذا الكتاب الذي يُعتبر امتدادًا لكتبه السابقة يواصل ويلز هدم أيقونات التطور والتي يرى أن آخرها هي ما يسمى بالحمض النووي عديم الفائدة Junk DNA، وأن استخدام الداروينين لهذه الحجة لتأييد الداروينية ودحض التصميم الذكي لم يعد مبررًا في ضوء الكشوف العلمية الحديثة في مجال علم الجينات.

الفصل الأول:

يبدأ ويلز الفصل الأول من الكتاب بالكلام عن النزاع الحاصل حول صحة نظرية التطور، وأنه بخلاف المزاعم الشائعة أن التطور صار حقيقة حاسمة فإن الخلافات والنزاعات حول أدلة ثبوتها ما زالت موجودة كما هي. ويؤكد على فكرة أنه لو كان مقصودًا بالتطور مجرد التغير عبر الزمن لما كان هناك أي إشكال في قبوله كحقيقة علمية ثابتة، لكن الإشكال يمكن في مقصودهم بالتطور وهو نشوء نوع من نوع آخر، وهو ما عجزوا عن إثبات وقوعه عن طريق الانتخاب الطبيعي حتى الآن، ويستشهد بعدد من العلماء الذين يصرحون بهذا العجز وعلى رأسهم ثيودوس دوبزانسكي Theodius Dobzansky أحد مؤسسي الداروينية الحديثة.

ثم ينتقل إلى بعض أيقونات التطور الشهيرة ويبين مواطن الضعف فيها باختصار لينطلق منها إلى الأيقونة الأخيرة والملاذ الأخير للداروينيين، وهي الاحتجاج بالحمض النووي عديم الفائدة.

الفصل الثاني:

في هذا الفصل يحكي ويلز اكتشاف تركيب الحمض النووي على أيدي فرانسيس كريك Francis Crick وجيمس واطسون James Watson عام ١٩٥٣، ونظرية كريك بخصوص وظيفة الحمض النووي وهي بناء البروتين، وهي ما أسماها بفرضية التتابع Sequence Hypothesis، وخلاصتها أن الحمض النووي DNA يترجم إلى حمض نووي RNA والذي يترجم بدوره إلى بروتين، وأن وظيفة الحمض النووي DNA هي تخليق البروتينات. وتبعًا لهذه النظرية بدأ العلماء في اكتشاف أن معظم الحمض النووي لا يترجم إلى بروتينات، وهنا ظهر مصطلح الحمض النووي عديم الفائدة Junk DNA إلى الوجود.

ورغم وجود أصوات تنادي بعدم التسرع في إلصاق تهمة انعدام الوظيفة أو الفائدة بالحمض النووي الذي لا يترجم إلى بروتين، وأن الوقت ما زال مبكرًا على إطلاق هذا الحكم المتعجل إلا أنه مع بزوغ مدرسة التصميم الذكي في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين ارتفع صوت علماء الداروينية بالاحتجاج بالحمض النووي عديم الفائدة ضد أطروحة التصميم الذكي.

ويستشهد ويلز بأقوال ثمانية من أبرز من احتجوا بالحمض النووي عديم الفائدة على صحة الداروينية وانعدام التصميم في الشريط الوراثي، وخلاصة أقوالهم أن وجود أجزاء كثيرة من الحمض النووي بلا فائدة أو وظيفة يناقض فكرة أن الحمض النووي مخلوق ومصمم من قبل إله حكيم عليم، وإلا فما الفائدة من وجود كل هذه الخردة عديمة النفع في الشريط الوراثي؟! ويعقب ويلز قائلاً: هل هذا حقيقي فعلاً؟ أن غالبية الحمض النووي بلا فائدة؟

الفصل الثالث:

يحكي ويلز في هذا الفصل عن وجهة نظر فرانسيس كريك مكتشف تركيب شريط الـDNA في أن وظيفة الحمض النووي الوراثي هي تخليق البروتين، وأنه بعد اكتشاف أن هناك العديد من المواضع لا تشفر إلى بروتينات بدأ ظهور مفهوم الحمض النووي عديم الفائدة حيث اكتشف العلماء أن ١.٥% فقط من الحمض النووي البشري يترجم إلى بروتينات. فالأساس الذي بُني عليه هذا المفهوم هو فرضية كريك المسماة بالعقيدة المحورية Central Dogma لعلم البيولوجيا الجزيئية، وهي أن الوظيفة الوحيدة للحمض النووي هي تخليق البروتين لا غير حيث يشفر الـDNA إلى RNA إلى بروتين.

في عام ١٩٩٠ انطلق مشروع الجينوم البشري الذي كان الهدف منه تحديد تتابعات النيوكليوتيدات على طول الجينوم البشري بأكلمه، وأتم عمله في ٢٠٠٣. لكن هذا المشروع لم يكن سوى كتالوج لا أكثر للحمض النووي البشري، ولم يكن يخبرنا أي شيء عن وظيفة وعمل هذه التتابعات. لهذا تمت إقامة مشروع آخر اسمه إنكود ENCODE وهو اختصار Encyclopedia Of DNA Elements، أي: موسوعة عناصر الحمض النووي، لتكون مهمته هي تعيين العناصر الوظيفية الفعالة في الحمض النووي البشري.

لكن قبل اكتمال نتائج هذا المشروع الأخير كانت هناك تقارير من أبحاث من جهات مختلفة عن أن قدرًا كبيرًا من الحمض النووي DNA الذي لا يشفر إلى بروتين يقوم بالتسفير إلى RNA، بل والمدهش أن نسخ الـRNA لا تقتصر على شريط واحد من اللولب المزدوج كما هو معتاد، بل يتم نسخه من الشريط المقابل كذلك!!

وأعجب من هذا أن النسخ لا يقتصر فقط على مواضع محددة، بل قد يبدأ النسخ من نقاط مختلفة في نفس المنطقة ليعطي رسائل RNA مختلفة لنفس المقطع!!

هذا النسخ المتنوع واسع النطاق إلى RNA أظهر أن هناك دورًا بيولوجيًا لهذه النسخ داخل الخلية أبرزها التحكم في تشفير الجينات وتنظيمه.

الفصول الرابع والخامس والسادس والسابع:

في الفصول الثلاثة الأولى يتناول ويلز أبرز البحوث والأوراق العلمية التي تناولت وظائف الحمض النووي الذي يشفر إلى RNA لكنه لا يشفر إلى بروتين، وهي؛ المواضع بين الجينات المعروفة باسم Introns في الفصل الرابع، والجينات الزائفة Pseudogenes في الفصل الخامس، والعناصر المتكررة العتيقة Ancient Repetitive Elements في الفصل السادس. ثم في الفصل السابع يتناول آخر الأبحاث التي تناولت وظائف الحمض النووي الذي لا يشفر إلى RNA.

الفصل الثامن:

في هذا الفصل يرد ويلز على بعض الاعتراضات وأبرزها البحث الذي قام به مجموعة من الباحثين في جامعة تورنتو عام ٢٠١٠ ليدللوا على أن معظم الحمض النووي ما زال بلا وظيفة ولا فائدة. ويشير إلى الانتقادات التي وجهت إلى هذا البحث وأخطرها أنه قام باستبعاد قدر كبير من الحمض النووي DNA يكاد يصل إلى النصف، ثم استبعد ثلثي الـRNA تقريبًا في النصف المتبقي قبل بداية تحليل النتائج، وهذا يعني أن النتائج التي توصلوا إليها في الأساس متحيزة وناقصة وغير معبرة عن حقيقة الجينوم البشري.

الفصل التاسع:

وفيه يقوم ويلز بتلخيص الفصول السابقة من الكتاب حتى لا يتوه القارئ في خضم التفاصيل العلمية الدقيقة، ويظل محتفظًا بوعيه بالصورة الأكبر للنزاع الدائر حول الحمض النووي البشري ووظائفه التي يتم اكتشافها يومًا بعد يوم.

الفصل العاشر:

في هذا الفصل يتكلم ويلز عن خلاصة هذه الأبحاث والأوراق العلمية التي استشهد بها طوال الكتاب، وأنها تخدم مفهوم التصميم الذكي وتعارض مفهوم التطور عن الطريق الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي، وأنها تدل على مدى التعقيد والدقة والإحكام في تصميم الحمض النووي وتشفيره، وأنه لا يمكن أن ينشأ بالتطور الدارويني.

ويتناول كذلك الجانب العقلي في الاستدلال بالحمض النووي عديم الفائدة وأنه في الحقيقة استدلالٌ لاهوتيٌ وليس استدلالاً علميًا، فأنت لا تجد عالمًا فيزيائيًا مثلاً يستدل على صحة قانون الجاذبية باعتراض من نوعية: قانون الجاذبية صحيح لأنه ما الذي يجعل الخالق يُسقط التفاحة من الشجرة؟!!

الباب الثاني

التطور الموجه والدين

العلم والإيمان

بدأ الوحي على نبينا محمد ﷺ بآية ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(1)، فكان أول تعريف بالله عز وجل لعبده ونبيه هو وصفه بانه من خلق الخلق، لأن الخلق دليل على الخالق يعرفه ويقر به كل أحد، قال الشيخ عطية سالم: «صفة الخلق هي أقرب الصفات إلى معنى الربوبية؛ ولأنها أجمع الصفات للتعريف بالله تعالى لخلقه».(2) وقال البيضاوي: «لما كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه وتعالى، نزل أولاً ما يدل على وجوده، وفرط قدرته، وكمال حكمته».(3) فصفة الخلق هي أبرز الصفات التي يعرفها الخلق عن الله عز وجل، وما ذلك إلا لما استقر في العقول والفطر أن الخلق يدل على الخالق. فانت ترى أن أول آية وصلت السماء بالأرض في أول سورة نزلت من القرآن تذكر الله تبارك وتعالى بالدليل على وجوده، وهو خلقه الذي خلقهم، فلم تصفه باسم الله أو بالذي يحيي ويميت أو غير ذلك، بل تصفه بالذي خلق لما استقر في العقول والأذهان أن الخلق يدل على الخالق، وأن كل مخلوق لابد له من خالق.

فهذا المبدأ العقلي الفطري، دلالة الخلق على الخالق، أقره القرآن وأقام عليه الكثير من المعاني الإدراكية والإيمانية من وجوب توحيده تبارك وتعالى وعبادته. وحينما أمر الله عباده بالتقوى أمرهم بها لأنه ربهم الذي خلقهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً

(1) سورة العلق: آية 1

(2) أضواء البيان ج9 ص14

(3) تفسير البيضاوي ج5 ص509

كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.[1] وحينما دعا عباده إلى اتباع أمره وشرعه دعاهم إلى ذلك لأنه هو الذي خلقهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[3]، يقول القرطبي: «﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أنها مخلوقاته فتستدلوا بها عليه».

تأمل مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[4] تجد التأكيد البالغ على أن التفكر في خلق الله يوصل إلى معرفة الله وصدق ما أتى به الأنبياء من الوعيد للكافرين، قال ابن الجوزي: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً، بل خلقته دليلاً عليك وعلى صدق ما أتت به أنبياؤك». فالمؤمنون يتفكرون، وكما يقول الطبري: «فيعتبرون بصنعة الخالق، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا من ليس كمثله شيء، ومن هو مالك كل شيء ورازقه، وخالق كل شيء ومدبره، ومن هو على كل شيء قدير، وبيده الإغناء والإفقار، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة».

---

(١) سورة النساء: آية ١

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٤

(٣) سورة يونس: آية ٣

(٤) سورة آل عمران: آية ١٩٠-١٩١

ولأن الخلق هو أوضح دلالة على الله وأبرز برهان على ربوبيته كان الأنبياء عليهم السلام يعرفون الناس ربهم بدلالة الخلق، فالله جل وعلا هو الذي خلق، فهذا إبراهيم يعرّف قومه بالله: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]. وهذا موسى يجيب عن سؤال فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[2]، ويعلق سيد قطب بقوله: «وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته -في حدود ما يطيق- في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار قدرة الله وإبداعه وتدبيره في كل كائن صغير أو كبير، من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان».[3]

فمن أراد الاستدلال على ربوبيته تعالى فلينظر في الخلق، ومن أراد برهان الوحدانية والألوهية ومن أراد معرفة عظمة الله وقدرته وكمال صفاته فليجل بناظريه متأملاً في خلق الله حواليه، ومن أراد أن يعلم فقره وحاجته إلى الله الغني فليتأمل في صفحة الكون ليعلم حاجة المخلوقات إلى خالقها سبحانه، ومن شك في البعث والإحياء بعد الإماتة ففي الخلق ما يزيل شكه أو يزيد يقينه.[4]

يقول ابن القيم: «ومن طرق إثبات الصفات دلالة الصنعة عليها، فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، وعلى حياته، وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيئته، فإن الفعل

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٥٦

(٢) سورة طه: آية ٤٩-٥٠

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٦، دار الشروق، ج٤ ص٢٣٣٨

(٤) أسماء الله الحسنى الدالة على الخلق والإبداع وإعادة الخلق، أكاديمية أسس للأبحاث والعلوم، سلسلة منشورات أكاديمية أسس للأبحاث والعلوم ٥، دار الخلفاء الراشدين، ج٢ ص١١٣

الاختياري يستلزم ذلك استلزامًا ضروريًا. وما فيه من الإتقان والإحكام ووقوعه على أكمل الوجوه، يدل على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه وإحسانه وجوده.. فلست ترى شيئًا أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها فهي تدل عقلاً وحسًا وفطرةً ونظرًا واعتبارًا».(١)

العلم يؤدي للإيمان:

يظهر من كل ما سبق أن المخلوقات تدل على خالقها وتدعو للإيمان به وبوحدانيته وربوبيته وإلوهيته وكمال صفاته، وأن القرآن يقرر هذه القضية أحسن تقرير ويؤكدها أوضح تأكيد بحيث لا يدع مجالاً للشك أو الارتياب في أن الاستدلال بما في المخلوقات من إبداع ودقة وإحكام وإتقان يدل على الخالق تبارك وتعالى. ومما لا ريب فيه كذلك أن العلم بما في المخلوقات من تصميم وإحكام وإتقان ودقة بالغين يزيد المرء بصيرة وإيمانًا، ومن أبرز أدوات التعرف إلى ما في خلق المخلوقات من إحكام وإبداع العلوم الطبيعية من الفيزياء والكيمياء والأحياء، فهي أدوات تكشف لنا ما في الكون الفسيح وما في الأرض وما في الكائنات الحية خصوصًا الإنسان من آيات باهرة تدل على خالقها وتدعو للإيمان به، كما قال الشاعر:

تأمل سطور الكائنات فإنها :: :: من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها :: :: ألا كل شيء ما خلا الله باطل

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٣ ص٣٥٤

فالاستدلال بالخلق على الخالق طريقة شرعية صحيحة وعقلية صحيحة، فهي شرعية صحيحة لأن القرآن دلّ عليها وبينها وأرشد الناس إليها وهداهم إليها، وهي عقلية صحيحة لأن كون الإنسان كان بعد أن لم يكن ومولودًا ومخلوقًا من نطفة ثم من علقة لم يعلمه الناس من خبر النبي صلى الله عليه وسلم، بل علموه بعقولهم سواء أخبر به النبي أم لم يخبر، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يستدل به ودل عليه واحتج به، فهو دليلٌ شرعيٌ لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته.

والآيات القرآنية في هذا أكثر من أن تعد وتحصى! فالمقصود هنا بيان أن العلم سبيلٌ يؤدي بالمرء للإيمان بالله الخالق كما يقول د. مصطفى محمود: «العلم الحديث يصل إلى الله من خلال الميكروسكوب والمبضع والتلسكوب وتأمل قوانين الذرة والفلك».[١]

إله الفجوات المعرفية:

من جهة أخرى كان اللاهوتيون النصارى قديما كلما أعياهم تفسير ظاهرة ما أو حادثة ما قالوا إن سبب ظهورها أو وقوعها أو حدوثها هو الفعل الإلهي المباشر المجرد من الأسباب المادية، فقوس قزح سببه أن الله خلقه ليكون علامة على كذا، وفيضان النهر سببه أن الله خلقه لأجل كذا، وكسوف الشمس وخسوف القمر ونزول المطر وغيرها من الظواهر كانت تفسر بإرادة الله وفعله المباشر المجرد عن الأسباب المادية. فلما تطورت العلوم وعرف العلماء أن هناك أسبابًا مادية للكسوف والخسوف

(١) د. مصطفى محمود، الله، الطبعة السابعة، دار المعارف، ص٧٦

والمطر والفيضان وقوس قزح .. إلخ، حلت الأسباب المادية محل السبب الإلهي وتزعزعت الثقة بالله، لكن كانت ما تزال هناك ظواهر لم يتمكن العلم من تفسيرها فكانت تفسر بأن الله هو الذي سببها. لكن ظلت العلوم تتقدم وتنمو وتتطور على حساب الله، وكلما اكتشف سبب مادي لظاهرة ما، كانت مكانة الله تتآكل وتضعف عند الناس. فهذا المفهوم الذي يقوم فيه الله بتفسير الفجوات المعرفية التي لم يملئها العلم ولم تبلغها المعرفة العلمية في هذا الزمان هو المقصود بمفهوم إله الفجوات المعرفية والذي يجعل الله عرضة للنقد والتشكيك مع كل تطور وتقدم للعلوم والمعارف العلمية.

ويعتبر هذا الباب –باب الخلط بين التفسيرات الغائية الإلهية والتفسيرات الكونية الطبيعية– من أعتى أبواب الضلال في فهم الرؤية الإيمانية الصحيحة، فعندنا في الإسلام هذا المفهوم المغلوط غير موجود إطلاقًا لأننا نؤمن بأن الله قد أودع في الأشياء صفاتٍ وخصائص وأسبابًا حقيقية، والله من فوقهم بإرادته ومشيئته يُقدّر ويخلق، فإذا وجدنا لظاهرة ما سببًا كونيًا ماديًا فهذا لا ينقض خالقية الله تبارك وتعالى، بل يؤكدها ويرسخها. فلاشك أن الله عز وجل هو الخالق، وأن الأسباب المادية من خلقه، لكن الله عز وجل جعل للكون نظامًا، وجعل من نظام خلقه أن الأسباب بالفعل مؤثرة بمسبباتها، وكل ذلك يرجع إلى تقدير الله وخلقه، وعليه فالأسباب ومسبباتها من خلق الله عز وجل، والإيمان بقدرة الله لا ينافي الأخذ بالأسباب المادية، فالنبي صلى الله عليه وسلم دخل الغار وشاور الطبيب ولبس الدرع وحفر الخندق ودخل مكة في جوار المطعم بن عدي وهو مشرك وقال : «إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس».

الآن عندما ننظر إلى تاريخ العلم في الغرب وننظر كيف كان العلماء الغربيون في الماضي يفسرون الظواهر الطبيعية مثل شروق الشمس وغروبها وحدوث البرق والرعد وغيرها بأسباب غيبية، وكيف أصبح تفسيرها بالأسباب المادية الطبيعية الآن، يمكننا أن نفهم كيف تشربت قلوب المنكرين للغيب هذه الشبهة الخطيرة. والحقيقة أنه لا تعارض بين الأسباب الغيبية والأسباب المادية، فيجوز أن يكون الشيء الواحد له أكثر من سبب غيبي أو مادي، بالضبط كما نرى أن معظم الظواهر والحوادث التي تقع في العالم لها أكثر من سبب مادي بلا تعارض بينها، فكذلك وجود أسباب غيبية كذلك مع الأسباب المادية لا يفيد التعارض والتناقض إطلاقًا.

فأين يقع الإشكال إذن؟ يقع الإشكال عندما نتصور أن معرفة الأسباب المادية الطبيعية الكونية ينفي بالضرورة الأسباب الغيبية، كقول عالم الكونيات شين كارول Sean Carroll: «على مدار الخمسمائة عام الماضية، كان تقدم العلم يعمل على انتزاع أدوار الله في العالم. لم يعد مطلوبًا ليظل كل شيء في حالة حركة، أو ليخلق تعقيد الكائنات الحية، أو ليفسر سبب وجود الكون.. من ألفي عام، كان من تمام العقل أن نُدخل الله كتفسير للظواهر الطبيعية، الآن نحن نستطيع أن نفعل أفضل من ذلك».[١] أو كالمقولة الشهيرة لستيفن هوكينج في كتابه الأخير (التصميم العظيم) والتي طارت بها الصحف والمجلات ومواقع الانترنت: «الكون ليس بحاجة إلى إله ليخلقه».[٢]

---

(1) Sean Carroll, Does the Universe Need God? available at (last accessed Oct. 2015):
http://preposterousuniverse.com/writings/dtung/

(2) Stephen Hawking: God was not needed to create the Universe

المقصود بهذا أنه في مقابل الفهم الإيماني للظواهر الكونية الذي يراها آيات ودلائل وبراهين على وجود الله وقدرته وحكمته وقيوميته وقاهريته، هناك الفهم المادي الإلحادي الذي يراها لا تدل على الله، وليست برهانًا على الإيمان والتفكر فيها لا يؤدي إلى اليقين الإيماني، بل ربما العكس! ونحن بحاجة إلى التعرف إلى الرؤية الإلحادية للعلم حتى نكون على بصيرة عند تناول مسائل تتعلق بالنظريات العلمية المطروحة وعلاقتها بالدين.

عندما نفهم الفلسفة الإلحادية في تفسير نشأة الكون وظواهره وتفسير نشأة الحياة وتنوعها، وأنها تدعو إلى إنكار وجود الله وسيادة التفسيرات المادية المحضة، وأن كل هذه الظواهر إنما تمت بدون فاعل بل بالقوانين المادية وحدها، وفي المقابل نفهم الفلسفة الإيمانية في تفسير وجود الكون والحياة وجميع الظواهر الطبيعية، وأنها لا تقوم إلا بفعل فاعل خالق عليم قدير حكيم خبير، وأن الأسباب المادية ليست إلا وسائط لا تعمل إلا بفعل الفاعل، عندما نفهم هاتين الفلسفتين نستطيع أن نميز بينهما، وأن نحذر من بعض الدعاوى التي يطلقها البعض ممن لم ينفذ إلى عمق النزاع بين الفلسفتين، ولم يكن له من العلم والبصيرة ما يمنعه من الوقوع في الخطأ والزلل. عندما يكون المسلم على بصيرة بالرؤية الإيمانية الصحيحة لا يمكنه أن ينخدع بقول بعض العلماء الطبيعيين الذين يحاولون التلفيق بين الدين والعلم أن العلم ليس له علاقة بالدين، وأن العلم لا يدل على الله ولا يؤدي للإيمان، كقول فرانسيس كولينز: «الله خارج الطبيعة، وبالتالي فالعلم لا يستطيع أن يثبت أو ينفي وجوده»[1]، فالله عند

---

http://www.telegraph.co.uk/news/science/science-news/7976594/Stephen-Hawking-God-was-not-needed-to-create-the-Universe.html

(1) Francis S. Collins, The Language of God – A Scientist Presents Evidence for Belief, Free Press, New York London Toronto Sydney, July 7 2006, p. 165

كولينز مجرد فرضية زائدة لا يحتاجها العلم لِتفسير وجود الكون أو وجود المخلوقات، ونحن باستطاعتنا تفسير جميع ظواهر العالم تفسيرًا إلحاديًا دون الحاجة إلى افتراض وجود إله خالق مدبر قيوم. لدرجة أني قرأت على بعض صفحات التواصل الاجتماعي كلامًا لبعض الباحثين العلميين في بلاد المسلمين يدعو فيه إلى تبني فكرة أن العلم محايد لا يدعو إلى الإيمان ولا الإلحاد، وهذه نغمة تتصاعد يومًا بعد يوم بين شباب المسلمين، وبدأ أفرادٌ من هنا وهناك ينتصرون لها ويدافعون عنها. وهل هناك أسوأ من أن يقال لنا إن العلم لا يؤدي إلى الإيمان وأن آيات الله في الكون وجميع المخلوقات في الحقيقة لا تدل عليه وأنه لا يمكن معرفة وجود الله عن طريق تأملها وتدبرها والتفكر فيها؟

فهذا المنظور الإلحادي هو الذي يريد بعض العلماء الطبيعيين أن يروجوه بين المسلمين زاعمين أنه يحفظ للدين قدسيته وسلامته وصيانته من التشكيك والاعتراض، وهو في جوهره مناقض للرؤية الإيمانية ومناصر للرؤية الإلحادية. وفي ضوء هذا المنظور يمكننا أن نفهم سر الهجوم العنيف الذي شنه ملاحدة الغرب على البروفيسور أنتوني فلو Anthony Flew الذي ترك الإلحاد واعتنق المذهب الربوبي، حتى أنه يقول: «لقد اتهمني رفاقي من غير المؤمنين بالغباء والخيانة وخرف الشيخوخة وكل ما يمكنك تخليه، ولم يقرأ أيهم كلمة واحدة مما كتبته».(١)

فالحقيقة أن الفارق بين الإلحاد والربوبية ليس كبيرًا كما يتصور البعض، بل المذهبان سواءٌ حربٌ على الدين وعلى تعبيد الخلق لرب العالمين. إنما خطيئة فلو الكبرى هي أنه استدل بالعلم على وجود الإله، وأشار إلى ما في قوانين الكون وما

---

(1) Wavell, Stuard (19 December 2004), "In the beginning there was something", The Sunday Times (article).

في تعقيد الشفرة الوراثية من دلالات على الخالق، وهو انحيازٌ كاملٌ للفلسفة الإيمانية وانقلابٌ عنيفٌ على الفلسفة الإلحادية التي تنكر هذا المسلك. فكان جزاؤه لأجل إتباعه لهذا المسلك عند الملحدين هو تدمير مصداقيته بالكلية واتهامه بالغباء والخيانة وخرف الشيخوخة! فليت عزيزي القارئ الذي يقرأ هذه الكلمات يتبصر ويستوعب مناط الخلاف ومحور النزاع ومدار الصراع الدائر بين الإيمان والإلحاد، وأن الأمر لا يتعلق فقط بالإيمان بالخالق فقط، بل بطريقة التفكير والعقلية الإيمانية التي تتأمل ظواهر هذا العالم وتستمد منها إيمانها، ويؤدي تدبر هذه الظواهر وتأملها والتفكر فيها إلى زيادة الإيمان في القلب وتقويته. فعن طريق قطع العلاقة بين العلم والإيمان لا ينقطع فقط سبيل الاستدلال بالخلق على الخالق أو الاستدلال بالعلم على الإيمان، بل كذلك سبيل النظر والتفكر والتدبر والتأمل في الكون والحياة والمكتشفات العلمية التي تتجدد يومًا بعد يوم، فبدلاً من أن تصبح بابًا لترسيخ الإيمان في النفوس تصبح سبيلاً إلى الجحود والإنكار.

جوهر الإشكال

بالنسبة للمسلم الذي ليس لديه خلفية عن الخلاف الدائر حول نظرية التطور، كيف تتوقع أن يكون تصوره عن التطور الإلهي أو التطور الموجه؟ في الغالب سيكون تصوره أن الله عز وجل قام بضبط إعدادات لحظة الخلق الأولى بدقة أو أنه يقوم بتوجيه الطبيعة لتنشأ جميع المخلوقات من النجوم والمجرات حتى الإنسان من خلال عملية بطيئة متدرجة، وأن جميع الكائنات الحية تشترك في أصل واحد لكن التطور يمضي بها حسب مشيئة الله الهادية والموجِهة. الله يخلق كل شيء من خلال ضبط إعدادات لحظة الخلق الأولى أو من خلال السنن الكونية والأسباب المادية أو من خلال التدخل من حين لآخر، المهم أن تكون النتيجة النهائية حسب تدبيره جل وعلا، وليس أنه يخلق كل شيء خلقًا مباشرًا مستقلاً من العدم. المهم ألا تكون عملية التطور عشوائيةً أو مبنيةً على الصدفة والفوضى بمعنى أن يكون هناك تخطيط وتدبير وغاية. فإن من يتبنى نموذج التطور الغائي الهادف غير العشوائي من المؤكد أنه شخص مسلم يؤمن أن الله تبارك وتعالى لا يخلق شيئًا إلا لحكمة ولأجل غاية، من خلال التخطيط والتدبير والتصميم، وأنه جل وعلا لا يخلق شيئًا عبثًا أو اعتباطًا.

مذهب متناقض:

لكن الحقيقة أن الأمور لا تمضي أبدًا بهذا الشكل، فها هو د. عمرو شريف أبرز المتبنين لمذهب التطور الإلهي يحكي عن الأعضاء الأثرية كأحد الأدلة على حدوث التطور بأنها «أعضاء موجودة بشكل ضامر وليس لها استخدام في بعض

الكائنات الحية»[1]، ويقول أيضًا: «لماذا خلق الإله العضلات الضامرة في صوان أذن الإنسان والتي تشبه العضلات العاملة في الشمبانزي، هل هذا التشابه من باب الرغبة في خداع الإنسان كما يقول بعضهم أم لاختبار قوة إيماننا كما يقول آخرون؟! [التأكيد من عند المؤلف]».[2] ونفس الكلام يقوله د. صلاح عثمان: «يكشف علم التشريح المقارن عن وجود أعضاء أثرية Vestigial organs –لا فائدة لها– في عدد من الكائنات الحية الموجودة حاليًا».[3] ويستنتج د. كريم حسنين «إن هذه الآثار أمثلة للقصور عن الكمال والتي تدفع وتبرهن على عدم حدوث الخلق المباشر خلال التصميم أو التخطيط، بينما يمكن في المقابل إدراك ماهيتها كليًا كنتيجة للنشوء».[4]

ماذا نفهم من كلام هؤلاء الأفاضل أنصار مذهب التطور الإلهي؟ هل يقصدون أن التطور عملية عشوائية عبثية تنتج أعضاءً لا فائدة ولا وظيفة لها بخلاف الخلق الإلهي الذي يكون غائيًا هادفًا؟ أم يقصدون أن الله لم يخلق هذه الأعضاء وأنها من خلق الطبيعة العشوائية العمياء؟ هل هناك إلهين: إله حكيم يخلق بتخطيط وتدبير وتصميم وإتقان، وإله أحمق أخرق يخلق عشوائيًا وعبثيًا؟!! لكن القوم يرفضون العشوائية تمامًا وكل واحدٍ منهم يستدل بالتصميم البديع في المخلوقات على خالقية

---

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص١٧٢

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٢

(٣) د. صلاح عثمان، الداروينية والإنسان – نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف – الأسكندرية، ٢٠٠١، ص٤٩

(٤) د. كريم حسنين، الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية ٢٠٠٢، ص١٣١

الله تبارك وتعالى، ويصرح د. عمرو شريف -على سبيل المثال- بوضوح أنه لا يقبل التطور العشوائي إطلاقًا[١]، وينتقد نموذج صانع الساعات الأعمى لدوكينز.[٢] فبماذا نخرج من هذا التخبط العجيب الغريب؟

المشكلة أن هؤلاء الأفاضل بحاجة إلى أن يستوعبوا حقيقة التناقض بين الخلق الإلهي والتطور الداروني، وأنه لا يمكن للمرء أن يعتنق المذهبين معًا أو أن يلفق بينهما. وأنا لا أهدف إطلاقًا من هذا الطرح الانتقاص أو الحط من مكانة أي من هؤلاء العلماء الأفاضل، بل بيان مدى الاضطراب والغموض والتناقض الكامن في مذهب التطور الإلهي أو الموجه، وأن إتباعه يؤدي بالمرء إلى أن يصير ضحيةً للتناقضات والمغالطات العقلية.

نشوء وتطور مذهب التطور الموجه:

إذن ما المقصود بالتطور الإلهي أو الموجه عند أنصاره من المسلمين؟ في الحقيقة فإن هذا المصطلح يشير إلى العديد من التعريفات التي تشمل نطاقًا واسعًا جدًا من الآراء والأفكار لكنه يهدف في النهاية إلى التوفيق أو التلفيق بين الإسلام ونظرية التطور الداروني، ثم تختلف آراء القوم حسب فهم كل منهم للإسلام وتعاليمه ونصوص الوحي، وكذلك حسب تعريفهم للتطور. في الغرب تتفاوت وجهات النظر بين أنصار هذا المذهب حسب رؤيتهم لدور الله في الخلق؛ هل يتدخل في نشوء الحياة وأشكالها بالتوجيه والتدبير أم فقط يضبط إعدادات لحظة الخلق الأولى ولا

---

(١) د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص١٨٠

(٢) انظر د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص١٧٧-١٨٦. وكذلك د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، ص٣٣٩-٣٤٩

يكترث لما يلي ذلك. وكذلك حسب فهمهم للتطور؛ هل ينبغي أن يكون عملية عشوائية غير موجهة أم يمكن أن يكون عملية موجهة غائية تهدف لنتائج دقيقة ومحددة مسبقًا. لهذا نحن بحاجة إلى فهم أصول هذا المذهب حتى يمكننا تصوره بطريقة أفضل.

عندما ظهرت نظرية داروين في القرن التاسع عشر، كان مفهوم التطور الإلهي الذي تبناه عدد من العلماء في ذلك الوقت يعارض صراحة نظرية داروين خصوصًا في الشق المتعلق بالانتخاب الطبيعي والتغييرات العشوائية. كانوا يرون أن جميع الكائنات الحية نشأت عبر التاريخ عن طريق ارتقائها من أصل مشترك، وتبنوا التصور الخطي المستقيم لنشوء أنواع الكائنات الحية من كائن إلى آخر، ورفضوا بشدة فكرة أن التطور كان عملية عمياء غير موجهة ناتجة عن الانتخاب الطبيعي الذي يعمل على التغييرات العشوائية. يحكي المؤرخ بيتر باولر أن الكثير من العلماء في عصر داروين كانوا يرون «أن التطور كان بالضرورة عملية غائية .. وأن العقل البشري والقيم الأخلاقية كانت تعتبر نتيجة عملية مغروسة في نسيج الطبيعة وأن هذا يمكن فهمه على أنه من تدبير الله».(١)

كان موقف داروين عدائيًا من فكرة أن يكون التطور غائيًا أو موجهًا تجاه غاية معينة، وأصر على أن الانتخاب الطبيعي ليس إلا فعل الطبيعة المحض، يقول: «مصطلح الانتخاب الطبيعي يحمل معنى سيئًا حيث يبدو أنه يوحي بوجود اختيار واع، لكن هذا سيتم رفضه بعد القليل من التعود. لا أحد يعارض الكيميائيين في كلامهم عن الألفة الانتقائية elective affinity ومن المؤكد أن الحمض ليس له

(1) Peter Bowler, Darwinism (New York: Twayne Publishers,1993), p. 6.

اختيار في التفاعل مع القلوي أكثر من اختيار شروط الحياة في تحديد النوع الجديد الذي سيُنتخب أو يبقى».[1] وكان يرى أن حجة التصميم القديمة التي قدمها بالي وكانت تعجبه في السابق ثبت فشلها الآن في ضوء اكتشاف قانون الانتخاب الطبيعي، فالمفصلة الجميلة للصدفة ذات المصراعين بخلاف مفصلة الباب، لا تشي بوجود خالق حكيم، «ويبدو أنه لا وجود لأي تصميم في تنوع الكائنات الحية وفي عمل الانتخاب الطبيعي بأكثر مما هو موجود في مسار هبوب الرياح».[2]

لم يخف داروين استياءه الصريح من فكرة التطور الغائي الموجه، وكانت صدمته الكبرى في ألفريد والاس شريكه في اكتشاف قانون الانتخاب الطبيعي والذي كان –باستثناء داروين نفسه– أفضل من يفهم الانتخاب الطبيعي ويطبقه بقوة[3]، لكنه في عام ١٨٦٩ خالف داروين على نحو غير متوقع مؤكدًا أن الانتخاب الطبيعي لا يمكن أن يفسر المخ البشري[4]، وكتب مقالاً عن أنه لا يمكن لآلية الانتخاب الطبيعي أن تنتج المخ البشري، ناهيك عن «الطبيعة الأخلاقية والثقافية الأرقى للإنسان». أشار والاس إلى أن عالم الأحياء محكوم بالقوانين لكنه يميل للاعتقاد بأن «ذكاءً

---

(1) Charles Darwin, The Variation of Animals and Plants under Domestication, second edition (London: John Murray, 1875), vol. I, p. 6
(2) Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin and Selected Letters, edited by F. Darwin (New York: Dover Publications, 1958 reprint of 1892 ed.), p. 63.

(٣) ديفيد كوامن، داروين مترددًا – نظرة مقربة لتشارلز داروين وكيف وضع نظريته عن التطور، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠١٣، ص٢٤٢-٢٤٣

(٤) المصدر السابق، ص٢٤٣

متحكمًا راقب عمل هذهِ القوانين، ومن ثم وجه التغايرات، ولذا هو الذي يحدد تراكمها»، بحيث تثمر أعلى قدرات الإنسان وأكثرها روعة. يعقب الصحفي ديفيد كوامن على هذا الموقف قائلاً: «كان داروين يعرف أن المقال آتٍ، وقد شجع والاس قبلها بشهر في عصبية قائلاً: "إنني أتطلع بفضول شديد لقراءة المجلة. أرجو ألا تكون قد وأدت طفلك وطفلي". في النهاية كان المقال سيئًا بمثل ما كان يخشاه: قتلٌ للفكرة في مهدها. فالانتخاب الطبيعي كما تصوره داروين في الأصل (ووالاس أيضًا؟) سيصير بلا معنى إذا كان هناك "ذكاء متحكم" يحكم عشوائية التغايرات، موجهًا إياها نحو أهداف مقدرة مسبقًا. كتب داروين على هامش نسخته من المجلة: "كلا!!!"».(١)

لكن هذا المذهب في غائية التطور بدأ في التآكل في أوائل القرن العشرين مع بزوغ الداروينية الحديثة Neo-Darwinism والبحوث الجديدة في علم الوراثة والجينات. صارت النظرية محل إجماع المجتمع العلمي الغربي وأصبحت مهمة تيار التطور الإلهي عسيرة للغاية؛ لم يعد الأمر مجرد التوفيق بين الدين والأصل المشترك لجميع الأحياء، بل صار كيفية الجمع بين الاعتقاد الديني ومفهوم التطور عبر الأخطاء العشوائية في الجينات، كيف يمكن لله أن يوجه عملية عشوائية غير موجهة؟ تحول مذهب التطور الإلهي الموجه إلى السعي للتوفيق بين الدين والداروينية الحديثة بكل ما فيها من عشوائية وفوضى، فصار كعقيدة قدماء المجوس في إلهين: إله الخير الذي يظهر في خلقه التخطيط والتدبير والإتقان والتصميم؛ وإله الشر الذي يظهر في خلقه العشوائية والفوضى وعدم الغاية وعدم الفائدة وعدم الوظيفة. طبعًا ليس هذا هو

(١) المصدر السابق، ص٢٤٤-٢٤٥

الاعتقاد الصريح لدى المسلمين من أنصار التطور الموجه، إنما هو لازم مذهبهم في التوفيق أو التلفيق بين الإسلام والداروينية كما سوف يتضح في المقالات التالية.

كلمة الرجل الأبيض:

تحت الضغط الأيديولوجي للداروينية الحديثة ومكانتها العلمية في الدوائر الأكاديمية الغربية يجد الباحث أو المفكر نفسه يلجأ إلى تغيير الفكر الديني نفسه وابتداع تأويلات وتفسيرات جديدة لنصوص الوحي تناسب النظرية العلمية. وتكون مبرراته في هذا التوجه أن الداروينية لا تهدد مسائل الدين المحكمة القطعية النهائية وأن المجال متاح للتخلي عن هذه المسائل، وأنه من الأولى أن نتبنى النظرية العلمية بدلاً من محاربتها حتى لا يُتهم الإسلام بأنه يعادي العلم فتتشوه صورته، فما دام الرجل الأبيض قد قال كلمته، وقرر أن هذه المسألة حقٌ مقطوعٌ محسومٌ، وأن التطور حقيقةٌ مثلما أن الجاذبية حقيقةٌ، لم يعد لأحد من البشر أن يعترض أصلاً، وإلا اتهمَنا الرجل الأبيض بالتخلف والانحطاط، وإذن لفسد علينا ديننا ودنيانا، وصرنا نحن والقردة والخنازير سواء[1]، لهذا فمن الأفضل إجراء المصالحة بين الإسلام والداروينية درءًا لهذه المفاسد، «وينبغي ألا يتحدى المعارضون العلماءَ الطبيعيين أن يفسروا وأن يؤولوا جميع آيات الخلق في ضوء حقائق العلم الحالية».[2] فإذا ثبت في المستقبل أن نظرية التطور باطلة وغير صحيحة، فلا ضرر ولا ضرار، لأن التأويلات الداروينية

---

(١) أبو الفداء ابن مسعود، رسالة في تحذير المسلمين من فرقة "التطوريين" (دراونة أهل القبلة)، منتدى التوحيد

http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?49628

(٢) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٣٣٤

لنصوص الوحي غير نصوص الوحي، فالنص المقدس باقٍ على اعتباره والإيمان به، والتفسير العلمي الداروينيِ كغيره من التفسيرات قد يصيب وقد يخطئ.[1]

وهذا مسلكٌ خطيرٌ يجعل النصوص الشرعية تعني الشيء وعكسه في نفس الوقت، وهذا باطلٌ قطعًا، فضلاً عن استباحته كلام الوحي بالتأويل غير المنضبط مع كل اكتشاف جديد أو نظرية جديدة. ويتجاهل أنصار هذا المسلك أن الله تعهد بحفظ الذكر وأن هذا الحفظ ليس حفظًا للكلمات ورسمها فقط، بل لمعانيها أيضًا، وإلا إذا كان الحفظ مقصودًا به النص مجردًا عن المعنى فقد أضاع الرسالة ولم يحفظها، إذا لا مغزى ولا مفهوم من النص إلا بأن يكون معناه معروفًا ومحفوظًا من التحريف والتأويل الباطل. فليس مدار الأمر على اللفظ فقط، بل المعنى كذلك من عند الله وليس من عند البشر، فلا يصح أن يخترع البشر معنى ويفرضوه على اللفظ القرآني، فيكون اللفظ من الله والمعنى من عند البشر! لأن القرآن هو كلام الله لفظًا ومعنى، ولا تجوز التفرقة بين اللفظ والمعنى.

ولأجل هذا يدعو دومًا أنصار مذهب التطور الإلهي إلى تجديد الفكر الديني وإعادة قراءة النصوص الشرعية بشكل جديد في ضوء معطيات نظرية التطور والتخلص مما يسمونه التفسيرات التراثية القديمة، وهم يصطدمون في هذا المسلك بسائر المسلمين المتمسكين بالنصوص ومعانيها الثابتة المحكمة ويتهمونهم بالجمود والتخلف والجهل. فالسعي للتوفيق بين الإسلام والداروينية لا يتم إلا بالتخلص من

---

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٣٣٢-٣٣٣

النصوص الواردة في خلق آدم وحواء إما بإنكارها –أي: إنكار الأحاديث الواردة فيها– أو بجعلها من المتشابه الذي يحتمل معانٍ متعددة.

لماذا يرفض التطوريون التطور الإلهي؟

لكن للأسف فإن هذه الجهود لتأييد التطور ونقد رافضيه في العالم الإسلامي لا تلقى رضا المجتمع العلمي الغربي رغم ذلك؛ لأن التطور عندهم ليس موجهًا من قِبَل الله عز وجل، يقول العالم التطوري الشهير إرنست ماير: «النواة الحقيقية للداروينية هي نظرية الانتخاب الطبيعي. هذه النظرية غاية في الأهمية للدارويني لأنها تسمح بتفسير التكيف والتصميم عند اللاهوتيين تفسيرًا طبيعيًا بدلاً من التدخل الإلهي».[١]

لأجل هذا ينظر هؤلاء العلماء إلى أنصار مذهب التطور الإلهي على أنهم على باطل، أو كما يقول العالم التطوري جيري كوين: «فاشلون في تحقيق الاتحاد المأمول بين الإيمان والتطور»، وذلك –من وجهة نظره– لأن «الانسجام الحقيقي بين العلم والدين يتطلب إما التخلي عن معظم ما يتدين به الناس واستبدال ربوبية مخففة به، أو تلويث العلم بمزاعم روحية غير عقلانية وغير ضرورية وغير قابلة للاختبار». ففي نظره فإن «محاولات التوفيق بين الله والتطور تمضي خارج مسار المؤسسة العلمية، وهي لا تتوقف لأن التوفيق لا يعمل جيدًا». ثم هو يعترف بأن هناك من المؤمنين بالتطور

(1) Michael Ruse, Darwinism Defended: A Guide to the Evolution Controversy, with a foreword by Ernst Mayr (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1982), xi–xii.

أناس من المتدينين ومن رواد الكنيسة، لكن هذا لا يعني أن التطور يتفق مع الدين، وإلا جاز أن نقول إن الزواج يتفق مع الزنا لأن بعض المتزوجين يرتكبون الزنا![1]

ورغم الاختلاف الجوهري مع كوين وأمثاله فالمرء لا يخالفه في أن النزاع بين الدين —والإسلام خصوصًا— والداروينية ليس أمرًا هامشيًا يمكن تجاوزه ببعض التجديد في الدين أو بإدخال بعض التأويلات الجديدة لنصوص الوحي. فجوهر النزاع هنا هو الإجابة عن السؤال الآتي: هل بدء الخلق —سواء خلق الكون أو خلق الكائنات الحية— من الأمور الغيبية أم مما يقع في نطاق العلم المادي؟ أو بمعنى آخر: هل يمكن قياس أحداث الخلق على ما يجري الآن في العالم من أحداث بحيث أن نفس القوانين العاملة الآن هي نفسها القوانين العاملة أثناء الخلق؟ ولنضع السؤال في صيغة أكثر تحديًا وإثارةً: هل يستطيع العلم أن يثبت أن نفس القوانين الطبيعية في الكون كانت تعمل كما هي في لحظة بدء خلق الكون؟ هل يستطيع علم الأحياء أن يثبت أن قوانين العمليات الحيوية كانت تعمل كما هي في لحظة خلق الإنسان؟

لماذا نرفض التطور الإلهي؟

من هنا يمكننا أن نفهم لماذا نرفض نظرية داروين جملةً وتفصيلاً، فالمسألة ليست متعلقةً ببعض التفاصيل العلمية المجردة أو عدم إمكانية تأويل بعض النصوص، بل هي أعمق من هذا بمراحل. والمسلم الفاهم الحكيم عليه أن يعرف متى يعقد

(1) Jerry Coyne, "Seeing and Believing," The New Republic (February 4, 2009), last accessed (June 10, 2015):
http://www.tnr.com/article/books/seeing-and-believing?id=1e3851a3-bdf7-438aac2aa5e381a70472

السلام ويتصالح مع النظريات العلمية المطروحة ومتى يقف ليقول كلمة الحق لا يخاف فيها لومة لائم!

الأساس الفلسفي الأول لنظرية التطور هو ما يُعرف بمبدأ الانتظام أو الاتساق uniformity والمقصود به أن كل أحداث العالم تتبع نفس القوانين والقواعد منذ الأزل بلا تغير أو اختلاف، وبناءً على هذا المبدأ لابد من استبعاد طروء أي حدث ميتافيزيقي خارج عن القوانين والنواميس الطبيعية لأنه سيكون انتهاكًا لهذا المبدأ، فالقول بنشوء الخلية الأولى أو نشوء نوع جديد من المخلوقات أو نشوء معلومات وراثية جديدة لم تكن موجودة من قبل عن طريق تدخل ميتافيزيقي أمرٌ غير مقبول عند القوم ابتداءً من وجهة فلسفية معرفية، لأنه –في نظر القوم– «يتطلب إعادة تعريف العلم بما يُدخل فيه العامل الميتافيزيقي».[١] وهذا بخلاف عقيدتنا بأن أحداث الخلق لا تخضع للقوانين والنواميس الطبيعية، بل متجاوزة لها ومتعالية عليها، «تمامًا كما أنه لا يصح أن تقاس الأحداث التي صنعت بها السيارة –مثلاً– على شيء مما تحدثه تلك السيارة نفسها من أحداث، أو ما يجري عليها بعد صناعتها من أحداث أو ما يقع بها من تغيرات في أحوالها وما تتركب منه، على أساس من افتراض أن تلك الأحداث والتغيرات الجارية عليها لابد وأنها قد استمرت هكذا كما نراها الآن إلى الماضي البعيد، بما يوصلنا إلى معرفة كيف "نشأت" تلك السيارة نفسها في الماضي! هذا خلل عقلي عظيم»[٢]، فهذا الخلل العقلي يكمن في المبدأ الفلسفي القائل بأن

---

(1) Jerry Coyne, "Seeing and Believing," The New Republic (February 4, 2009), last accessed (June 10, 2015):
http://www.tnr.com/article/books/seeing-and-believing?id=1e3851a3-bdf7-438aac2aa5e381a70472

(٢) أبو الفداء ابن مسعود، رسالة في تحذير المسلمين من فرقة "التطويريين" (دراونة أهل القبلة)، منتدى التوحيد
http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?49628

القوانين العاملة ضمن نظام ما يمكن استعمالها لتدلنا على كيفية نشأة هذا النظام نفسه. لهذا فإن المسائل المتعلقة بالخلق –سواء خلق السماوات والأرض أو خلق الحياة أو خلق الإنسان– من الغيب المطلق الذي لا يمكن بلوغه بالطرق العلمية التجريبية أو العقلية الاستنباطية، وليس للعلم التجريبي فيها نظرٌ ولا نصيبٌ أصلاً. فنحن لا نرى فقط عدم تقديم أي مرجع معرفي على مرجعية نصوص الوحي في مسائل الخلق، بل في الحقيقة لا يصح قبول أي مرجع معرفي في مسائل الخلق إلا نصوص الوحي وحدها بلا شريك ولا منازع، لأنها مسألة غيبية متعلقة بفعل الله تبارك وتعالى.

أما الأساس الفلسفي الثاني لنظرية داروين فهو الصدفة والعشوائية المحضة وانعدام الغاية والتوجيه، ففي أحد مراجع علم الأحياء الموجهة لطلبة الجامعات نقرأ أنه «عن طريق مزاوجة التغيرات غير الغائية غير الموجهة مع عملية الانتخاب الطبيعي القاسية العمياء تمكن داروين من جعل التفسيرات الروحية واللاهوتية للحياة غير ضرورية».[1] وكتب علم الأحياء في الغرب تصف دومًا التطور بأنه «أعمى»[2]

---

(1) Douglas J. Futuyma, Evolutionary Biology (Sunderland: Sinauer Associates Inc. 1998), p. 5.

(2) Ibid.

و«قاس» [1] و«بلا رحمة»[2] و«غير موجه»[3] و«بلا غاية»[4] و«صدفة»[5]، وأنه يتضمن «عشوائية بالغة»[6] تعمل «بلا خطة ولا غاية»()، وأنها تصب في صالح «المذهب المادي»[7]، لأننا «لم نخلق لأجل غاية معينة أو كجزء من تصميم في الكون»[8]، وأننا نتعلم منه أن «الإله المتصف بالتصميم والغائية ليس ضرورة»[9] لأن «العشوائية التطورية وعدم اليقين حلت محل الذات الإلهية».[10] فهذا الأساس الفلسفي لا يمكن للمسلم أن يقبله بأي حال من الأحوال، بل نحن نعتقد أن الله تبارك وتعالى قد خلق الكون والحياة وجميع المخلوقات بعلمه المحيط وحكمته

---

(1) Ibid.
(2) Levine and Miller, Biology: Discovering Life (1992), p. 152; Levine and Miller, Biology: Discovering Life (1994), p. 161.
(3) Miller and Levine, Biology (1991), p. 658; Miller and Levine, Biology (1993), p. 658; Miller and Levine, Biology (1995), p. 658; Miller and Levine, Biology (1998), p. 658; Miller and Levine, Biology (2000), p. 658.
(4) Burton S. Guttman, Biology (Boston: McGraw Hill, 1999), p. 37.
(5) Nicholas H. Barton, Derek E. G. Briggs, Jonathan A. Eisen, David B. Goldstein, and Nipam H. Patel, Evolution (Cold Spring Harbor: Cold Spring Harbor Laboratory Press, 2007), p. 435.
(6) Miller and Levine, Biology (1991), p. 658; Miller and Levine, Biology (1993), p. 658; Miller and Levine, Biology (1995), p. 658; Miller and Levine, Biology (1998), p. 658; Miller and Levine, Biology (2000), p. 658.
(7) Levine and Miller, Biology: Discovering Life (1992), p. 152; Levine and Miller, Biology: Discovering Life (1994), p. 161.
(8) Helena Curtis and N. Sue Barnes, Invitation to Biology (New York: Worth Publishers, 1981), p. 475.
(9) Monroe W. Strickberger, Evolution (London: Jones and Bartlett, 2000),p. 70.
(10) Brian K. Hall and Benedikt Hallgrimsson, Strickberger's Evolution: The Integration of Genes, Organisms, and Populations (Sudbury: Jones and Bartlett, 2008), p. 659.

درء التعارض

تقرر نظرية المعرفة في الإسلام أن مصادر المعرفة متعددة منها الحس والمشاهدة ومنها العقل ومنها خبر الوحي الصادق، أو كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: طرق العلم ثلاثة: الحس والعقل والمركب منهما كالخبر. فمصدر المعرفة لا ينحصر في الحس والمشاهدة والتجربة كما يرى الفلاسفة الماديون، ولا في العقل والرأي كما عند الفلاسفة المثاليين، بل هو أشمل من هذا وذاك.

ثم إن مراتب الأدلة المعرفية تتفاوت فضلاً عن تفاوت مصادرها، فمنها ما هو اليقيني القطعي، ومنها ما يفيد الظن الغالب، ومنها ما يفيد الظن المرجوح، ومنها ما هو مجرد فرضية ليس عليها دليل، وهكذا. فإذا تعرض الباحث لمسألة ما تتنازعها الأدلة المختلفة قام بما يقوم به كل العقلاء من تقديم القوي على الضعيف، والقطعي على الظني، والمجمع عليه على المختلف فيه، والمحكم على المتشابه، ولا يخالف عاقل في أن هذه هي الطريقة المثلى للخروج بحكم أو قرار يتعلق بمسألة يدور حولها الخلاف واشتبكت فيها الأدلة أو تعارضت. إنما يكمن الخلاف في مصدر الدليل المعتبر، فالماديون الذين لهم المنعة والسطوة في الأوساط العلمية لا يعتبرون إلا بالدليل المادي التجريبي دون سواه، ويقصرون العلم عليه وينفون ما وراءه، وهو مسلك قد ضيق واسعًا وألزم الباحث بما لا يلزم. ونحن مع مخالفتنا لهذا المذهب المادي لا يفوتنا أن نقرر مصادر المعرفة المعتبرة لدينا كمسلمين أوسع من هذا بكثير، ليس على مستوى التنظير فحسب، بل على مستوى التطبيق كذلك.

الواسعة، وأن له في كل هذه المخلوقات آيات بيّنة وشواهد جليّة على صنعه المتقن البديع وتدبيره وحكمته ولطفه ورحمته وبديع خلقه.

أما الأساس الفلسفي الثالث لنظرية التطور فهو الأصل المشترك لجميع الأحياء؛ فإن التشابهات بين هذه الأحياء في الشكل التشريحي والوظائف الحيوية ومسارات التفاعلات البيوكميائية والمادة الوراثية تدل على شيء من اثنين: وحدة الصانع أو وحدة الأصل، كما أن التشابه بين كتابين يدل إما على أن أحدهما منقول أو مقتبس من الآخر أو أن مؤلفهما واحد. لكن ما الذي يرجح أحد التفسيرين على الآخر؟ المرجح هو أن يكون لديك برهان على ذلك إما بأن يصرح خالق هذه الكائنات بأنه هو خالقها أو أن تكتشف أدلة دامغة على طريقة نشوئها من بعضها البعض. في حالة نظرية التطور تجاهل القوم الوحي الإلهي الذي يصرح بأن الله هو خالق كل هذه الكائنات، ثم زعم داروين أنه اكتشف طريقة نشوء جميع أنواع الكائنات الحية عن طريق التغيرات العشوائية والانتخاب الطبيعي، ثم جاءت الداروينية الحديثة لتؤكد على نفس الطريقة لكن مع وضع الطفرات الجينية العشوائية محل التغيرات العشوائية، وبهذا أحكمت الداروينية —من الناحية النظرية— حلقات أطروحتها الفلسفية.

لكن للأسف فإن بعض المسلمين ينخدعون في هذا الإطار النظري الجميل ظاهريًا ولا يرون قبحه الداخلي، فيقول بعضهم: دعونا نأخذ من النظرية مفهوم الأصل المشترك وندع ما عداه! ويفوت هؤلاء حقيقة أن هذا الأصل المشترك لم ينهض إلا بعد إقصاء خالقية الله عز وجل (وحدة الخالق) بعد أن قامت "الأدلة" على أن العشوائية والصدفة يمكنها أن تخلق أنواع الكائنات من بعضها البعض عن طريق عملية الانتخاب الطبيعي بترجيح التطور على الخلق، فلا يمكن اعتناق مفهوم الأصل

المشتركِ بدون "الأدلة" الدالة عليه. يقول ديفيد كوامن في مقدمة سيرته لحياة داروين -وأختم المقال بهذا الاقتباس-: «.. كثيرون حتى بين من يقولون إنهم يوافقون على نظرية داروين (أيًا ما يكون فهمهم لها) يرفضون استيعاب التداعيات الكاملة لما كتبه. فأكبر أفكار داروين، الأكبر من مجرد التطور، كانت أكبر وأشد وأخطر مما يحتمل. هذه الفكرة هي ما أطلق عليها "الانتخاب الطبيعي" وعدّها الآلية الرئيسية للتغير التطوري. حسب وجهة نظر داروين (التي تأكدت منذ ذلك الوقت بالأدلة البيولوجية على مدار قرن ونصف القرن)، فإن الانتخاب الطبيعي عملية لا غرض لها، لكنها فعالة. إنها عملية غير شخصية، عمياء عن رؤية المستقبل، ليس لها أهداف، بل لها نتائج فقط.. إنه يجسد عشوائية عميقة تتناقض مع فكرة أن كائنات الأرض الحية وقدراتها (بما فيها قدرات الإنسان)، وتاريخها، وتوطنها في مواقع معينة، وما بينها من علاقات، كلها تعكس خطة مقدسة مسبقة من نوع ما».[1]

---

(١) ديفيد كوامن، داروين مترددًا، ص١٧-١٨

فخبر الوحي الصادق في الكتاب والسنة هو أحد مصادر المعرفة، كذلك العلم التجريبي والحس والمشاهدة من مصادر المعرفة، ولا يجوز في العقل أن يقع التناقض بين المصدرين في القطعيات، فلا يصح أن يتعارض دليل شرعي قطعي مع دليل قطعي علمي، لماذا؟ لأن هذا هو كتاب الله المسطور (في الوحي)، وذاك هو كتاب الله المنظور (في آيات الكون)، وطالما هما من نفس المصدر ويرجعان إلى نفس الأصل، فلا يصح عقلاً قيام التعارض بينهما أو وقوع التناقض بينهما. إذن من أين يأتي التعارض؟ يأتي من الأدلة التي دون القطعية في المنزلة، فنحن إذا قررنا أن الأدلة المعرفية تتفاوت في قوتها ومرتبتها وإفادتها للعلم، فمن الوارد أن تكون هناك أدلة قد وقع فيها الغلط، فإن العلم الموجب للعمل قد يقع بموجب دليل ظني واحد، أو حتى بما هو أدنى من ذلك إذا لم يوجد ما يعارضه، لماذا؟ لأن الذي لديه دليل ظني واحد لزمه أن يعمل بموجبه طالما لا يجد ما يعارضه، وإلا فما حجته في عدم العمل به؟

وليس هذا في الشرعيات فحسب، بل هو كذلك عند علماء العلوم الطبيعية، فإنهم يعملون بمقتضى الدليل الظني ولو كان في أدنى مراتب الظن، وفي كثير من الأحيان لا تزيد النظرية على كونها مجرد فرضية تفسيرية يضعها الباحثون لبعض الظواهر ثم يركنون إليها لكونها لا ينهض شيء من الأدلة بين أيديهم لإبطالها، بل أدنى من ذلك، تراهم يقبلونها ويعملون بها لكونها لا يظهر من التفسيرات والتأويلات ما يَفضُلها أو يقوم مقامها في توجيه ما اجتمع لهم من القرائن، وهذا كما لا يخفى من أدنى مراتب الاستدلال الظني إن لم يكن هو أدناها. ولذا فإن أمثال تلك النظريات إذا ما ظهر لهم ما يقوى على إبطالها تركوها وقالوا بخلافها، وإذا ما ظهر لهم ما يقويها زاد قبولهم لها، وكلما زاد ذلك، زادت قوة الدليل الظني المطلوب الوقوف عليه لنقضها.

وهذا يعني أنه من الوارد وقوع التعارض في الأدلة المختلفة سواء كانت من مصدر معرفي واحد أو من مصادر معرفية مختلفة، وأن الترجيح بين الأدلة يقتضي تمييز مراتب القوة والحجية لهذه الأدلة حتى يمكن تقديم القطعي على الظني والمحكم على المتشابه والقوي على الضعيف، وهكذا. وهذا هو مسلك العقلاء في كل مذهب. فليس الدليل العلمي التجريبي مثلاً مقدمًا على خبر الوحي لمجرد أنه علمي، ولا حتى العكس! بل النظر في مراتب الأدلة والترجيح بينها هو الأهم، والمغالطة الفادحة عند الفلاسفة الماديين إنما هي تقديمهم لدلالة التجريب والمشاهدة الحسية -بهذا الإطلاق- على دلالة العقل والخبر الموثق الصحيح، ونفيهم لدلالة هذا الأخير على ما وراء المحسوسات والمشاهدات. لكن أهل الوحي عندهم من المنهجية السليمة ما يجعلهم لا يقعون في هذا الخطأ، فهو أهل تمييز بين الأدلة وموازنة بينها لبلوغ الحق.

كلمة العلم الطبيعي:

تستند فلسفة العلم بأكملها على أن الخاصية المنطقية المميزة للعلم التجريبي هي إمكانية اختبار عباراته وإمكانية تكذيبها، هي قابليته المستمرة للتغير مع الواقع والوقائع عن طريق النقد والمراجعة واكتشاف الأخطاء، وبالتالي إمكانية التصحيح والتصويب والتحسين في سبيل التقدم المستمر. فجوهر النظرية العلمية التجريبية هو صلاحيتها للتنبؤ بحيث يمكننا اختبار هذه التنبؤات واكتشاف صحة النظرية أو خطئها من نتائج هذه التنبؤات. هنا لا يتوقف العلم أبدًا، بل يسير سيرًا متصلاً نحو التقدم المستمر.

هنا يخبرنا كارل بوبر –فيلسوف العلوم الأشهر في القرن العشرين– أنه لا توجد نظرية علمية يقينية أو صادقة بشكل مطلق، بل الهدف من البحث العلمي هو الكشف عن نظرية أكثر اقترابًا من الصدق أو أكثر تقدمًا، لكننا لابد أن نتخلى عن مطلب اليقين في العلم التجريبي، لماذا؟ لأن الوقائع التجريبية لا يمكن أن تنفى خطأ النظرية العلمية. قضية (كل البجع أبيض) لن يثبت صدقها ملايين البجع الأبيض، فمن أدرانا أنه لا توجد بجعة غير بيضاء في مكان ما لكن لم تصادفنا ولم نرها بعد؟ بينما رؤية بجعة واحدة غير بيضاء تكفي لتكذيب القضية. لأجل هذا لا يمكننا أن نصف أي نظرية علمية مهما كثرت الأدلة على صحتها بأنه حقيقة قطعية يقينية. فالسعي وراء الحقيقة هو الهدف الدائم للعلم التجريبي، وبلوغ الحقيقة بالنسبة للعلم هي الغاية النهائية التي لا تتحقق أبدًا، فليس هناك علمٌ تجريبيٌ يقيني ولن يكون. ويوضح بوبر هذا بأن الحقيقة تشبه قمة جبل مغلفة بالسحب والغيوم، من يحاول تسلق الجبل والصعود إلى قمته تواجهه صعوبات كثيرة، وحتى إذا وصل إليها لا يعرف أنه قد بلغها فعلاً، لأنه يعجز وسط الغيوم عن التمييز بين قمة الجبل الحقيقية والقمم الثانوية، غير أن هذا لا يؤثر على الوجود الموضوعي لذروة الجبل الحقيقية. واستحالة اعتبار النظرية العلمية يقينية أو مطلقة الصدق يمثل اعترافًا ضمنيًا بوجود الحقيقة التي نفشل في بلوغها رغم أن العلم يتقدم نحوها باستمرار.(١)

وهذا هو الواقع، فنظرية التطور ليست نظرية علمية بمعنى أنها حقيقة مطلقة، بل المقصود بها أنها أحسن التفسيرات المتاحة الآن، وقبلها كانت اللاماركية، وقبل

---

(١) د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩، ص٣٧٣

اللاماركية كان التوالد التلقائي، لكن العلم يقول الآن إن التوالد التلقائي خرافة وإن اللاماركية باطلة، فلا عجب أن تكون الداروينية هي أحسن التفسيرات الآن ثم بعد خمسين سنة يقولون إنها خرافة وباطلة. يقول د. مصطفى محمود: «إن نظرية داروين ثوب نظري جميل ولا شك ولكنه ملئ بالخروق.. ومن الخطأ العلمي أن نأخذها على أنها يقين، ومن الواجب أن ننظر إليها باعتبارها نظرية أو احتمالاً أو فرضًا هو أرجح الفروض الموجودة».[١] وهذه هي سيرورة العلوم والنظريات العلمية، لا شيء قاطع ولا مطلق ولا يقيني. فجوهر منطق البحث العلمي التجريبي هو أنه لا يمكن تحصيل اليقين عن طريق التجربة، بل هي مجرد سبيل لتحصيل أقرب ما يمكن للصدق والحقيقة، فالنظرية العلمية –أي نظرية– صحيحة مؤقتًا حتى يثبت خطؤها. يقول د. مصطفى محمود بعد أن بيّن أن النظريات العلمية بطبيعتها ناقصة لا تقدم رؤية شاملة أو مطلقة: «ونظرية داروين بالمثل لا تفسر لنا كل ما نرى من ظواهر الحياة. وهي ليست يقينًا علميًا.. وإنما هي على الأكثر مجرد ترجيح.. فهي أرجح الاحتمالات، والفروض الموجودة عن تسلسل الحياة وتطورها».[٢] بل إن ريتشارد دوكينز الملحد التطوري الشهير يعترف أن التطور ليس حقيقة يقينية قطعية بالمعنى الفلسفي قائلاً: «يخبرنا الفلاسفة ذوو النفوذ أننا لا نستطيع أن نبرهن على أي شيء في العلم... أما العلماء فأفضل ما يمكنهم فعله هو أن يفشلوا في دحض الأمور وهم يبينون مدى سعيهم الشاق في محاولتهم».[٣]

---

(١) د. مصطفى محمود، لغز الحياة، دار المعارف، الطبعة السادسة ١٩٩٢، ص ٧٠

(٢) المرجع السابق، ص ٦٨

(٣) ريتشارد دوكينز، أعظم استعراض فوق الأرض، ترجمة وتقديم: مصطفى إبراهيم فهمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ج١ ص٤٣

أضف إلى هذا أن نظرية داروين تقوم على أسس فلسفية باطلة، فالأصل أن الكائنات الحية لابد أن يكون لها خالق لأنها حادثة مصنوعة تفتقر إلى من يحدثها ويصنعها ويخلقها، ولا يمكن أن تأتي إلى الوجود بدون مسبب، ثم إن النظام والدقة والإحكام والتعقيد والتصميم في خلقها يدلنا على أن هناك من خلقها بدقة وعلم وحكمة بالغة، ثم الشفرات المعلوماتية المعقدة في الشريط الوراثي، ثم مراحل نمو الكائن الحي التي لا تعتمد على الجينات، كل هذا يدل على أن هناك خالقًا مدبرًا حكيمًا عليمًا لهذه الكائنات الحية. هذا هو مقتضى العقل الذي لا مفر منه، وهو مبني على حجج عقلية متينة راسخة. أما الداروينية فتسعى لتقديم بديل طبيعي ينفي الخالق ويرى سبب وجود المخلوقات من داخل منظومة الكون وليس من خارجها، وهو فضلاً عن كونه مخالفًا للبرهان العقلي الساطع على الخلق فإنه مخالف لبديهيات عقلية ومنطقية أولية مثل السببية واستحالة نشوء نظام من الفوضى واستحالة اكتساب صفات مثل الحياة والوعي والإرادة الحرة بدون واهب لها واستحالة نشوء معلومات وأوامر حيوية مشفرة ومعقدة يتم ترجمتها وتنفيذها بهذه الدقة والإتقان من غير خالق عليم حكيم.

أضف إلى هذا كذلك أن نظرة التطور تخوض في قضية ليست من جنس القضايا التي يتناولها العلم الطبيعي، لأن هذه الأحداث ليست مما يمكن قياسها على الأحداث الطبيعية التي تقع في العالم، وليست ناشئة عن النظام الطبيعي لأنها هي سبب وجود النظام الطبيعي، كما أنه لا يصح أن نقيس الأحداث التي صنعت بها السيارة على ما تلاها من أحداث تقع للسيارة أو تحدثها السيارة، فإنه لا يمكننا مثلاً العودة بالسيارة من خلال أعمالها وأنشطتها إلى الماضي لنستنتج من هذه الأعمال كيف نشأت السيارة في الأصل، بالعكس فإن كل ما تقوم به السيارة من وظائف

ومهام لا يمكننا مهما عدنا في الماضي إلى الوراء من استنتاج كيفية نشأتها وظهورها إلى الوجود، بل هذا يتطلب استنتاجًا عقليًا من جنس مختلف تمامًا، وهذا هو ما يقتضيه العقل. كذلك نشأة أنواع الكائنات الحية بما فيها الإنسان فإنه لا يمكن معرفة كيفية هذه النشأة عن طريق متابعة القوانين البيولوجية؛ لأن القوانين البيولوجية كانت بعد خلق الكائنات الحية.

مهمة العلم الطبيعي هي استقراء الأحداث الجارية التي تقع أمامنا في الطبيعة لنتمكن من استنتاج الأحداث التي لم تقع أمامنا، أما الأحداث الاستثنائية الفريدة فلا يمكن قياسها على سائر الأحداث الطبيعية العادية، لهذا لا يمكن معرفة كيفية نشأة أجناس المخلوقات الحية عن طريق استقراء العمليات البيولوجية الحيوية. وهذه عقبة معرفية كبرى تتمثل في عدم قدرتنا كبشر على تصور آلية وكيفية هذه الأحداث الفردية الاستثنائية العظيمة من خلال القياس على أنماط الحوادث الجارية في النظم الحيوية المختلفة. وسبب هذا الأمر هو أننا كبشر لم نشهد خلق الإنسان الأول أو خلق أي نوع من أنواع الكائنات الحية حتى نعرف آلية وكيفية نشأة الأنواع، فبأي عقل يسوغ لنا أن نتخذ من المسلك الاستقرائي طريقًا لمعرفة كيفية وقوع هذه الأحداث التي نعلم أنه لا يصح قياسها على شيء مما يدخل في نطاق تجربتنا البشرية؟ وقد جاء الوحي بهذه القاعدة المنهجية في قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾[1]، فلأننا لم نشهد خلق الكون ولا خلق الإنسان فلا يسوغ لنا أن ننساق وراء العلماء الماديين الذين ينصرون الاعتقاد الفلسفي المادي والرؤية الإلحادية في تمديد دائرة العلم الطبيعي حتى تتسع لمسائل

(١) سورة الكهف: آية ٥١

النشأة الأولى، سواء نشأة الحياة على الأرض أو نشأة الكون بأسره. وقد اعترف بهذا العالم التطوري جيري كوين Jerry Coyne في لحظة صدق مع النفس في أحد حواراته عندما سأله أحدهم عن كيفية نشأة الحياة، أجاب بأن هذا من الأسئلة التي لا نفهمها لأنه من الصعب جدًا دراسة أصل الحياة لأننا لم نكن هناك عندما ظهرت الحياة.(١) ويُضاف إليه اعتراف التطوري إدوارد وايلي الذي سبق لنا الاستشهاد به: «والحق أن إشكال ما هو النوع، وإشكال كيف ظهرت الأنواع، بعيدان عن الحل».(٢) فهذه المسائل ما زالت من المشكلات والمعضلات لدى العلماء الماديين، لأنها ليست من الفجوات المعرفية التي يمكن شغلها والتغلب عليها في المستقبل مع تقدم العلم وتطوره، بل هي من الغيب المحض الذي لا يمكن بلوغه إلا عن طريق خبر الوحي، ونحن لا نقبل فيها بأي سلطان معرفي سوى خبر الوحي الصادق.

يقول د. فوزي جاب الله أستاذ علم التشريح: «في أمور الخلق، من الصعب –بل من المستحيل– أن يجزم المرء برأي قطعي في كيفية الخلق وأن يؤلف نظرية تدعي تفسير نشأة الكائنات واختلافها وارتقائها وتحديد علاقاتها ببعضها، ففي مثل تلك المعضلات البحثية يواجه العلماء كثيرا من التناقض والغموض فيلجئون إلى التصور والافتراض ثم تتحول هذه المزاعم والفروض بمرور الوقت إلى شبه حقائق يرجع إليها ويستشهد بها أنصاف المتعلمين. الحقيقة في شئون الخلق ستظل غيبا عند الخالق، فلا يوجد من شهد خلق نفسه أو خلق غيره، ولهذا وجب التواضع والحيطة عند اقتحام مثل تلك المجالات العلمية المعقدة وإلا كانت النتيجة المحتومة

---

(١) مقطع لحوار مع التطوري الشهير جيري كوين بخصوص أصل الحياة والخلية الأولى:
www.facebook.com/WwwEltwhedCom/videos/1104365686260471

(٢) انظر مقال (النوع).

مزيدا من البلبلةِ والشكوك. يقول الله تعالى " مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً"».(١)

يُضاف إلى كل هذا أن الحدث الذي نشأ منه نظام ما لا يمكن أن يكون خاضعًا لقوانين ذلك النظام نفسه الذي كان سببًا في إنشائه، وإلا وقعنا في الاستدلال الدائري أو الدور بتعبير علماء المنطق، وهو أن يكون الشيء دالاً على نفسه بواسطة أو بغير واسطة. فقوانين الفيزياء التي تصف العلاقات بين الجسيمات وبين الأجرام السماوية لا يمكن أن نستخدمها لفهم كيفية نشأ هذا الكون، لأن نشأة الكون سابقة على وجود القوانين الجارية فيه وليس العكس، فإن ظهور القوانين إلى الوجود كان بعد فعل الخلق للعالم وليس قبل ذلك. كذلك العمليات الحيوية التي تقع للكائنات الحية من جنس التمثيل الغذائي والتكاثر وغيرهما لا يمكن أن تفسر لنا كيفية ظهور الكائن الحي إلى الوجود في بداية نشأته، وقد سبق لنا في الفصول السابقة أن أوضحنا بجلاء كيف أن قوانين الوراثة والجينات لا يمكنها أن تفسر نشوء نوع حي من نوع آخر فضلاً عن أن تفسر نشأة الحياة التي ما زالت لغزًا أبعد ما يكون عن الحل باعتراف الماديين والملحدين أنفسهم.

فلأجل فساد الأصل الفلسفي وبطلان هذا المسلك في الاستدلال نقضي ببطلان الداروينية حتى قبل أن نعرضها على نصوص الوحي، فكيف لو جاءت النصوص بخلاف ما تورده النظرية.

---

(١) د. محمد فوزي جاب الله، التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامي، بدون دار نشر، ص ٥٩-٦٠

كلمة الوحي:

لدينا في نصوص الوحي المنزل أن الله قد خلق آدم بيده من تراب ونفخ فيه من روحه، وهذا يفيد أنه لم يتطور من كائنات أخرى سابقة له، وأنه ليس له أب ولا أم. هكذا ورد في الوحي ونقل إلينا وفهم على مدار العصور، وعليه الإجماع من أهل الإسلام وأهل الكتاب حتى جاء داروين.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١] برهان جليّ يفيد أن آدم مخلوق من غير أب وأم، فالآية واردة في سياق احتجاج القرآن على منكري كون عيسى عليه السلام مولود بدون أب، فاحتج عليهم الله عز وجل بأن هذا مثله مثل خلق آدم الذي كان بدون أب أو أم. ولا تستقيم الحجة القرآنية أبدًا إلا بأن يكون آدم فعلاً بلا أب وأم، وإلا فما هو وجه الحجة في الآية على منكري كون عيسى مولودًا بلا أب؟ لأجل هذا فإن دلالة الآية على كون آدم بلا أب وأم هي دلالة قطعية يقينية محكمة لأنه لا يوجد أي تأويل آخر للآية، ولا يخطر بالبال أي معنى آخر لها إلا بإهدار اللغة والسياق والعقل.

ومن الحديث الصحيح في قصة خلق آدم ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك.[٢]

---

(١) آل عمران : أية ٥٩

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم ٢٦١١، ج٤ ص٢٠١٦

فهذا حديث صحيح صريح في أن الله خلق آدم بيده في الجنة خلقًا مستقلاً قبل نفخ الروح به، ومحاولة تأويل هذا الحديث لإفادة العكس تستعصي على أكبر المتكلفين، ولم يجد الساعون لتأويله بعكس معناه قولاً فيه إلا جعله من المتشابه مع وضوح لفظه وجلاء معناه! فلو كان خلق آدم عن طريق التطور من أسلاف سابقين هو الحق لصرح الرسول به ولما حكى ما يعارضه وينفيه بهذا الوضوح وهذه الصراحة، بل كان الأولى أن يذكر التطور صراحة في هذا المقام، حيث أن القرآن يقرر بوضوح ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾[١]، فهذا يفيد أنه لا سبيل للبشر لمعرفة بدء الخلق، وأن الوحي هو السبيل الوحيد، فكان الأولى حينئذ –إن كان التطور هو الحق– أن يخبر المؤمنين بهذا بدلاً من أن يخبرهم بالعكس أو أن يستعمل عبارات وألفاظ لا تحتمل معنى التطور بأي اعتبار.

وكذلك في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب.[٢]

فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن خلق آدم كان من قبضة قبضها الله من جميع الأرض فيه منافاة صريحة لكون هذا الخلق متطورًا عن أنواع سابق أو عن أشباه بشر، وإلا لما كان للفظة القبض أي مدلول أو معنى. ثم إن ما يذكره التطوريون من أهل القبلة من كون آدم قد تم اصطفائه وانتقائه من بين أشباه للبشر أو للإنسان

---

(١) سورة الكهف آية ٥١

(٢) مشكاة المصابيح رقم ١٠٠ ج١ ص٣٦، وكذلك رواه الترمذي وأحمد وأبو داود

ليست مما يعسر عن فهم عوام الناس، فلماذا لم يذكره الوحي بوضوح؟ ولماذا يلجأ النبي لاستعمال عبارات وتعبيرات لا تفيد معناه بل تعارضه بهذه الصورة الجلية؟ أليس هذا من التضليل الذي يتنزه الشرع عنه؟

فإذا جازت صحة نشوء الإنسان من أصل سابق وأن هذا هو مقصود نصوص الوحي في الحقيقة لا تكون لهذه النصوص أي حقيقة، بل هي كلها مجازات بعيدة واستعارات واسعة، ومعلوم أن الله تعالى لا يخاطب عباده وكذلك الرسول لا يخاطب أمته إلا بما يفهمونه ويعرفونه من كلامهم ولغتهم، لا بما تشق فيه الفهوم وتجهد فيه الأذهان، لأن مهمة الرسل هي دعوة الناس بمنتهى الوضوح وأفضل البيان، وإلا فمن السهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين لقومه إن آدم مخلوق من أب وأم من جنس آخر أو من أسلاف من أشباه البشر عن طريق التطور، كان من الأكثر سهولةً ووضوحًا وبعدًا عن اللبس أن يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام لقومه بلا عسر ولا مشقة، فلماذا يُعلّم الرسول قومه أن الله خلق آدم بيده من تراب الأرض خلقًا مستقلاً ثم نفخ فيه الروح؟! لماذا يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا رغم أن معاني التطور والسلف السابق والأصل المشترك للكائنات ليس من الصعب التعبير عنها أو إفهامها أو إيضاحها؟ هل يرغب الرسول أن يضل الناس؟ هل يشتتهم بهذا الكلام الغيبي رغم أن حقيقته شيئًا بعيدًا تمامًا عن ظاهره؟

فهذه المعاني من قبيل كون آدم له أب وأم ونشأ من جنس آخر غير بشري ليس فيها ما يبعد عن فهم العامة من الناس، فلماذا لم يبينها الله ورسوله بأيسر سبيل وأقصر طريق بدلاً من هذا الطريق الوعر الذي يسلكه التطوريون من أهل القبلة في تأويل نصوص الوحي؟ لماذا لم يعلّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته الكرام

رضي الله عنهم جميعًا وهو المعلم الأعظم الذي علمهم الكتاب والحكمة، وقد نقلهم عن كل عادة سيئة إلى أحسن العادات والسير والشرائع، فإن كان التصريح بهذه الأمور مشروطًا بشروط لا بد أن تتوافر في المعلم والمتعلم، فلا أفضل من هذا المعلم ولا من هؤلاء المتعلمين، فهلا علّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيّنها؟ ثم هب أن العامة لا يمكنهم فهمها فهلا بيّنها للخاصة؟ ثم كيف يجوز هذا وقد وجدنا أن في الكتاب والسنة تصريحٌ بالخلق المستقل لآدم وكونه بلا أب ولا أم، فإن كان كل هذا التصريح مخالفًا للحق مع تكراره مرة بعد مرة أفلا يكون هذا تلبيسًا وإضلالاً؟ حاشا لله! بل نحن نشهد أنه قد بلغ وأبان ووضح فما ترك غامضًا ليؤوله أحدٌ من دونه صلى الله عليه وسلم، فلا يُحتاج مع بيانه وبلاغه وتوضيحه إلى التأويل والتكلف والحذلقة.

فإن القرآن صرح بأن الله خلق آدم بيده من تراب ومن طين ومن صلصال كالفخار ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه، وهو كلام الله لفظًا ومعنى، فليس مدار الأمر على اللفظ فقط، بل المعنى كذلك من عند الله وليس من عند البشر، فلا يصح أن يخترع البشر معنى ويفرضوه على اللفظ القرآني، فيكون اللفظ من الله والمعنى من عند البشر، بل لا تجوز التفرقة بين اللفظ والمعنى. وبهذا يظهر أن ما يزعمه التطوريون من أهل القبلة من فهمٍ أو تفسيرٍ لا يمكن أن يقبله العقل على أنه مفهومٌ من النص القرآني، إنما هي تأويلاتٌ تُرتكب لإخضاع القرآن إلى أغراضٍ مخصوصةٍ وإمالته إلى أهواءٍ معينةٍ، ولا تحسبون أن هذه التأويلات المتكلفة تفيد في استمالة أنصار الداروينية إلى الإسلام، لأنهم يعرفون القرآن والسنة وما فيهما فلا يقبلون تبرؤهم من الآيات والأحاديث على أنه تبرؤ الإسلام ذاته، بل يعدونه نفاقًا وتكلفًا ومصانعةً لضعفٍ في الإسلام نفسه ولعيبٍ فيه، وهل تظنون أن أحدًا من عقلاء الدارسين للإسلام في

الشرق أو في الغرب يقبل ما يقولونه في التطور على أنه تفسيرٌ صادقٌ مطابقٌ للآيات القرآنية والأحاديث النبوية وإجماع علماء المسلمين على مر العصور؟!

المقارنة والموازنة:

نخلص من كل ما سبق إلى الموازنة بين معطيات الوحي ومعطيات العلم الطبيعي، وقد قمنا بالإشارة هنا إلى حقيقة الوضع على الجانبين، فجئنا من دلالة الوحي بما يفيد القطع واليقين، وجئنا من دلالة نظرية التطور بما يفيد الظن والاحتمال والتخمين بفرض على سبيل التنزل أنها نظرية علمية صحيحة ومثبتة علميًا فعلاً، رغم أن الأمر بخلاف ذلك. فماذا كانت النتيجة؟

مسلك العقلاء في كل مذهب وفكر عند تعارض الأدلة هو تقديم القطعي على الظني والمحكم على المتشابه، فإذا كانت أدلة نظرية التطور كلها أدلة ظنية لا تقترب من القطعية بحال في مقابل نصوص الوحي القطعية في إثبات خلق آدم وحواء دون سلف سابق أو تطور، كان لازمًا لنا الركون إلى الوحي القطعي في مقابل الدليل الظني.

فنحن إذا قبلنا بكون التطور نظرية علمية سليمة وثابتة علميًا وتتبع المنهج العلمي الصحيح، فإن دلالتها عند فلاسفة العلوم لا تتجاوز مرتبة أحسن التفسيرات، فنظرية التطور ليست نظرية علمية بمعنى أنها حقيقة مطلقة، بل المقصود بها أنها أحسن التفسيرات المتاحة الآن، فلا عجب أن تكون الداروينية هي أحسن التفسيرات الآن ثم بعد خمسين سنة يقولون إنها خرافة وباطلة. وهذه هي طبيعة العلوم الطبيعية والنظريات العلمية، لا شيء قاطع ولا مطلق ولا يقيني ولا يمكن تحصيل اليقين عن

طريق التجربة، بل هي مجرد سبيل لتحصيل أقرب ما يمكن للصدق والحقيقة، فالنظرية العلمية -أي نظرية- صحيحة مؤقتًا حتى يثبت خطؤها.

فكيف إذا وضعنا النظرية في حجمها الحقيقي من الناحية العلمية، فقد اشتملت على حق وباطل، ومجمل ومفصل، وواضح وغامض. لا أحد ينكر وقوع الطفرات في الجينات، لا أحد ينكر تطور أفراد النوع الواحد بمعنى التطور الصغير Microevolution، لا أحد ينكر وجود بعض التشابهات بين بعض الأنواع والفصائل، ولكن ليس هناك دليل على التطور الكبير Macroevolution، وليس هناك برهان على قدرة الانتخاب الطبيعي والطفرات على تخطي الحاجز بين الأنواع وإنتاج أنواع جديدة، النظرية -من منظور علمي محض بقطع النظر عن النص الشرعي- جوفاء، أو كما يقول د. عبد الله الشهري: «ما زال من المبكر جدًا، بل من الخطأ الواضح، أن نستنطق نصوص الشرع بما يمكن أن يدل على نظرية التطور في وضعها الراهن، فإن أقل ما في هذا الصنيع من الضرر هو حمل الشرع على مختلفٍ فيه، وتأويل ما لا يلزم للنصوص في ضوء حق متوهم أو حقائق مظنونة».(١)

ونضيف كذلك أن خلق الإنسان وخلق سائر المخلوقات ليس من الأمور الخاضعة للمجال المعرفي الخاص بالعلم التجريبي أصلاً، وقد سبق تقرير ذلك، بل هي من أمور الغيب التي اختص الله بها لأنه هو الذي اطلع عليها من دوننا، فلا سبيل إلى معرفتها إلا بخبر الوحي.

---

(١) د. عبد الله الشهري، مقدمة كتاب (تصميم الحياة) تأليف د. ويليام ديمبسكي ود. جوناثان ويلز، ترجمة د. مؤمن الحسن ود. محمد القاضي ود. موسى إدريس، مركز براهين، ص ١٠

هنا لا نجد مناصًا من قبول كلمة الوحي في خلق آدم، واطراد هذا في سائر الخلق؛ لأننا إن قبلنا مسألة الخلق المباشر لآدم ونقضنا نظرية التطور في هذه الجزئية، فإنه يلزمنا تعميم هذا على جميع المخلوقات لأن التفرقة بين آدم وغيره في الخلق لا مسوغ له عقلاً ولا شرعًا، لماذا؟ لأن جنس الأدلة على تطور الطيور والزواحف والبرمائيات هي من نفس جنس الأدلة على تطور الإنسان، فإذا رفضنا أدلة تطور الإنسان فالاتساق المنهجي يستلزم منا أن نرفض كل الأدلة من جنسها سواء على مستوى الحفريات أو التشريح المقارن أو الجينات أو البيولوجيا الجزيئية أو غيرها. نرفضها عقليًا ومنطقيًا، طالما هي لا تدل على المدلول ولا تفيد العلم. تطور الأنواع عبارة عن فرض عقلي أو فلسفي أو علمي، إذا انخرم في موضع وثبت بالدليل خلافه، سقط الفرض كله من جهة العقل والاستدلال العقلي، وإلا فإن الانتقاء والاستثناء ليس منهجًا عقليًا —ولا علميًا تجريبيًا— سليمًا أصلا، فيكون المرء كمن يؤمن ببعض التطور ويكفر ببعض ويريد أن يتخذ بين ذلك سبيلاً! ثم إن من خصائص العقل السليم أنه يساوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين، فإذا ثبت في موضع أن الأدلة من نوعٍ ما على أمر ما لا تصح، فيجب تعميم هذا المبدأ على جميع الأدلة من نفس الجنس. يقول د. مصطفى محمود: «ولأن نظرية داروين هي نظرية شمولية منهجية تعتمد على بناء منطقي محكم الحلقات.. فإن انهيار حلقة واحدة في البناء يؤدي إلى انهيار الكل».[1] أضف إلى كل هذا ورود أدلة إجمالية تفيد الخلق المباشر لجميع المخلوقات، وهي تناقض التطور صراحة، وقد فهمها المسلمون جميعًا عوامهم وخواصهم على خلاف نظرية التطور، ولم يخالف فيها مسلم —ولا أي واحد من أتباع

(١) د. مصطفى محمود، لغز الحياة، دار المعارف، الطبعة السادسة ١٩٩٢، ص ٦٨

الملل الكتابية– حتى أتى داروين، فالخلاف والنزاع في هذا الأمر متأخرٌ، بل حديثٌ جدًا.

اعتراض وجوابه:

لكن قد يعترض بعض المسلمين علينا بالإجماع العلمي الحديث على صحة نظرية التطور، حتى أطلق بعضهم العبارة بأنها حقيقة علمية يقينية، فإن الذين يتابعون التطورات العلمية عن كثب يدركون كيف أصبحت مكانة نظرية التطور في المؤسسات العلمية والأكاديمية في الغرب، وكيف صار هناك الكثير من التضييق على معارضيها، وأن من يجهر بمعارضتها يغامر بحرمانه من الترقية في السلك الأكاديمي والمنع من نشر أبحاثه في المجلات العلمية المحكمة وعدم دعوته لحضور المؤتمرات العلمية ومنعه من تقديم البحوث أو إلقاء المحاضرات فيها.[١] حتى في عالمنا العربي صار تدريس علم الأحياء في التعليم الأساسي أو الثانوي متشبعًا بأطروحات نظرية داروين، بل إن التعليم الجامعي لا تجد فيه دراسة علم الحيوان وعلم النبات وعلم التصنيف وعلوم التشريح المقارن ووظائف الأعضاء والأنسجة والأجنة وعلم الوراثة إلا وهي مرتبطة ومتشبعة بمفهوم التطور الدارويني. لكن هذا لم يمنع من الانتشار السريع للأفكار والحركات المضادة لنظرية التطور خاصةً في العقود الأخيرة؛ ففي كثير من الدول الغربية خاصةً الولايات المتحدة الأمريكية بدأ العلماء في رفع أصواتهم بالمعارضة الصريحة لأطروحات نظرية التطور، ونشروا مقالات وبحوث عديدة ضدها في كثير من المؤسسات والمنظمات. وقد وصلت آثار هذه المعارضة إلى عالمنا

---

(١) يرجى في هذا الصدد مراجعة الفيلم الوثائقي (مطرودون: لا مكان للذكاء) Expelled: No Intelligence Allowed
https://www.youtube.com/watch?v=E9iLYBPL8L4

العربي عن طريق بعض الكيانات المهتمة بهذا الملف.[1] فهؤلاء الذين يستندون إلى السيادة المهولة للداروينية في المؤسسات العلمية والأكاديمية في الغرب يمكن الجواب عليهم من وجوه:

الأول: أن العبرة في العلم التجريبي بالدليل وليس بإجماع العلماء، على فرض ثبوته، فالدليل الحقيقي المستمد من المشاهدة والحس والتجربة على التطور الكبير Macroevolution منعدم تمامًا، بخلاف التطور الصغير Microevolution الثابت علميًا وحسيًا ولا يماري فيه عاقل، وكل ما ينسب للبيولوجيا التطورية في مجال تحسين المحاصيل الزراعية وسلالات حيوانات المزرعة وإنتاج الأمصال واللقاحات وتطوير الدواء والصناعات البيوتكنولوجية إنما يعتمد على معطيات التطور الصغير لا الكبير. يقول د. أحمد شوقي أستاذ علم الوراثة: «إن المستويات الدقيقة الأصغر microevolution يمكن مشاهدتها وإحداثها، أما المستويات الأكبر ففرضياتها أكثر من حقائقها».[2] ومعلومٌ أن ثبوت الأصل المشترك وثبوت ارتقاء الأنواع يدور حول إثبات حدوث التطور الكبير من نوع إلى نوع، وهو ما يفتقر إلى الدليل كما بينا في الفصول السابقة.

---

(١) مثل منتدى التوحيد المتخصص في الحوار حول الإلحاد والمذاهب الفكرية المعاصرة
http://www.eltwhed.com/vb/
وكذلك مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية
/http://www.braheen.com

(٢) د. أحمد شوقي، ثلاث قصص علمية: البيولوجيا – التطور – الوراثة، مكتبة الأسرة ٢٠١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٤٨

الثاني: أننا نحتج عليهم -كمسلمين- بالإجماع الشرعي على الخلق المستقل لآدم وحواء دون أب وأم من نوع سابق أو سلف قديم. وهذا الإجماع الشرعي أقوى بمراحل في دلالته عن الإجماع العلمي، لماذا؟ لأن الإجماع الشرعي مبني على أمر ثابت وهو الدين ومصادره المعتبرة، وهذه ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وبالتالي فإن الإجماع الشرعي أمرٌ ثابتٌ لا يتغير ولا يتبدل ويمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه، بخلاف الأمر مع الإجماع العلمي الذي هو مبني على العلم التجريبي المتغير دومًا والذي ليس فيه ثقةٌ مطلقةٌ ولا يقينٌ ثابتٌ.

يقول الشيخ حسين الجسر: «وإن قيل إن بعض تلك المسائل التي يقلد بها المقلدون فلاسفة هذا الزمان تكون مجمعًا عليها عندهم، قلنا إنا معشر المسلمين لسنا مأمورين في شريعتنا بتقليد إجماع إلا إجماع هذه الأمة المحمدية، أي إجماع علمائها الذين هم أهل الاجتهاد وفهم نصوص الشريعة حيث شهد لهم الرسول عليه السلام بأنهم لا يجتمعون على ضلالة. على أن إجماع هؤلاء الفلاسفة على بعض تلك المسائل قد يكون مبنيًا على دليل ظني فلا يفيد عصمة إجماعهم من الخطأ لاسيما في المسائل التي تكون بعيدة الموضوعات عنهم كما في المسائل الفلكية والجوية؛ فإن معظم أدلتهم فيها الحدس والتخمين وقياس الشاهد على الغائب كما يعلم من الاطلاع على كتبهم التي تقرر فيها هذه المسائل».[١]

أضف إلى هذا أن الإجماع الشرعي في حالتنا هذه يستند إلى أدلة قوية من نصوص الوحي، وليس إجماعًا بلا بينة أو برهان، بينما الإجماع العلمي المعارض له

---

(١) حسين الجسر، الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية، عني بمقابلة أصوله وتصحيحه رضوان محمد رضوان ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م، ص ١٦١

لا يستند على أدلة معتبرة مشهودة ومحسوسة أو خاضعة للتجربة، فلا تصح مثلاً مقارنة نظرية داروين بنظرية الجاذبية، لأن الجاذبية أمرٌ مشاهدٌ وملموس ويخضع للتجربة ويمكن صياغته في قوانين وقابل للتنبؤ، بينما التطور الكبير –الذي عليه مدار النزاع كله– ليس مشاهدًا ولا ملموسًا ولا يخضع للتجربة ولا يمكن صياغته في قوانين ولا يتنبأ بأي شيء، فالمقارنة بين الداروينية والجاذبية لجعلهما بنفس الاعتبار مغالطة جسيمة للغاية.

الثالث: أن الإجماع العلمي على صحة الداروينية لا ينفع المسلمين المعتقدين في صحة التطور، لأنه يقرر مسئولية الانتخاب الطبيعي غير الموجه والطفرات العشوائية عن حدوث التطور. وهذا يوقع القوم في لوازم عقلية خطيرة أبرزها التصور المشوه للحكمة الإلهية والوقوع في التناقضات الفادحة كما سنبين في المقالات القادمة. ولهذا صار القوم محل سخرية وتهكم الداروينيين الملاحدة حتى شبههم العالم التطوري جيري كوين بمن لا يرى تعارضًا بين الزواج والزنا لأن بعض المتزوجين يرتكبون الزنا!![1] وأعجب من هذا صنيع د. عمرو شريف في استدلاله على صحة الأصل المشترك للكائنات بالإجماع العلمي على الداروينية بينما يرفض مسئولية الانتخاب الطبيعي والطفرات العشوائية عن التطور لأنها مخالفة للدليل، فصار كمن يؤمن ببعض الإجماع العلمي ويكفر ببعض ويريد أن يتخذ بين ذلك سبيلاً! وهذا تناقضٌ معرفيٌ جسيمٌ كان ينبغي أن يتنزه عنه الدكتور عمرو، لكن للأسف كل من يعتقد في صحة التطور يصير ضحيةً لهذه التناقضات والإشكالات العقلية، فضلاً عن الأخطاء العلمية والشرعية.

---

(1) Jerry Coyne, "Seeing and Believing," The New Republic (February 4, 2009), last accessed (June 10, 2015):
http://www.tnr.com/article/books/seeing-and-believing?id=1e3851a3-bdf7-438aac2aa5e381a70472

حسين الجسر والنشوئية وجهًا لوجه

هو الشيخ حسين أفندي الجسر الطرابلسي الأزهري (١٨٤٥-١٩٠٩م)، أحد أبرز علماء الشام وفضلائها والذي عاصر مرحلة حرجة من التحولات الفكرية والسياسية آنذاك وبداية الغزو التغريبي للأمة الإسلامية. ولد في طرابلس عام ١٨٤٥م وتوفي والده وعمره تسعة أشهر وتوفيت والدته وعمره عشر سنوات، فكفله عمه مصطفى الجسر الذي واظب على تعليمه وأتاح له الدراسة وتلقي العلم على أيدي نخبة من المشايخ أمثال أحمد عبد الجليل وعبد القادر الرافعي وعبد الرزاق الرافعي، ثم سافر إلى القاهرة ليتلقى العلم في الأزهر حيث درس على أيدي عدد من أهل العلم أبرزهم الشيخ حسين المرصفي. لكنه اضطر إلى العودة إلى طرابلس بعد أربع سنوات بسبب وفاة عمه واضطراره للقيام برعاية العائلة وتحمل أعبائها، فضلاً عن رئاسة الطريقة الصوفية الخلواتية التي كان عليها أبوه وعمه.

وكان بعد عودته يواظب على إعطاء الدروس في المدرسة الرجبية في الجامع المنصوري الكبير بطرابلس، ثم قرر في عام ١٨٨٠م إنشاء المدرسة الوطنية والتي حظيت بتأييد بعض المصلحين مدحت باشا وحمدي باشا، وكانت تدرس العلوم الدينية (تفسير وحديث وفقه وعبادات وتوحيد) وعلوم الآلة (نحو وصرف ولغة وبيان ومعاني وإنشاء وأدب وعروض) والعلوم الفنية (منطق وحساب وجغرافية وهندسة والقانون العثماني واللغات (التركية والفرنسية قراءة وكتابة). غير أن المدرسة الوطنية لم تستطع الاستمرار لأسباب مختلفة، فأغلقت وتوجه بعدها الشيخ حسين الجسر إلى بيروت حيث عمل في إدارة المدرسة السلطانية مما أتاح له الاطلاع على العلوم العصرية الحديثة في مكتبة الكلية الإنجليزية السورية، فضلاً عن تواصله بالشيخ محمد

عبده الذي كان يلقي بعض المحاضرات على طلبة المدرسة السلطانية، لكن الشيخ الجسر لم يلبث أن عاد إلى طرابلس حيث اهتم بالتأليف والتصنيف حتى صدرت له (الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيّة الشريعة المحمدية) عام ١٨٨٨م التي اشتهرت وانتشرت نسخها في أرجاء الشام إلى أن بلغت السلطان عبد الحميد، فاستدعاه للإقامة في اسطنبول فلبى الدعوة وأقام بها تسعة أشهر كتب فيها رسالة (الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية) وهي متممة للرسالة الحميدية.

ثم عاد الشيخ حسين الجسر بعد ذلك إلى طرابلس حيث قضى بقية حياته في المطالعة والتأليف والعبادة، حتى وافته المنية عام ١٩٠٩م رحمه الله وطيب ثراه.

المشروع الفكري:

عاصر الشيخ حسين الجسر رحمه الله فترة من فترات الضعف الظاهر للأمة الإسلامية مع وجود تدخل ثقافي غربي واضح ونشاط تغريبي بالغ الخطورة. هذا الأمر كان دافعًا للشيخ حسين الجسر لمواجهة هذا الغزو الثقافي الذي يطرح موضوعات وأفكار ومعالجات جديدة لم يسبق أن واجهها علماء الإسلام فصارت تتطلب اجتهادًا وتحريرًا لها يناسب خطورتها وتأثيرها. وكان أبرز موضوعات هذه المواجهة هو العلاقة بين الإسلام والعلم الحديث، ورغم أن الشيخ كان منخرطًا في الصوفية وملتزمًا بالمذهب الأشعري إلا أننا نستطيع أن نصف مشروعه الفكري في مواجهة التحديات العلمية الحديثة للإسلام وعقائده ونصوصه الشرعية بأنه أول مشروع متكامل حديث يمثل الدين الإسلامي في مواجهة النظريات العلمية الحديثة، بخلاف مشروعات فكرية جزئية قام بها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وكان هدف هذا المشروع هو: رد

الشبهات العلمية الحديثة عن النصوص الشرعية المعتمدة في الاعتقاد أو التوفيق بينها وبين ما يثبت علميًا بالدليل القاطع مستخدمًا أدوات المذهب الكلامي الأشعري.

ويتأسس مشروع الجسر -رحمه الله- على عدة قواعد منهجية محورية:

القاعدة الأولى: الاقتصار في مسائل الاعتقاد على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتواترة والمشهورة دون الآحاد[1]، وهذا يظهر فيه التأثر البالغ بالمذهب الكلامي الأشعري، لكنه في الحقيقة يخالف المستقر عند سلف هذه الأمة من لزوم اتباع كل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم سواء كان متواترًا أو آحادًا لا فرق بين مسائل الاعتقاد ومسائل الأحكام والعبادات. وقد حشد الإمام ابن قيم الجوزية عشرات الأدلة على عدم جواز التفرقة بين أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وقبولها كلها لا فرق بين حديث وحديث من جهة القبول، واستشهد بكلام الصحابة والتابعين وكبار أئمة الإسلام مثل الشافعي وابن حنبل وغيرهما.[2] لكن في الحقيقة فإن هذا التفريق غير مؤثر في مسألتنا هنا، وإن كان له تداعيات أخرى في المجال الأوسع للعقيدة.

القاعدة الثانية: الأصل في فهم النصوص هو المعنى الظاهر المتبادر إلى الذهن، «إن كل نص من هذه النصوص يجب علينا أن نعتمد فيه معناه الظاهر المتبادر منه، ولا يسوغ لنا تأويله وصرفه إلى معنى آخر غير متبادر إلا إذا قام دليل عقلي

---

(١) حسين الجسر، الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية، ص١٥٧-١٥٩

(٢) ابن قيم الجوزية، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠١، ج٢ ص ٥٥١ حتى نهاية الكتاب

قطعي يناقض معناه الظاهر، فحينئذ يكون قيام ذلك الدليل العقلي قرينة دالة لنا على أن معناه الظاهر غير مراد للشارع بل مراده معنى آخر غير ما يتبادر منه، فنؤول النص حينئذ، ونصرفه إلى معنى آخر غير المتبادر منه على سبيل الاحتمال، يكون قابلاً له، وغير مناقض لذلك الدليل العقلي».[1] فالنص الشرعي الثابت يفيد العلم اليقيني القاطع الجازم ولا يمكن تأويله عن معناه الظاهر المتبادر المستقر إلا في حالة وجود دليل آخر من نفس المرتبة في الحجية، أي: يقيني قطعي، وهذا الدليل الآخر قد يكون نصًا شرعيًا آخر أو دليلاً عقليًا أو من الحس والمشاهدة أو من العلم الطبيعي. فإن كان هذا الدليل الآخر المعارض يبلغ نفس المرتبة في الحجية التي بلغها النص، لزم الجمع بينهما وتأويل النص الوارد في الكتاب والسنة إلى معنى يرفع التعارض، فلا نتحول في فهم النص من الكتاب أو السنة إلى معنى خلاف الظاهر إلا لأجل دليل قطعي وليس لمجرد الظن والشبهة. أما إن كان الدليل المعارض لا يبلغ نفس المرتبة من الحجية، عندها ننظر في القاعدة التالية.

القاعدة الثالثة: أنه لا يجوز معارضة المعنى الظاهر للنص من الكتاب والسنة بالدليل الظني الذي لا يفيد اليقين، «وأما معارضة الدليل العقلي الظني فلا تكون داعيًا لترك الظاهر من معنى النص، لأن رفض الدليل الظني لا يوجب رفض العقل كما هو واضح لاحتمال أن هذا الظن باطل في نفس الأمر، فلو تركنا الظاهر من النص لأجل الدليل الظني لكنا في معرض أن يكون اعتقادنا خطأ لاعتمادنا على الظن، وحينئذ لا نعذر في ذلك إذ لا ضرورة تدعونا إليه كما تدعونا الضرورة عند معارضة الدليل القطعي، على أن إتباع الدليل الظني وترك ظواهر النصوص يوجب اختباطًا

---

(١) حسين الجسر، الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية، ص١٥٧-١٥٨

واختلاطًا في الاعتقاد لا يحد، فإن الظنون كثيرة، والاعتقاد في الشرائع إنما يعتمد فيه اليقين، فكان الصواب أن يتمسك بظواهر النصوص يقينية الورود، ولا يتحول عنها لمجرد الظنون».[1]

وهذا هو مقتضى العقل السليم والتفكير المنطقي المقبول، فإنه إذا تعارض اثنان من معطيات المعرفة فيؤخذ بالمعطى الأقوى في الحجية والموثوقية، فإذا كان أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا أخذنا بالقطعي، وإن كان كلاهما قطعيًا سعينا للتوفيق بينهما، وإن كان كلاهما ظنيًا أخذنا بالأقرب للصحة أو توقفنا ولم نجزم، وإن كان أحدهما قطعيًا أو ظنيًا والآخر تخمينًا أو فرضًا (عقليا/فلسفيا/علميا) أو استنباطًا اجتهاديًا من النصوص أخذنا بالقطعي أو الظني ولم نأخذ بالرأي. وما بين القطعي اليقيني والرأي المجرد مسافة واسعة شاسعة تتفاوت فيها درجات الحجية والموثوقية للمعطيات المعرفية، والتفكير السليم يقتضي أن نأخذ بالأعلى في قوة الدليل وحجيته وندع الأدنى، وهذا في جميع أنواع المعرفة شرعية كانت أو غير شرعية.

القاعدة الرابعة: المسلم لا يتبع إجماعًا لأي من الطوائف إلا الإجماع الشرعي، «إنا معشر المسلمين لسنا مأمورين في شريعتنا بتقليد إجماع إلا إجماع هذه الأمة المحمدية، أي إجماع علمائها الذين هم أهل الاجتهاد وفهم نصوص الشريعة حيث شهد لهم الرسول عليه السلام بأنهم لا يجتمعون على ضلالة».[2]

القاعدة الخامسة: إجماع العلماء الطبيعيين لا يلزمنا من حيث هو إجماع، بل العبرة بالدليل لا بالإجماع، لأن «إجماع هؤلاء الفلاسفة على بعض المسائل قد يكون

---

(١) حسين الجسر، الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية، ص١٥٨-١٥٩

(٢) المصدر السابق، ص١٦١

مبنيًا على دليل ظني فلا يفيد عصمة إجماعهم من الخطأ لاسيما في المسائل التي تكون بعيدة الموضوعات عنهم كما في المسائل الفلكية والجوية؛ فإن معظم أدلتهم فيها الحدس والتخمين وقياس الغائب على الشاهد كما يعلم من الاطلاع على كتبهم التي تقرر فيها تلك المسائل».[١] فإنهم يعملون بمقتضى الدليل الظني ولو كان في أدنى مراتب الظن، وفي كثير من الأحيان لا تزيد النظرية العلمية على كونها مجرد فرضية تفسيرية يضعها الباحثون لبعض الظواهر ثم يركنون إليها لكونها لا ينهض شيء من الأدلة بين أيديهم لإبطالها، بل أدنى من ذلك، تراهم يقبلونها ويعملون بها لكونها لا يظهر من التفسيرات والتأويلات ما يَفضُلها أو يقوم مقامها في توجيه ما اجتمع لهم من القرائن، وهذا كما لا يخفى من أدنى مراتب الاستدلال الظني إن لم يكن هو أدناها. ولذا فإن أمثال تلك النظريات إذا ما ظهر لهم ما يقوى على إبطالها تركوها وقالوا بخلافها، وإذا ما ظهر لهم ما يقويها زاد قبولهم لها. ويضرب الشيخ حسين الجسر رحمه الله مثال ذلك بعلم الفلك الذي تغيرت هيئته تمامًا من الإجماع المستقر لقرون طويلة حول مركزية الأرض، ثم عاد القوم فقالوا بعدم مركزية الأرض ونقضوا الإجماع السابق إلى إجماع جديد مناقض له تمامًا.[٢]

القاعدة السادسة: إن كان لا يجوز إتباع إجماع العلماء الطبيعيين، فالأولى عدم إتباع أفرادهم فيما يعارض بوضوح ما هو مستقرٌ في النصوص الشرعية، «فمن هنا يظهر لك خطأ بعض أهل هذا العصر في تقليد فلان الفلكي أو فلان الجغرافي أو فلان الجيولوجي المشهورين في فنونهم في بعض مسائل ربما تكون مخالفة لظواهر

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

نصوص الشريعة التي تعتمد في الاعتقاد، فهذا الجال ربما يوقع هؤلاء المقلدين في الخروج عن الدين– والعياذ بالله وهم لا يشعرون، والذي يوقع أولئك المقلدين في تقليد فلاسفة هذا الزمان في تلك المسائل هو أنهم نظروا لهم أدلة في بعض مسائل فنونهم يقينية قطعية كأدلتهم في المسائل الحسابية والهندسية وبعض التجريبيات الطبيعية المحسوسة فاغتروا بهم، وأوقعهم الوهم في اعتقاد أن كل ما يقوله أولئك الفلاسفة صواب يقيني الثبوت وأنهم لا يعتمدون في أدلتهم في جميع فنونهم إلا على اليقين ولم يدر أنه يوجد فرق بين أدلة المسائل الحسابية وما ذكر معها وبين أدلة كثير من المسائل الفلكية مثلاً بأن تلك يقينية وهذه قد يوجد بينها كثير من الظنون والتخمينات وقياس الغائب على الشاهد الذي قد يكون في نفس الأمر قياسًا فاسدًا».(١)

القاعدة السابعة: نصوص الوحي ليس من مقاصدها التفصيل في مباحث العلوم الطبيعية، «الشريعة المحمدية، بل وسائر الشرائع إنما يقصد منها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى باعتقاد وجوده واتصافه بصفات الكمال، وإلى كيفية عبادته وأداء شكره، وإلى الأحكام التي توصلهم إلى انتظام المعاش وحسن المعاد، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم وما هي النواميس القائمة في السماويات أو في الأرضيات وأمثال ذلك فليس شيء من نحو هذا من مقاصد الشرائع بل هذه المبحث هي معارف تتوصل الناس إليها بعقولهم فربما ينتفعون بها في دنياهم وربما يكون حظهم فيها مجرد الاطلاع، والشرائع لا تلتفت إليها أولاً وبالذات ولا تعتني بتفاصيلها: نعم قد تذكر شيئا منها مجملا على قدر ما يكون له دخل في مقاصدها

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٠-١٦١

الأصلية، فتذكر مثلا خلق السموات والأرضين وإبرازها من العدم واختلاف أنواع المخلوقات في التنوعات وكيفية تدبير الأكوان، وإعطاء كل منها نظامه على سبيل الإجمال، لأجل أن يكون ذلك دليلاً عقليًا للناس على وجود إله العالم وعلى اتصافه بالعلم، والقدرة، والحكمة إلى غير ذلك، وقد تفصل بعض تلك المباحث لداع يدعو إلى ذلك يكون مرجعه إلى مقاصدها».

هذه القواعد المنهجية السبع هي الأصول التي تأسس عليها المشروع الفكري للشيخ حسين الجسر رحمه الله في تناول معطيات العلم الحديث التي تعارض النصوص الشرعية بحيث تخضع بناءً على هذه القواعد إما لردها ورفضها أو للتوفيق والجمع بينها وبين نصوص الوحي. وسوف نضرب المثال لتطبيق هذه القواعد بنظرية داروين في النشوء والارتقاء.

نظرية داروين:

في كتابه (الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيّة الشريعة المحمدية) يقوم الشيخ حسين الجسر بالجواب عن العديد من الشبهات حول الشريعة الإسلامية وتفاصيلها وإثبات صحة الرسالة والنبوة والكلام عن أبواب في الاعتقاد مثل إثبات وجود خالق العالم والحكمة من إرسال الرسل وإرساله محمدًا صلى الله عليه وسلم وغيرها. ومن ضمن المسائل التي يتناولها نظرية داروين في النشوء والارتقاء المعروفة حاليا باسم نظرية التطور، ويجيب عن المسلمين الذين يريدون تأويل نصوص الوحي الواردة في الخلق لتناسبها وتوافقها، فيقول بخصوص خلق أنواع وأصناف الكائنات الحية أن النصوص الواردة فيها ما يقبل التفسير بالخلق

أو بالتطور كخلق كل دابة من ماء وأنه جعل من الماء كل شيء حي، أما سائر النصوص فالمعنى الظاهر المباشر منها هو الخلق لا التطور، يقول رحمه الله:

«وأما بقية النصوص المذكورة بالمعنى الظاهر المتبادر منها هو أن الله تعالى أوجد أنواع العوالم بطريق الخلق، أي أنه أوجد كل نوع منها مستقلاً عن غيره ليس مشتقًا من سواه، أعم من أن يكون بإيجاد دفعي أو متمهل، كما لا يخفى على من يدري أساليب الكلام العربي؛ لأن من يقول مثلاً: قدمت لضيفاني من الأطعمة أنواعًا، يتبادر من كلامه أنه اصطنع كل نوع مستقلاً عن البقية وقدمه إليهم، وأما كونه اصطنع جملة الطعام جنسًا واحدًا، ثم فرع منه الأنواع بترقيه في صناعة الطبخ، واشتقاق نوع من نوع، فهو معنى بعيد عن الإرادة لا يخطر في البال، وإن كان جائز الوقوع»[1].

وبعد مناقشة قصيرة لبعض الأحاديث الواردة في الخلق يقرر تقريرًا مؤصّلاً محكمًا، أنقله هنا كاملاً لقوته ونفاسته:

«فعلى ما تقدم من ظاهر هذه النصوص، وبحسب القاعدة المتقدمة من أن الواجب في الشريعة المحمدية أن يعتقد أتباعها المعاني المتعينة أو المعاني الظاهرة من نصوصها المتواترة أو المشهورة ما لم يعارض المعاني الظاهرة دليلٌ عقليٌ قاطعٌ يلجئ إلى تأويلها، يجب أن يكون اعتقاد أتباع محمد عليه السلام أن الله خلق كل نوع من عوالم الأرض مستقلاً ابتداء عن البقية، ولم يخلقها بطريق النشوء واشتق نوعًا من نوع، وإن كان قادرًا على كلتا الصورتين، وأما أن كل نوع خلقه دفعة واحدة أو

---

(١) حسين الجسر، الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيّة الشريعة المحمدية، تقديم عصمت نصار، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، ٢٠١٢، ص٢٩١

بتمهل وترق بسبب نواميس وضعها الله له فهذا سبيله عندهم التوقف، حيث لم يرد في شريعتهم ما يفيد القطع بأحد الأمرين، ولا يسوغ لهم بمقتضى حكم شريعتهم كما تقدم أن يعدلوا عن اعتقاد هذا الظاهر إلى الاعتقاد بخلافه من نحو النشوء واشتقاق بعض من بعض كما تقولون أيها الماديون؛ لأن هذا خلاف ظاهر النصوص المتقدمة، ولم يقم عليه دليل قاطع يضطرهم إلى تأويلها، والأدلة التي تذكرونها في كتبكم على النشوء ما هي إلا ظنون وفروض لم تخرج عن دائرة الاحتمال الذي يسقط به الاستدلال، كما يظهر من الاطلاع عليها مع خلو الغرض، وما دام الحال كذلك فأتباع محمد لا يصرفون تلك النصوص عن ظواهرها ولو مع اعتقادهم بأن هذا النشوء بخلق الله تعالى، بل لا يسوغ لهم الصرف ما دام الحال كذلك، نعم لو قام الدليل القطعي القاطع على خلاف ظاهر تلك النصوص كان عليهم حينئذ أن يؤولوها للتوفيق بينها وبين ما قام عليه ذلك الدليل جريًا على القاعدة المتقدمة (وأخال أن دون ذلك خرط القتاد)».[١]

فأدلة نصوص الوحي على الخلق قطعية يقينية لا يجوز تأويلها لأجل أدلة التطور الظنية المحتملة، ثم يضع الشيخ الجسر احتمالاً بأنه لو قام الدليل اليقيني القطعي على صحة حدوث التطور لجاز لنا تأويل هذه النصوص، لكنه يستدرك قائلاً إنه يخال ذلك دونه خرط القتاد، أي مستحيل تمامًا، لماذا؟ لأن كيفية أي حدث لا يمكن أن نعرفها إلا بطريق من ثلاث طرق: إما مشاهدته (دليل الحس) أو مشاهدة نظيره (دليل القياس العقلي) أو خبر الوحي الصادق. ومن الواضح الجليّ أننا لم نشهد خلق أي نوع من أنواع الكائنات الحية، ولم نشهد كذلك أي شيء مثيل أو نظير ذلك من

(١) المصدر السابق، ص٢٩٢-٢٩٣

وقائع التطور الكبير لنقيسه عليه كنشوء نوع من نوع آخر، .وقد سبق في مقالات سابقة أن تكلمنا بالتفصيل عن كون خلق أنواع الكائنات الحية ليس من جنس الأحداث الحيوية المشاهدة المعتادة التي تجري في الأحياء ويمكن استقراؤها والقياس عليها. فلا يبقى لنا على هذه الحال إلا خبر الوحي الصادق وهو قد جاء بخلاف التطور الداروني، فحقيقة الحال أن نشوء الأنواع بعضها من بعض ليس عليه دليلٌ أصلاً فضلاً عن أن يكون دليلاً قطعيًا في يوم من الأيام!

ثم ينتقل الشيخ الجسر إلى مناقشة خلق الإنسان والنصوص الواردة فيه وأنها ظاهرة في بيان الخلق المباشر على خلاف النشوء من أسلاف سابقين قائلاً: «فهذه النصوص تفيد ظواهرها أن الله تعالى خلق الإنسان نوعًا مستقلاً لا بطريق النشوء، ولم يشتقه من نوع آخر كما تقولون»[1]، ثم يقول إنه يبعد أن يكون خلق الإنسان من المادة البسيطة ثم ترقى في الحياة حتى بلغ القرد ثم القرد الإنسان ثم الإنسان كما يقول التطوريون ويهمل الله تعالى ذكر ذلك كله ويقتصر على مراحل خلقه من تراب وطين وصلصال وحمأ مسنون، «فسكوت النصوص المذكورة عن بيان النشوء واشتقاق الإنسان من نوع سواه واقتصارها على ما تقدم من البيان هو ظاهر في أن الإنسان خلق نوعًا مستقلاً ليس مشتقًا كما تقولون».[2] وهذا حقٌ فإن القرآن هو البلاغ المبين، ولم يرد الله إلا أن يكون بلاغًا مبينًا فصيحًا عربيًا، لهذا لا يجوز أن يكون بيانه ملتبسًا ولا مدلسًا، وليس في حاجة إلى تأويله وتحميله ما لا يحتمل، بل إن الله جل وعلا لو أراد بالكلام خلاف ظاهره كان عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف

---

(١) المصدر السابق، ص٢٩٤

(٢) المصدر السابق، ص٢٩٥

الناس عن فهم المعنى الذي لم يرده، فيبعد مع ما نعرفه بجلاء من بلاغ القرآن المبين أن يخبر الله ورسوله الناس بكيفية معينة للخلق أبعد ما يكون عن الحقيقة ليتركها للتأويل البعيد المتكلف.

بل إن الشيخ الجسر ينقل لنا من تفسير الرازي رحمه الله ما ينفي نشوء الإنسان من أسلاف سابقة في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾[1]، «قوله: (إذا) وهي للمفاجأة، يقال خرجت فإذا أسد بالباب، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان، لا أنه صار معدنًا ثم نباتًا ثم حيوانًا ثم إنسانًا. وهذا إشارة إلى مسألة حكمية، وهي أن الله تعالى يخلق أولا إنسانًا فينبهه أنه يحيا حيوانًا وناميًا وغير ذلك، لا أنه خلق أولا حيوانًا، ثم يجعله إنسانًا، فخلق الأنواع هو المراد الأول، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها».[2] ثم يعقب على كلام الرازي قائلاً:

---

(١) سورة الروم: آية ٢٠

(٢) هذا التحليل من الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره لآية سورة الروم يدل على خطأ ما يذكره بعض أنصار التطور الإلهي مثل د. عمرو شريف من أن علماء المسلمين لم يكن لديهم أصلاً التصور والإدراك الكافيين لمعرفة مفهوم الخلق عن طريق التطور من نوع إلى نوع، لهذا فهم لم يفسروا أو يؤولوا آيات الخلق لتدل عليه، لكن بعد أن عرفنا بوجود مفهوم التطور فيمكننا أن نوجه معاني آيات الخلق إليه (عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٣٥٠). فهذا التحليل من الفخر الرازي يبطل هذا الزعم ويدحضه تمامًا، فهو ذكر مفهوم ارتقاء الأنواع من مرتبة إلى مرتبة ونفاه وفنده مما يدل على أن مفهوم تطور الأنواع أو ارتقائها ليس مما كان يعسر على الفهم والتصور والإدراك عند العلماء المسلمين قبل داروين.

«فهذا تصريحٌ بأن ذلك النص يفيد أن الإنسان كان تكوينه بطريق الخلق مستقلاً ابتداءً، لا بطريق النشوء كما تزعمون، وطريق الخلق هو الذي تعطيه ظواهر بقية النصوص، فاعتماد أتباع محمد عليه السلام في الاعتقاد عليه لا على النشوء، ولا يجوز لهم تأويل تلك الظواهر وصرفها عن معناها الظاهر إلا إذا قام دليل عقلي قاطع يدل على أن الله تعالى خلق الإنسان بطريق النشوء كما تزعمون "هيهات هيهات"، فعند ذلك يضطرون إلى تأويل ظواهر تلك النصوص كما هو القاعدة عندهم في التوفيق بين الدليل النقلي والدليل العقلي المتعارضين».(١)

فتأمل قوله (هيهات هيهات) عند الكلام عن الدليل القطعي على النشوء! فإنه فعلاً يستحيل كما قررنا من قبل لأننا لم نشاهد خلق الإنسان ولا خلق أي نوع من الكائنات الحية ولا نشوء نوع من نوع ولا مثيل ولا نظير لذلك، وخبر الوحي جاء بخلاف ذلك، فأي متمسك لمسلم في النشوء والارتقاء إذن؟!

بل إننا لو شهدنا نشوء إنسان من سلف سابق من خلال تجربة معملية مثلاً لما كان هذا دليلاً على صحة نظرية التطور بالشكل الذي يدعونا إلى تأويل آيات خلق آدم عليه السلام؛ لأن قصارى ما تدعو إليه هذه التجربة هو جواز واحتمال نشوء الإنسان عن طريق التطور، لا وقوع ذلك فعلاً. فها هو أحد صناديد الداروينية جيري كوين يعترف في أحد حواراته المرئية على الشبكة أننا حتى لو توصلنا لاستنساخ الخلية الأولى في المعمل، فإن هذا لا يعني أن هذه هي الكيفية التي نشأت بها

(١) حسين الجسر، الرسالة الحميدية، ص٢٩٦

الحياة، بل مجرد أنها يمكن أن تنشأ بشكل طبيعي.[1] وجديرٌ بالذكر أن مجرد الاحتمال أو الجواز أو الإمكان لا يوجب الوقوع الفعلي، وبالتالي فلا متمسك للقوم في تجربة كهذه كداعٍ يوجب تأويل آيات خلق آدم إلى معنى التطور والنشوء من أسلاف سابقين.

ورغم أن الشيخ حسين الجسر يضع افتراضًا بوجود الدليل القطعي في يوم ما على النشوء، ويحاول أن يصوغ تأويلات مناسبة لنصوص الوحي للتوفيق بينها وبين التطور إلا أنه يعود فيقول: «وأعيد تحذيركم من الوقوع في الغلط بظن الأدلة الظنية أنها يقينية، فحرروا الدليل واستوضحوا السبيل».[2] ولا ينقطع عجبي ممن يقرأ كلام الشيخ حسين الجسر رحمه الله ويريد أن يصور مذهبه على أنه يقف على الحياد من نظرية داروين، كصنيع ابنه الشيخ نديم الجسر في كتابه (قصة الإيمان) وكذلك د. عمرو شريف في كتابه (كيف بدأ الخلق) حيث سعى الاثنان لتصوير هذه القواعد المنهجية التي أصلها الشيخ حسين الجسر على أنها تفتح الباب على مصراعيه للجمع بين الخلق والتطور، بينما هي تؤسس أساسًا عقليًا وشرعيًا متينًا للإيمان بالخلق المباشر ورفض نظرية داروين، وأن وضع الشيخ لاحتمال ورود الدليل القطعي لم يأت إلا مصحوبًا باعتقاده أن ذلك دونه خرط القتاد وهيهات هيهات! والتحذير من الغلط بظن الأدلة الظنية أنها يقينية. من أين جاء لأي بشر يقرأ هذا الكلام أن يتصور أن التطور الدارويني سيأتي عليه يوم ويكون ثابتًا يقينيًا قطعيًا وعندها سيكون لازمًا علينا

---

(١) مقطع لحوار مع التطوري الشهير جيري كوين بخصوص أصل الحياة والخلية الأولى، على الرابط الآتي:

facebook.com/WwwEltwhedCom/videos/1104365686260471

(٢) حسين الجسر، الرسالة الحميدية، ص٢٩٧

تأويل النصوص؟! ها هو ريتشارد دوكينز الملحد التطوري الشهير يعترف أن التطور لا يمكن أن يكون حقيقة يقينية قطعية بالمعنى الفلسفي قائلاً: «يخبرنا الفلاسفة ذوو النفوذ أننا لا نستطيع أن نبرهن على أي شيء في العلم... أما العلماء فأفضل ما يمكنهم فعله هو أن يفشلوا في دحض الأمور وهم يبينون مدى سعيهم الشاق في محاولتهم».(١)

بل إن الشيخ حسين الجسر ينتقل في الرسالة الحميدية إلى نقد الأدلة التي قامت عليها نظرية النشوء موضحًا غرضه بأنه لا يهدف إلى إبطالها والرد عليها، بل بيان أنها ظنية لا يقينية، وأنه يكفيه فقط التشكيك في حجيتها وقوتها ليجعلها دون منزلة نصوص الوحي، «وقد آن أن أبين لكم أن أدلتكم التي ذكرتموها في كتبكم على النشوء وتوجيهاتكم له كل ذلك ظني، لا يضطر أتباع محمد عليه السلام إلى تأويل نصوص شريعتهم الظاهرة المعنى بأن وجود العوالم بطريق الخلق، ولا أريد أن أتصدى لمناظرتكم في إبطال ذلك والرد عليكم في كل ما قررتموه في إثبات تلك الدعوى... ولكن أريد أن أبين لكم أن معتمد أدلتكم على النشوء وتوجيهكم له لم يتجاوز الظن والتخمين، وبذلك كفاية لما هو غرضنا».(٢)

فيقول مثلاً رحمه الله عن الاستدلال بالأعضاء الأثرية على النشوء: «فاعلموا أن الدليل متى طرأ عليه الاحتمال، ولو كان احتمالاً بعيدًا، سقط به الاستدلال؛ أعني الاستدلال على اليقين، وهذا حكم لا ينكر عند كل العقلاء، ولا أخال أنكم تنكرونه.

---

(١) ريتشارد دوكينز، أعظم استعراض فوق الأرض، ترجمة وتقديم: مصطفى إبراهيم فهمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ج١ ص٤٣

(٢) حسين الجسر، الحصون الحميدية، ص٣٠١

إذا تقرر ذلك، فاعلموا أن استدلالكم بالأعضاء الأثرية على النشوء بأنها تدل على تغير الأنواع فتوافق مذهب النشوء ولا توافق مذهب الخلق هو استدلال لا نتيجة له إلا الظن، وليس من اليقين في شيء، لطروء الاحتمال فيه. إذ لقائلٍ أن يقول: ما المانع أن تلك الأعضاء الأثرية لها فائدة وفيها حكمة قد خفيت عليكم كما خفي عليكم فوائد أشياء كثيرة توجد في أجسام النباتات والحيوانات كما يظهر من مراجعة كتب الفاثولوجية؟ مثلاً هذه المادة الملونة في جسد الحيوان مجهولة الفائدة في أكثر أجزاء الجسد إلا في المقلة، فالحكمة منها في المقلة امتصاص أشعة النور الزائدة، وأمثال ذلك كثير. فأنتم لم تحيطوا علمًا بفائدة كل كائن حتى تجزموا بأن تلك الأعضاء الأثرية لا فائدة لها البتة».[1]

ويقول في الاستدلال بالسجل الجيولوجي: «ما المانع من أن أول ما وجد في طبقات الأرض أدنى النبات وأدنى الحيوان ثم أوجد الله تعالى ما هو أرقى منهما، مستقلاً كل نوع منه، ليس ناشئًا عن نوع من أنواع ذلك الأدنى، ثم أباد الأدنى لأسباب كونية من نحو أن الدور الزماني لم يبق مناسبًا له وإنما يناسب ما وجد بعده، أو أن الأرقى تغلب عليه، أو غير ذلك من الأسباب، ثم بعد دور آخر أوجد ما هو أرقى من الثاني مستقلاً كل نوع منه أيضًا غير ناشئ عما قبله، ثم أباد الثاني لأسباب أخرى كونية كما تقدم، ثم بعد دور آخر أوجد ما هو أرقى من الثالث مستقلاً كل نوع منه أيضًا ثم أباد الثالث، وهكذا الحال حتى وصل الدور إلى أنواع النبات والحيوان الموجودة الآن مستقلة أنواعها غير ناشئة عما قبلها، وقد أباد ما قبلها بمثل تلك الأسباب فبقيت أحافيرها وآثارها في طبقات الأرض، وإذا كان هذا الاحتمال قائمًا

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠٥

فأين اليقين في استدلالكم على الترقي والنشوء فيما أظهرته اكتشافاتكم الجيلوجية؟ وبهذا الاحتمال لا تخالف تلك الاكتشافات مذهب الخلق».[1]

ويقول في الاستدلال بالتشابه الشكلي بين الإنسان والقرد: «وقولكم إنه بمقتضى مشابهته للقرد لا يمتنع أن يكون قد اشتق هو وإياه من أصل واحد شبهة غاية في السقوط؛ لأن المشابهة الصورية لا توجب هذا الأمر ولا تقتضيه كما هو ظاهر، وإن قلتم: نعم هي لا توجبه، ولكن لا أقل من أنها تحدث الظن به، قلت: إن أتباع محمد عليه السلام لا يعتمدون الظن في باب الاعتقاد، ولا يعتبرونه معارضًا لظواهر نصوص شريعتهم».[2]

ثم تأمل معي عزيزي القارئ هذا الجواب البديع الذي خلب لبي وأطار عقلي عندما قرأته، وما زلت حتى الآن لا أصدق أنه قد صدر من عالم شرعي مسلم عام ١٨٨٨ قبل اكتشاف الجينات وكيفية انتقال الصفات الوراثية والحوض الجيني للنوع البيولوجي والحواجز بين الأنواع، وهو للشيخ حسين الجسر رحمه الله في معرض جوابه عن استدلال التطوريين بالتطور الصغير (داخل النوع الواحد) على حدوث التطور الكبير (من نوع إلى نوع)، أو حسب تعبير ذلك الزمان ناموس التباينات، أي: تباين واختلاف الأبناء عن الآباء وكذلك الآباء عن الأجداد بشكل تدريجي، وأن هذا مع مرور الزمان الطويل يؤدي إلى نشوء نوع جديد مختلف عن النوع الأصلي، فيقول رحمه الله: «ما المانع من أن تباين الفروع للأصول الذي اعتمدتم عليه في تغير النوع وتحوله إلى غيره على طول الزمان يكون محدودًا بمقدار لا يخرج النوع إلى نوع

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠٧-٣٠٨

(٢) المصدر السابق، ص٣١٥

آخر، وبذلك المقدار تتم فائدةِ التمايز بين الأفراد، فيمكن أن الله قد جعل فروع الفرد الأول من النوع تباينه في صفات، وفروع الفروع تباين أصولها أيضًا وهكذا إلى حد محدود من سلسلة النسب يجري في ملايين من الأفراد والصور إلى درجة لا يخرج بها النوع إلى نوع آخر، ثم يكر سبحانه على الفروع فيعطيها صور أجدادها السابقة وهكذا حتى يتم الدور الثاني لاستيفاء الفروع صور الجدود، ثم يعيد ذلك العمل في الفروع التي تجيء بعد ذلك وهكذا حتى ينقضي هذا النوع أو ينقضي هذا العالم، وربما يتبرهن هذا الحال للأجيال الآتية بعدنا إذا وصلت لأيديهم صور من الصور الشمسية لأهل هذا الزمان، ثم قابلوا بينها وبين فروعها التي تكون في أيامهم، فيظهر لهم تكرار صور الأجداد الظاهرة للنظر في فروعهم، ثم نقول: إذا تصورنا ما يحدث من تكاثر الصور والأشكال بسبب أدنى تغير بين الفروع وأصولها نجد أن الصور تتكاثر كثيرًا في الكيفية التي قررناها ولا تخرج النوع ولا تحيله إلى نوع آخر لأنها محدودة كما فرضنا».[١] ثم يقول: «والملخص أن هذا الناموس وهو التباين غير المحدود على زعمكم وإن كان جائزًا عقلاً والتغير به جائز أيضًا، وكل داخل تحت تصرف القدرة الإلهية، ولكن وقوع ذلك الناموس مظنون غير يقيني، فحصول نتيجته وهو تغير الأنواع إلى بعضها يكون مظنونًا، فأتباع محمد عليه السلام لا يعبؤون بهذا الناموس ولا يعتبرونه منتجًا للنشوء، فلا يضطرون إلى تأويل ظواهر نصوص شريعتهم الدالة على الخلق، ووجود الأنواع مستقلة، بل يدومون على اعتقادهم بأنها وجدت بالخلق، إلا إذا فرض قيام دليل يقيني قاطع يدل على خلافه، "وهيهات

(١) المصدر السابق، ص٣١١-٣١٢

هيهات"، فحينئذ يجرون على القاعدة المتقدمة في التأويل للتوفيق بين الدليل العقلي والنقلي».[1]

ومعنى كلامه رحمه الله أنه ما المانع من كون هذه الاختلافات الظاهرية المورفولوجية محدودة داخل النوع الواحد، لكن كثرتها وغزارتها تجعلنا نعتقد أنها غير محدودة ونظن أنها يمكنها تجاوز النوع الواحد إلى إنشاء أنواع أخرى مختلفة تمامًا؟ وهذا بالفعل ما ثبت علميًا بعد ذلك عند اكتشاف الجينات وكيفية انتقال الصفات الوراثية وأنها عبارة عن صفات محدودة في النوع الواحد وليس غير محدودة، فسبحان الله!

وأختم هذا المقال بنقل كلام الشيخ حسين الجسر رحمه الله في ختام جوابه على أدلة مذهب النشوء والارتقاء:

«فهذا ما أردت الآن إيراده عليكم، وهو كاف في بيان أن دلائلكم في النشوء ظنية لا تعارض نصوص الشريعة المحمدية، وقد رأيت أخصامكم قد خاضوا معكم في أبحاث لا حاجة لنا فيها، فأنكروا عليكم تغير الأنواع، وقمتم تبرهنونه حتى بتغيرها الصناعي، وأنكروا وجود الحلقات بين نوع ونوع آخر تزعمون أنه نشأ عنه، فقلتم: إن الحلقات قد وجدت في البعض، ومنيتم أنفسكم بأنها سوف توجد بالاكتشافات الجيلوجية في الباقي، وكل ذلك خبر يحتمل الصدق والكذب، فمن منا رافق الجيلوجيين في اكتشافاتهم وشهد تلك الحلقات؟ فسبحان العليم بحقيقة الأمر، على أنه لو ثبت فلا يزال الاحتمال حاصلاً في أنها أنواع مستقلة كما قدمنا، فبقيت أدلتكم

(١) المصدر السابق، ص٣١٣

مظنونة، فبالاختصار لا داعي لنا إلى الخوض معكم فيما خاضت فيه أخصامكم، ويكفينا ما قررناه لاعتماد ظواهر النصوص الشرعية، ولو أردنا الخوص معكم في ذلك لأريناكم قيمة تلك الأدلة التي اعتمدتموها، وأظهرنا لكم أن أساسها الوهم وأركانها الفروض، وإن وفق الله تعالى كتبت في ذلك الموضوع ما يشفي الغليل».[1]

(١) المصدر السابق، ص٣١٧

التصور المشوه لصفة الحكمة الإلهية

تعتمد فئة كبيرة من أدلة التطور على الزعم بوجود عيوب في تصميم وتركيب الكائنات الحية مما لا يتفق مع كونها من خلق إله حكيم عليم خبير، من هذه الأدلة وجود الأعضاء الأثرية الضامرة والانتكاسات التطورية والحمض النووي عديم الفائدة. يتم طرح هذه الأدلة على أنها تمثل البرهان على كون الخلق لا يتصف بالدقة والإحكام والكمال، وبالتالي فهو أقرب إلى أن يكون نتاجًا للعشوائية المتمثلة في نظرية التطور عن أن يكون من صنع الخالق الحكيم العليم القدير. وهذه النوعية من الأدلة هي الأقوى في الدلالة على التطور من وجهة نظر الداروينيين، يقول التطوري الشهير ريتشارد دوكينز: «ستيفن جولد في بحثه الممتاز عن "إبهام الباندا" يوضح الرأي بأن التطور يمكن دعمه بصورة أقوى بأدلة من أوجه العيب الكاشفة هذه أكثر مما بأدلة من أوجه الكمال».[١]

أولاً: الأعضاء الأثرية:

الدليل الأول من هذه الفئة هو عن ما يسمى بالأعضاء الأثرية vestigial organs ويصفها بأنها أعضاء ضامرة ليس لها وظيفة أو استخدام لكن لها وظيفة في أسلافها التطوريين، فوجود هذه الأعضاء التي بدون فائدة أو وظيفة دليل على أنها موروثة من سلف سابق! وهذا دليل معروف يستخدمه التطوريون لأجل نفي وجود الحكمة والتصميم الحكيم في خلق الكائنات وبالتالي نفي خلقها عن طريق إله قادر

---

(١) ريتشارد دوكينز، الجديد في الإنتخاب الطبيعي، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢، ص١٣٢

عليم حكيم؛ يقول التطوري المشهور دوجلاس فوتوياما: «نجد أن عظام طائر الدودو الذي لا يطير والبطريق هي أيضًا مجوفة، وكأنها معدة للطيران وأن (حيوان) الخلد وسمندر الكهف لهما أيضًا عدسات وشبكية لا وظيفة لهما، ولكل كائن مثل هذه السمات من الأعضاء التي لا وظيفة لها والتي يمكن أن تكون فقط بقايا من تكيفات في الماضي، لماذا يوجد لدينا ما يسمى بضروس العقل، إلا إذا كان فكنا قد أصبح أصغر، حتى إن أسنان أسلافنا لم تعد تلائمنا؟ ولماذا لا بد لنا، مثل الرئيسيات الأخرى لكن تختلف عن أغلب الفقاريات الأخرى، نحتاج لفيتامين ج في وجباتنا، إذا لم يكن ذلك نابعًا من أن أسلافنا حصلوا على ما يكفيهم من فيتامين ج في وجباتهم من الفاكهة؟ فهل نجد هنا دليلاً على تصميم عاقل؟».(١)

فوتوياما يسأل مستنكرًا عن الأعضاء الأثرية عديمة الوظيفة هل تدل على تصميم حكيم؟ فهي تدل -عنده- على انعدام التصميم، وبالتالي إثبات التطور القائم على العشوائية، ثم يأتي بعض المسلمين ليتبعه في استدلاله لنفي التصميم ونفي الحكمة الإلهية بزعم خلق أعضاء بلا وظيفة. يقول د. عمرو شريف عن الأعضاء الأثرية والتي يضعها ضمن الأدلة على حدوث التطور: «هي أعضاء موجودة بشكل ضامر وليس لها استخدام في بعض الكائنات الحية، ولكن لها وجود ووظيفة في الكائنات القريبة منها. مثال ذلك العضلات المسئولة عن حركة صوان الأذن، فقد فقدت وظيفتها (بالرغم من وجودها) في الإنسان بينما ما تزال تعمل في الشمبانزي».(٢)

---

(١) دوجلاس فوتوياما، العلم قيد المحاكمة، ترجمة أحمد فوزي، مراجعة فتح الله الشيخ، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص٣١٨-٣١٩

(٢) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص١٧٢

ويقول في موضع آخر بعبارات أكثر صراحةً: «وإذا كان يمكن إرجاع كل أشكال التشابه بين الكائنات إلى التصميم المشترك أو الأصل المشترك، فلا شك أن وجود "التشابه" بين كائنين مع وجود "أعضاء ضامرة" في أحدهما مشابهة لأعضاء عاملة في الكائن الآخر يرجح بشكل قوي مفهوم السلف المشترك. فإذا أرجع الخلقويون التشابه بين الإنسان والشمبانزي مثلاً إلى التصميم المشترك فعليهم أن يفسروا لماذا خلق الإله العضلات الضامرة في صوان أذن الإنسان والتي تشبه العضلات العاملة في الشمبانزي، هل هذا التشابه من باب الرغبة في خداع الإنسان كما يقول بعضهم أم لاختبار قوة إيماننا كما يقول آخرون؟! [التأكيدات من عند المؤلف]»(١) وهذا كلام غاية في الغرابة؛ فهل إذا جهلنا وظيفة أحد أعضاء الجسم ولم نعلم الحكمة من خلقه، كان هذا يقتضي أنه عديم الفائدة والوظيفة والحكمة، وبالتالي يدل على أنه نشأ عشوائيًا من الأصل المشترك؟! ألا يرى د. عمرو أن السؤال يتوجه له كذلك بصفته يؤمن بأن الله هو خالق الإنسان بما فيه من أعضاء "أثرية"؟ أم أن له وجهة نظر مختلفة عن سائر المسلمين في هذا الخصوص؟

ولا ينفرد د. عمرو شريف بهذا التصور المشوه لصفة الحكمة الإلهية، فها هو د. صلاح عثمان الأستاذ بكلية الآداب بجماعة المنوفية يقول: «يكشف علم التشريح المقارن عن وجود أعضاء أثرية Vestigial organs –لا فائدة لها– في عدد من الكائنات الحية الموجودة حاليًا، في حين تحتوي أقاربها على هذه الأعضاء في صورة كاملة وتؤدي وظيفة ما. وتمثل هذه الأعضاء دليلاً مقنعًا على حدوث التطور، إذ لا يمكن تفسير وجودها إلا بأنها جزء من تصميم عام كان موجودًا في الأسلاف ولم يختف تمامًا بالرغم من أنها قد أصبحت عديمة الفائدة».(٢)

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠٢

(٢) د. صلاح عثمان، الداروينية والإنسان – نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف – الأسكندرية، ٢٠٠١، ص٤٩

وأكثر منه صراحةً في انتقاص الحكمة الإلهية كلام د. كريم حسنين أستاذ أمراض النساء والتوليد بكلية الطب بجامعة عين شمس في قوله: «الزائدة الدودية في الإنسان لا تقوم بوظيفة محددة وهي أثر (vestige) لعضو مكتمل التطور وموجود في الثدييات الأخرى، مثل الأرنب وآكلات العشب الأخرى، حيث يقوم المصران الأعور المتضخم وهذه الزائدة باختزان مادة السليولوز النباتية حتى يمكن هضمها بمساعدة الباكتيريا. إن هذه الآثار أمثلة للقصور عن الكمال والتي تدفع وتبرهن على عدم حدوث الخلق المباشر خلال التصميم أو التخطيط، بينما يمكن في المقابل إدراك ماهيتها كليًا كنتيجة للنشوء».(١)

أمثلة للقصور عن الكمال وعدم حدوث الخلق المباشر من خلال التصميم أو التخطيط!! وهل يمكن أن يعتقد المسلم أن الله يخلق خلقًا بلا حكمة ولا وظيفة ولا غاية ولا هدف حتى لو كان خلقًا غير مباشر؟ أو أن يخلق الله عبثًا واعتباطًا؟ بل المسلم ينفي وجود أعضاء أو تراكيب حيوية بلا وظيفة، فكل عضو له وظيفة علمناها أو لم نعلمها، وتقدم العلم يكشف باستمرار هذه الوظائف التي كنا نجهلها في الماضي أو ما زلنا نجهلها، بل لو استجاب العلماء للأحكام التي يصدرها التطوريون بخصوص وظائف الأعضاء لما سعوا لمعرفة هذه الوظائف ولتوقف تقدم علم الأحياء بالكامل، بل إن هناك علمًا كاملاً اسمه علم وظائف الأعضاء physiology مختص بدراسة الأعضاء ووظائفها، فهل سيكون هناك فرصة لتقدم هذا العلم وتنميته في ظل فلسفة علمية تؤمن بأن هناك من الأعضاء ما ليس له وظيفة، بل هو مجرد نفايات باقية من

(١) د. كريم حسنين، الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية ٢٠٠٢، ص١٣١

أسلاف سابقين؟! يقول البروفيسور ديفيد منتون: «مما لا شك فيه أن عقيدة التطوريين فيما يتعلق بالأعضاء الأثرية قد تدخلت بالسلب في تقدم مسار العلم التجريبي . فقط عندما تجاهل العلماء دعاوى التطوريين صار لديهم القدرة على تعيين وظائف ما كانت يومًا ما أعضاءً أثرية مثل الغدة الجاردرقية والغدة التيموسية والجسم الصنوبري والغدة النخامية والغدة الكظرية».(1)

ومن أفضل ما قيل في الرد على الاحتجاج بالأعضاء الأثرية كدليل على وقوع التطور قول العلامة حسين الجسر رحمه الله: «فاعلموا أن الدليل متى طرأ عليه الاحتمال، ولو كان احتمالاً بعيدًا، سقط به الاستدلال؛ أعني الاستدلال على اليقين، وهذا حكم لا ينكر عند كل العقلاء، ولا أخال أنكم تنكرونه. إذا تقرر ذلك، فاعلموا أن استدلالكم بالأعضاء الأثرية على النشوء بأنها تدل على تغير الأنواع فتوافق مذهب النشوء ولا توافق مذهب الخلق هو استدلال لا نتيجة له إلا الظن، وليس من اليقين في شيء، لطروء الاحتمال فيه. إذ لقائلٍ أن يقول: ما المانع أن تلك الأعضاء الأثرية لها فائدة وفيها حكمة قد خفيت عليكم كما خفي عليكم فوائد أشياء كثيرة توجد في أجسام النباتات والحيوانات كما يظهر من مراجعة كتب الفاثولوجية؟ مثلاً هذه المادة الملونة في جسد الحيوان مجهولة الفائدة في أكثر أجزاء الجسد إلا في المقلة، فالحكمة منها في المقلة امتصاص أشعة النور الزائدة، وأمثال ذلك كثير. فأنتم لم

(1) David N. Menton, The plantaris and the question of vestigial muscles in man, CEN Technical Journal 14(2) 2000.

تحيطوا علمًا بفائدة كل كائن حتى تجزموا بأن تلك الأعضاء الأثرية لا فائدة لها البتة».[1]

لكن هنا يجب أن نستدرك على وصف د. عمرو شريف وغيره للأعضاء الأثرية بأنها ليس لها استخدام أو وظيفة، فهذا الوصف ليس في محله وهو خطأ من جانب الدكتور، يقول جيري كوين: «النظرية التطورية لا تقول إن الخصائص الأثرية ليس لها وظيفة بالضرورة. فيمكن لصفة أن تكون أثرية ووظيفية في نفس الوقت. إنها أثرية ليس لأنها لا وظيفية، بل لأنها لم تعد تقوم بالوظيفة التي تطورت لأجلها. فجناحا النعامة مفيدان، لكن هذا لا يعني أنهما لا يقولان شيئًا عن التطور. ألن يكون غريبًا لو ساعد الخالقُ النعامَ على موازنة أنفسهم بإعطائهم لواحق يصادف تمامًا أن تبدو مثل الأجنحة الضامرة، ومبنية بنفس الطريقة بالضبط التي للأجنحة المستخدمة للطيران؟».[2] فهنا كوين ينكر على من يقولون إن الأعضاء الأثرية لا بد أن تكون بلا وظيفة، ويرى أنها قد تكون أثرية وذات وظيفة في نفس الوقت، لكنها غير وظيفتها الأصلية، ويضرب مثلاً بأجنحة النعام، فهو طائر لا يطير لكنه يستخدم أجنحته في حفظ توازن الجسم أثناء الركض، فهنا صارت الأجنحة تستخدم في وظيفة أخرى غير وظيفتها الأصلية التي هي الطيران. ويستخدم د. كريم حسنين نفس المنطق في الرد على أورخان محمد علي في نقده لهذا الدليل على التطور قائلاً: «هذا الدفع بأن وجود فائدة لهذه الأعضاء يعارض التطور مثال على عدم الموضوعية والإفراط في الاستدلال، وبصورته المعروضة لا ينفي حدوث التطور بل على العكس قد يعضد

(١) حسين الجسر، الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية، ص٣١٣-٣١٤

(٢) جيري كوين، لماذا التطور حقيقة، ص٧١

حدوثه حيث يقول التطوريون بأن فائدة الأعضاء تتغير للتأقلم مع نوعية حياة النوع الجديد».[1]

وهذا في الحقيقة تحايل بارع من كوين وسائر التطوريين تجاه كون الأعضاء المزعوم أثريتها لها وظيفة أو وظائف حيوية في الكائن الحي، لكنه لا يساعده كثيرًا لأن المؤمن بالخالق الحكيم لن يمثل له هذا أي مشكلة، فوجود نفس العضو في كائنات مختلفة بوظائف مختلفة لا يطعن في حكمة الخالق، بل بالعكس يدل على البراعة والإبداع، فمثلاً الكاتب إذا استعمل نفس الكلمة بمعانٍ مختلفة في سياقات مختلفة فإن هذا يدل هذا على براعته الشديدة وتمكنه الأدبي البالغ من أدواته البلاغية، كذلك الخالق تبارك وتعالى إذا جعل لنفس العضو وظائف مختلفة في كائنات مختلفة فهذا يدل على تمام الحكمة وكمال الإبداع ولا يطعن إطلاقًا في حكمته سبحانه بل يبرزها.

ثانيًا: الانتكاسات التطورية:

أما الدليل الثاني فهو يحكي عن ما يسمى عند التطوريين بالانتكاسات التطورية atavisms وهي عودة ظهور صفة كانت في الأسلاف التطورية في أحد الأنواع على نحو شاذ، وأشهر مثال لها هو أرجل الحيتان، فإن «حوالي حوتًا واحدًا من كل خمسمائة يولد برجلين خلفيتين ناتئتين خارج جدار الجسد».[2] ويعتقد التطوريون أن سبب هذه الانتكاسات التطورية هو عودة جين أثرى خامل موروث من الأسلاف

---

(١) د. كريم حسنين، الخلق بين الداروينية العنكبوتية والحقيقة القرآنية، ص٢٠٠

(٢) جيري كوين، لماذا التطور حقيقة، ترجمة لؤي عشري، ص٧٦.

للعمل أو كما يقول جيري كوين: «لماذا تحدث تأسلات[1] كهذه على العموم؟ أفضل نظرياتنا أنها تأتي من عودة تعبير جينات كانت وظيفية في الأسلاف، لكنها أسكتت بفعل الانتخاب الطبيعي عندما لم يعد هناك حاجة لها. إلا أن هذه الجينات الخاملة يمكن في بعض الأحيان أن تستيقظ مجددًا عندما يسير شيء ما بشكل منحرف في التطور الجنيني. لا تزال الحيتان تحتوي بعض المعلومات الجنينية لعمل الأرجل، ليست أرجلاً كاملةً، حيث أن المعلومات قد أُفسدت خلال ملايين السنين التي كمنت فيها غير مستعملة في الجينوم، إلا أنها أرجل رغم ذلك. وتلك المعلومات هي هناك لأن الحيتان تحدرت من أسلاف رباعية الأطراف. كأحواض الحيتان التي في كل أفرادها، فإن أرجل الحيتان النادرة دليل على التطور».[2]

فخلاصة هذا الدليل عند أنصار نظرية التطور هو وجود جينات خاملة كامنة بدون وظيفة أو فائدة موروثة من الأسلاف الذين تطور منهم النوع، وهذه الجينات قد تنشط لسبب ما أثناء نمو الجنين فتظهر هذه الأعضاء القديمة لتدلل على الأصل التطوري للكائن الحي، ولهذا يعدها القوم دليلاً على التطور. ويوافق د. عمرو شريف على هذا الطرح مستدلاً بنفس المفهوم على وقوع التطور حيث يقول تحت عنوان الأدلة العلمية على حدوث التطور: «لقد احتفظ جنين الإنسان بالبراعم التي تشكل الأثداء المتعددة في باقي الثدييات، وبدلاً من أن تضمر كلها (باستثناء اثنين) نشط

(١) يترجمها لؤي عشري إلى تأسلات لأنه في العربية تأسل الولد أباه أي نزع إليه في الشبه، المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص٧٦-٧٧

بعضها عند وصول الفتاة لسن البلوغ، وكوّن ثديًا أو حلمةً زائدةً أو أكثر. كيف يدفع المعارضون لمفهوم الأصل المشترك هذا الدليل؟».[1]

يستعمل د. عمرو هذا الطرح الداروني رغم أن المؤمنين يعلمون ويعتقدون أن الله لا يخلق شيئًا إلا وله حكمة وغاية، ولا يخلق عبثًا أو اعتباطًا، وأن المسلم عندما يواجهه التطوريّ بهذا "الدليل" يقول إنه لا يوجد جينات غير وظيفية في الشريط الوراثي وأن الصواب هو أنها لها وظيفة نحن لا نعلمها بعدّ، وأن الكثير مما كان يوصف بأنه جينات أثرية بلا فائدة ثبتت فاعليته ووظيفته فيما بعد، وأن تقدم العلم باستمرار يكشف كل يوم المزيد عن الجينات غير معروفة الوظيفة. فنحن لا نقول بوجود جينات بلا وظيفة– بفرض ثبوت وجود هذه الجينات في حالة الانتكاسات التطورية– بل نقول إن لظهور هذه الأعضاء في أفراد معينة له حكمةً خفيةً عنّا، ونحن نعلم أن هذا قد يكون في الإنسان على سبيل الابتلاء والامتحان أو لغيرها من الأسباب، فما المانع عقلاً أن يكون لها حكمة بالغة في بعض أفراد الكائنات الحية الأخرى؟ هذا الفهم وهذا التفسير يتفق مع عقيدة المسلم واستيعابه الصحيح للحكمة الإلهية الواسعة وأنها تفوق حكمة وعلوم البشر، كما أن الفهم والتفسير التطوري يتفق واعتقاد الملحد في عدم وجود حكمة أو غائية أو إله قادر عليم حكيم. فكيف للمسلم أن يتبنى الفهم والاستدلال الإلحادي لإثبات وقوع التطور؟ الملحد ينطلق من مقدمات وفرضيات فلسفية معينة وهي أنه لا خلق ولا حكمة ولا نظام، فجاء تبريره لظهور بعض الأعضاء الشاذة في بعض أفراد الكائنات الحية موافقًا للمقدمات والفرضيات التي انطلق منها، ألم تلاحظ قول كوين في الاقتباس السابق «لماذا تحدث

---

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص١٧٢

تأسلات كهذه على العموم؟ أفضل نظرياتنا أنها تأتي من ...[التأكيد من عندي]»؟؟ وهل يصح أن نتبع افتراضًا نظريًا ليس علمًا يقينيًا قطعيًا ونحتج به فضلاً عن مخالفته لتصورنا الإسلامي عن حكمة الله عز وجل؟ أما المسلم فينطلق من مقدمات مختلفة تمنعه من تبني التفسير الإلحادي وتمنعه من استعماله أو الاحتجاج به، خصوصًا أن هذا التفسير في حقيقة الأمر مجرد افتراض نظري أو محاولة للتفسير بناءً على مقدمات فلسفية معينة تتعارض بشدة مع عقيدة المسلم.

ثالثًا: المادة الوراثية عديمة الفائدة:

الدليل الثالث من هذه النوعية هو ما يسمى بالمادة الوراثية عديمة الفائدة Junk DNA وهي -حسب التطوريين- عبارة عن بقايا وفضلات أثرية من الأسلاف في الشريط الوراثي ليس لها وظيفة ولا فائدة، ويعتبرون وجودها دليلاً على التطور من أسلاف سابقة، كما يقول د. عمرو شريف: «انظر إلى ما يعرف بـ"العناصر العتيقة المتكررة - Ancient Repetitive Elements (ARE)"، التي هي تتابع من القواعد الناشزة التي زرعت نفسها بين الجينات في أماكن مختلفة من الكروموسومات عبر التاريخ السحيق دون أن تقوم بوظيفة محددة. إن هذه العناصر العتيقة موجودة في شفرتي الإنسان والفأر في نفس الأماكن وبنفس التتابع! (شكل: ١). ليس الأمر كذلك فقط، بل لقد وجدت تشوهات في هذه العناصر Truncated ARE بنفس الشكل وفي نفس الموضع في جينوم كل من الإنسان والفأر. ليس هناك تفسير لهذا التطابق إلا أن تكون هذه العناصر قد زُرعت وأن يكون ما أصابها من تشويه قد تم في السلف المشترك لكل من الإنسان والفأر، ثم انتقل إلى كل منهما. هذا بالطبع

إذا ما استبعدنا ما يقوله كثير من الخلقويين من أن الخالق يتعمد خداعنا ليوهمنا بحدوث التطور ليختبر إيماننا!! [التأكيدات من المؤلف]».[1]

فالدكتور يرى أنه توجد أجزاء كبيرة من المادة الوراثية بلا وظيفة ولا فائدة ومتطابقة بين الإنسان والفار، وأن هذا دليلٌ على أنها نتيجة الانتساب إلى سلف مشترك. وهذه في الحقيقة حجة ضد حكمة الخالق وعلمه، وليست ضد مفهوم الخلق المباشر فقط! فهو تجنب الحجة المعتادة بأن تشابه المادة الوراثية في الجينات الوظيفية العاملة بين نوعين يقتضي اشتراكهما في أصل مشترك واحد، لأن الخالق الحكيم قد يوجد نفس الجينات الوظيفية أو الوحدات الوظيفية في كائنات مختلفة بدون أي إشكال. إنما قدم د. عمرو حجة جديدة –نقلها من الفصل التاسع لكتاب فرانسيس كولينز (لغة الإله)- مفادها أن وجود نوع من الحمض النووي يسمى العناصر المكررة القديمة يزعم أنه بلا وظيفة في كل من الإنسان والفأر يدل على صحة التطور والسلف المشترك بين الإنسان وغيره من الثدييات. وهذه حجة فلسفية ضد حكمة الله مقصودها أن هذه الاكتشافات لا تتفق مع صفة الحكمة الإلهية، فهل د. عمرو شريف يدرك الأبعاد العقلية والعقدية لهذه الحجة وهو ينقلها من فرانسيس كولينز بهذه الطريقة؟ وهل هناك من المؤمنين بالخلق المباشر من يعتقد أن الله يخلق مادة وراثية بلا فائدة ولا وظيفة أصلاً؟ وهل هناك منهم من يعتقد أن الله يخلق أدلة على التطور العشوائي في الشريط الوراثي؟!

لهذا نحن عندما نجيب عن هذه الدلالة المزعومة لهذه الأطروحة التطورية، نقول إن هناك فرقًا بين عدم معرفة الوظيفة ومعرفة عدم الوظيفة، فنحن نعود إلى فهمنا

---

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٢٩٠

الإسلامي لحكمة الله عز وجل ونقول إن ما لا نعلم الحكمة من خلقه يختلف عما نعلم انعدام الحكمة في خلقه، وأن التفريق مهم، ثم نقوم بحمل المتشابه الذي لا نعلم حكمته على المحكم الذي نعلم حكمته في خلق الإنسان وجميع الكائنات الحية. وفي هذا السياق نحمد الله تبارك وتعالى أن العلم لم يتوقف عند كلمة التطوريين الذي يصدرون الأحكام على الأعضاء والأنظمة الحيوية والأحماض النووية بأنها عديمة القيمة أو بقايا أثرية بلا فائدة، فما زال العلم يتقدم وينمو وما كان مجهولاً بالأمس صرنا نعلمه اليوم، وكثيرٌ من الأعضاء المتهمة بأنها دون فائدة وأجزاء الحمض النووي المحكوم عليها بعدم القيمة عرفنا الآن قيمتها وفائدتها ووظيفتها، وما زال قطار العلم يمضي نحو مزيد من الاكتشافات في هذا الباب.

فقد أدى تعاون ٤٤٠ عالمًا في ٣٢ معمل بحثي من مختلف دول العالم في العمل على ما يسمى بالمادة الوراثية عديمة الوظيفة إلى اكتشاف دورها في التحكم بالجينات المشفرة للبروتينات والسيطرة على عملها، وقد كانت في الماضي تعتبر خردة جينية لعب بها التطور لعبة العبث العشوائي خلال ملايين السنين فأصبحت بمثابة أحافير جينية وركام تطوري داخل الجينوم ليس له قيمة وظيفية! لكن الآن اتضح أنها تلعب أدوارًا محورية في التحكم في تصرفات الخلايا والأنسجة والأعضاء المختلفة، حيث يعتبر هذا الاكتشاف من الفتوحات العلمية الكبرى وسيكون له العديد من التطبيقات في مجال الطب تحديدًا.[1]

(1) Gina kolata, bits of mystery dna' far from junk ,play crucial role, New York Times, Sep.,6,2012
http://www.nytimes.com/2012/09/06/science/far-from-junk-dna-dark-matter-proves-crucial-to-health.html

أما بخصوص العناصر المكررة القديمة التي استشهد بها فرانسيس كولينز وتابعه عليها د. عمرو شريف، فإن العلماء قد اكتشفوا العديد من وظائفها قبل أن يكتب كولينز كتابه بفترة طويلة لكنه لم يطلع عليها، ويبدو للأسف أن د. عمرو كذلك لم يطالعها، ففي عام ٢٠٠٢ قام عالم الأحياء ريتشارد ستيرنبرج Richard Sternberg بإحصاء الأوراق البحثية العلمية التي تناولت هذا الموضوع، ووجد أدلة متكاثرة على الوظائف التي تقوم بها العناصر المتكررة القديمة AREs وتشمل نطاقًا واسعًا من المهام المحورية داخل الخلية.(١) وبهذا لا يكون لهذه الحجة الفلسفية ضد حكمة الله أيّ محلٍ من الصحة، فكون هذه الجينات أو المادة الوراثية لها وظيفة وفائدة وتقوم بمهام داخل الخلية يزيل أي إشكال في تشابهها أو تطابقها في الأنواع المختلفة طالما أن كل هذه الأنواع بحاجة إلى هذه الوظائف والمهام، وبالتالي فالله خلق هذه الجينات في كل هذه الأنواع لأجل القيام بهذه الوظائف سواء علمناها أو لم نعلمها، فلا يجوز أن نعترض على حكمة الله من منطلق الجهل بالحكمة.

حجة فلسفية لاهوتية:

بعيدًا عن كون هذا النوع من الاحتجاج هو في حقيقته احتجاج بجهل الحكمة، ومن المقرر أنه لا يجوز الاعتراض على الحكمة من منطلق الجهل بالحكمة، بعيدًا عن هذا فأنا أود أن أشير إلى مسألة هامة في هذا المقام؛ وهي أن الاحتجاج بالأعضاء الأثرية أو بالمادة الوراثية عديمة القيمة ليس حجة علمية أو برهان علمي في الحقيقة، بل هو احتجاج فلسفي ميتافيزيقي مبني في جوهره على تخيل وافتراض كيفية تفكير الخالق، وحجتهم في حقيقتها تعتمد على وجود تصور معين لديهم لكيفية تفكير

(1) Sternberg, R. v. (2002). The roles of repetitive DNA elements in the context of a unified genomic/epigenetic system. In "From Epigenesis to Epigenetics: The Genome in Context," L. van Speybroek, G. van de Vijver, and D. De Waele (eds.), Ann. NY Acad. Sci. 981: 154–188.

الخالق أو حكمته عز وجل، وبناءً على هذا التصور المشوه قامت لديهم هذه الحجة. فهذا المسلك في الاحتجاج في الحقيقة ليس مسلكًا علميًا تجريبيًا، وإنما هو أقرب للحجج الفلسفية اللاهوتية التي تعتمد على تصورات معينة للخالق وصفاته.

المفترض في العلم الطبيعي المحايد أن يقوم بالإتيان بالأدلة على نظرياته من الطبيعة ووقائعها، وأن يقوم باختبارها عن طريق التجارب العلمية، لكن هؤلاء القوم يستدلون على صحة الداروينية بحجة فلسفية لاهوتية تحكي عن تصور معين لصفات الخالق الذي خلق الكائنات الحية. وهذا مسلك لا يمكن أن نصفه بأنه مسلك علمي، فهل هناك من يستعمل هذا المسلك في الاحتجاج في أي علم من العلوم ما عدا الداروينية؟! هل سبق مثلاً لأحد الجيولوجيين أن احتج لنظرية انجراف القارات بأنه "ما الذي يجعل الخالق يخلق الساحل الغربي لأوروبا وأفريقيا ملائمًا بهذا الشكل للساحل الشرقي للأمريكتين؟!" أو لأحد الفيزيائيين أن احتج لقانون الجاذبية بأنه "ما الذي يجعل الخالق يسقط التفاحة من الشجرة إلى الأرض؟!" لهذا نجد بعض المؤيدين للداروينية مثل البيولوجي الكندي ستيفن سكادينج Steven Scadding يرفض هذا المسلك في الاحتجاج لأنه غير علمي قائلا: «بغض النظر عن صحة هذا الادعاء اللاهوتي من عدمه، فإنه بل تأكيد لا يمكن الدفاع عن عنه كحجة علمية، والواجب ألا يكون له أي محل في النقاش العلمي حول التطور».(1) ألا يدعونا الاستدعاء المتكرر والمكثف لهذا المسلك في الاحتجاج للتفكير في أن الداروينية في حقيقتها فلسفة مادية محضة تسعى لأن تكون بديلاً للخلق الإلهي، وأنه إن جاز

---

(1) Steven R. Scadding, "Vestigial organs do not provide scientific evidence for evolution," Evolutionary Theory 6 (1982): 171–173

توقع هذا المسلك من ملحد مادي فإنه لا يجوز من مسلم مؤمن بخالقية الله تبارك وتعالى؟

داروين نفسه كان يصف كتابه عن أصل الأنواع بأنه «حجة واحدة طويلة».[١] مفادها أن وقائع الطبيعة «لا يمكن تفسيرها في ضوء نظرية الخلق» لكنها تلائم نظريته في التطور.[٢] في عام ١٩٧٩ أشار المؤرخ نيل جلاسبي Neal Gillespie إلى أن كتاب (أصل الأنواع) كان «معتمدًا بشدة على اللاهوت» لأجل الدفع بحجته، وأن «الدفاع اللاهوتي لداروين عن التطور» كان مبنيًا على تصوره للخالق، وأن كتاب (أصل الأنواع) «لم يكتف بالإشارة مرات عديدة إلى هذا الخالق، بل الحجج اللاهوتية المبنية على هذا التصور كانت ذات أهمية في منطقه الكلي».[٣] وحسبما يرى عالم الفيزياء كورنيليس هانتر Cornelius Hunter فإن جوهر «الحجة الواحدة الطويلة» لداروين هو أن «التطور صحيح لأن الخلق الإلهي خطأ». شرع داروين في البداية بطرح تصور «كيف يفترض أن يخلق الله العالم» ثم وجد أنه لا يتفق ووقائع الطبيعة، «لكن عدم الاتفاق هذا يعتمد في كل جزئية على اللاهوت بقدر ما يعتمد على العلم».[٤] كذلك فيلسوف الأحياء بول نيلسون Paul Nelson يلاحظ أن «استعمال العديد من البيولوجيين والفلاسفة للحجج اللاهوتية لنصرة التطور» تعتبر «أمرًا ملحوظًا

---

(1) Charles Darwin, The Origin of Species by Means of Natural Selection (London: John Murray, 1859, p. 459

(2) Darwin, The Origin of Species, p. 437

(3) Neal C. Gillespie, Charles Darwin and the Problem of Creation (Chicago: The University of Chicago Press, 1979), pp. 124–125, 146

(4) Cornelius G. Hunter, Darwin’s God (Grand Rapids, MI: Brazos Press, 2001), pp. 48–49, 84, 158

في النظرية التطورية الحالية لكنه لم ينل حظه من الدراسة».[1] وأيضًا مؤرخ العلوم جريجوري راديك Gregory Radick يلخص الحجة المركزية للداروينية في الآتي: «لا يوجد مصمم يستحق مكانته سيخلق» هذه الخواص التي نراها في الطبيعة، ويقول: «سيكون من العسير أن نضخم من أهمية هذا الاحتجاج من أيام داروين حتى يومنا هذا كسبيل لدحض تفسير المصمم وإتاحة المجال للتطور الداروينى».[2]

الخلاصة:

أليس من العجيب بعد كل هذا أن يتم طرح هذه "الأدلة" بواسطة المسلمين المؤمنين بالتطور ليثبتوا لغيرهم أن التطور حقيقة يجب الإيمان بها وإتباعها، فهل يدركون اللوازم العقدية المترتبة على موافقة التطوريين في دلالة هذه الأدلة؟ وقد أحسن د. محمد فوزي جاب الله الأستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة بقوله: «كما لاحظ العلماء أيضًا أن جسم الإنسان البالغ يحتفظ ببقايا أعضاء لا يستعملها ولو استؤصلت لا يصيبه الضرر مثل الزائدة الدودية، وأن الطيور تحتفظ بجناح كاذب لا يستخدم في الطيران، والثعابين تحتفظ ببقايا عظام أطراف ضامرة وهكذا مما لا يمكن تفسير علة وجوده إلا على أساس أن تلك الأعضاء الأثرية أو الضامرة كانت كاملة النمو والوظيفة في الماضي البعيد ثم اعتراها الضمور بسبب عدم الاستعمال ولكنها

---

(1) Paul A. Nelson, “The role of theology in current evolutionary reasoning,” Biology and Philosophy 11 (1996): 493 – 517

(2) Gregory Radick, “Deviance, Darwininan Style,” Metascience (2005) 14:453–457

استمرت في الظهور جيلاً بعد جيل بالرغم من عدم الحاجة إليها.. ظاهرة غريبة لا نملك لها تفسيرًا مقنعًا حتى الآن ولا يملك العلماء إلا القول بأنها من صفات سلف مشترك قديم!!.. هكذا نجد في الخلق ألغازًا يحتار العقل في فهمها ويقف العلم عاجزًا عن تفسيرها وكل ما يستطيعه العلماء إزاءها هو التكهن والظن».[1] فهو لم يقبل التفسير الدارويني الإلحادي لهذه الظاهرة، وجعله من قبيل الظن والتخمين، وأن المسألة بجملتها من ألغاز العلم، وهو موقف شرعي وعقلي سليم يحمد عليه.

لكن الأمر المثير للتساؤل في هذا السياق هو موقف المسلمين الذين يروجون لنظرية التطور عن طريق طرح هذه النوعية من الأدلة ويوافقون التطوريين في دلالتها على التطور العشوائي الذي ليس فيه مكان للخالق العليم الحكيم الذي أتقن كل شيء صنعه. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(١) د. محمد فوزي جاب الله، التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامي، بدون دار نشر ١٩٩٢، ص٢٩

التناقض المعرفي

الأصل في التطور الداروني أنه وقع بصورة عشوائية عن طريق الطفرات في الجينات، ثم جاء دور الانتخاب الطبيعي ليهذب هذه الكائنات الناتجة عن الطفرات ليحفظ الطفرات النافعة ويهلك ما سواها، وكثيرٌ من الأدلة التي يسوقها أنصار التطور لإثبات نظريتهم هي أدلة على أن الكائنات تفتقر للكمال وللإحكام في الخلق ليدللوا على أنها لم تصدر عن خالق عليم حكيم، وهذه الأدلة من نوعية ظاهرة الأعضاء الأثرية (أي: التي كان لها وظيفة في الأسلاف المفترضة وليس لها فائدة في الكائن بصورته الحالية)، وكذلك ما يُعرف باسم ال(Junk DNA) وهو الحمض النووي الموجود في الكائن بلا غرض أو حكمة أو وظيفة أو غاية، وغيرها من الأدلة التي يشير بها الدارونيون لمسألة عدم الإحكام في الخلق وبالتالي فلا يوجد خالق عليم حكيم -من وجهة نظرهم طبعًا!

المقصود أن التفسيرات الدارونية لهذه الظواهر لا تتفق والاعتقاد بوجود إله متصف بالعلم والحكمة، ولا تتفق إطلاقًا مع الله وصفاته التي نزل بها الوحي علينا -نحن المسلمين- أو حتى على أهل الكتب السابقة، فهذا تناقض لا يمكن القبول به، وعلى المرء أن يختار بين هذا أو هذا.

أما من ينكرون المكون العشوائي فقط من نظرية التطور ويقبلون ما سواه، فهؤلاء عندما نسألهم لماذا يؤمنون أصلاً بنظرية التطور وما هي الأدلة على صحتها، يقدمون لنا نفس الأدلة التي تفيد -حسب التفسير الداروني- وقوع العشوائية وعدم الإحكام وافتقاد الغاية والحكمة في المخلوقات، فهذا خلل واضح في الأساس

الفكري لهذه الطائفة حيث ينفون العشوائية من التطور ثم يأتون بالأدلة التي تدل عليه في نفس الوقت، وهذا تناقض جليّ في البنية الفكرية والعلمية والمعرفية لهؤلاء القوم يحتاجون إلى التنبه إليه والسعي لتصحيحه، فلا يمكن الجمع بين وقوع التطور ووجود الله الخالق البارئ المصور العليم الحكيم أبدًا بهذه الصورة المتناقضة.

أبرز الأمثلة على هذا التناقض بين أنصار التطور الموجه هو د. عمرو شريف حيث نجده يصرح أنه يقبل التطور دون المكون العشوائي قائلاً: «ويقدم العلم الأدلة المقنعة على "مفهوم التطور" عن أصل مشترك (العنصر الأول)، أما ادعاء الداروينية أن "آلية" التطور هي الانتخاب الطبيعي من بين طفرات عشوائية (العنصرين الثاني والثالث) ففرضية تفتقد الدليل، فالعلم لا يستطيع أن يثبت عشوائية الطفرات وأنها ليست موجهة من قِبَل إله خالق!! بل أثبت العلم عجز العشوائية عن تقديم طفرات مفيدة، ومن ثم فنحن نرفض تلك الآلية. أي أننا نقبل التطور ونرفض الداروينية».(١)

ثم يستعرض في موضعٍ آخرٍ البراهين والأدلة على قصور العشوائية قائلاً: «ونحن.. نتبنى مفهوم "التطور الموجه" الذي يقبل أدلة العلم على حدوث التطور، ويرفض ادعاءات الداروينية بأن التطور كان عشوائيًا. وتعتمد استدلالاتنا على صحة هذا المفهوم على محورين أساسيين:

المحور الأول: إثبات خطأ الداروينية (التطور العشوائي)، وسنعالج ذلك فيما تبقى من هذا الفصل من خلال تناول ثلاثي يشتمل على:

---

(١) د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص١٨٠

أولاً: قراءة في سجل الحفريات كأحد أدلة الداروينية؛ نثبت فيها خطأ الادعاء بعشوائية التطور.

ثانيًا: إثبات عجز آلية التطور الدارويني (الطفرات العشوائية + الانتخاب الطبيعي) عن إحداث التنوع الهائل في الكائنات الحية.

ثالثًا: إثبات أن للتطور العشوائي حدودًا لا يستطيع أن يتجاوزها. فهو قادر على إحداث التطور الدقيق وغير قادر على إحداث التطور الظاهر.

بهذه الثلاثية ينهار مفهوم التطور الدارويني العشوائي وينفتح الطريق أمام القول بالتطور الموجه.

المحور الثاني: إثبات أن عملية خلق الحياة والكائنات الحية عملية شديدة التعقيد لا غنى فيها عن التصميم، ومن ثم تحتاج إلى المصمم الذكي الذي يقوم بتوجيه خلق الحياة وتطوير الكائنات [التأكيدات كلها من عند المؤلف]».[1]

فهذا تقرير ما بعده تقرير لنفي العشوائية وحشد الأدلة والبراهين ضدها. لكن لك أن تعجب عزيزي القارئ مع كل هذا أن الدكتور عند الرد على أتباع الخلق الإلهي المباشر يحتج عليهم بالأدلة العلمية على حدوث التطور التي تضم الانتكاسات التطورية والأعضاء الأثرية، وهي تهدف في الأساس لإثبات وقوع العشوائية وانعدام التصميم الحكيم في الكائنات الحية.[2]

---

(١) المصدر السابق ص١٨٨-١٨٩

(٢) انظر المقال السابق (التصور المشوه لصفة الحكمة الإلهية)

فحقيقة مذهب القوم أنهم ينفون الصدفة والعشوائية عند الرد على الداروينيين، ويثبتون الصدفة والعشوائية عند الرد على أنصار الخلق المباشر، وهذا تناقضٌ لا يستقيم منهجيًا ولا منطقيًا أبدًا. بل قد يصير التناقض صارخًا جدًا إذا كان في نفس المجلس كما في إحدى حلقات د. عمرو شريف مع د. محمد العوضي في برنامج (بيني وبينكم)[١] حيث تكرر طوال الحلقة إنكار د. عمرو للتطور الدارويني العشوائي، ورفض أن يقول عنه د. العوضي أنه يؤمن بنظرية التطور، بل يقول إنه يؤمن بالتطور فقط لأن نظرية التطور تحتوي على مكون عشوائي هو يرفضه ولا يقبله، ورغم ذلك عندما تكلم عن الرد على أنصار الخلق المباشر -الخلقويين بحسب تعبيره- استدل بوجود الأعضاء الأثرية مثل عضلات صوان الأذن وأنها بلا وظيفة وتساءل عن الغرض من وجودها! بل إنه عندما أجابه د. العوضي بأن العلم قد يكتشف في المستقبل وظيفة لهذه العضلات، استنكر كلامه ورفضه تمامًا!! ثم زاد عليه بأن ضرب المثال بالثدي الزائد الذي قد يظهر في بعض النساء، وهو مثال على ما يسمى بالانتكاسات التطورية، وأن له أصلاً في الثدييات الأخرى، ثم تساءل أيضًا عن الداعي إلى وجوده في الإنسان! فهذا المسلك في الاستدلال على حدوث التطور بنفي الحكمة والغاية والإحكام في الخلق يتناقض بشدة مع نفي الصدفة والعشوائية. وهو يحتاج إلى مراجعة وتدبر وإعادة نظر من الدكتور عمرو شريف حفظه الله.

ويتفرع عن هذا التناقض لدى د. عمرو شريف موقفه من سجل الحفريات، فهو عند سرد الأدلة على حدوث التطور يستشهد بسجل الحفريات واكتماله قائلاً: «ولا شك أن سجل الحفريات كان فقيرًا عندما طُرحت نظرية التطور، لكن داروين

---

(١) يوتيوب: برنامج بيني وبينكم ٢٠١١ - الحلقة ٩ - نظرية التطور
http://youtu.be/FpXt_tk-MwY

تنبأ بأن الكثير من الحفريات (وخاصة الحلقات الوسطى) سيتم اكتشافها، وقد حدث ذلك بالفعل. لقد بلغ سجل الحفريات اليوم ثراءً كبيرًا، وأصبح يحوي أكثر من مائتي ألف نوع من الكائنات، التي ظهر أنها تتغير ببطء في اتجاه أشكال الكائنات الحية الحديثة، ويعتبر المتخصصون ذلك بمثابة مشاهدة عملية التطور وهي تجري أمام أعيننا.

كذلك أصبح السجل الحفري يحتوي على العديد من الحلقات المتوسطة بين الطوائف والرتب المختلفة، كاكتشاف حفرية الثعبان ذي الأرجل كحلقة وسطى في نشأة الزواحف من البرمائيات، وكذلك اكتشاف حفرية الأركيوبتركس وهو من الزواحف التي بدأ فيها ظهور الريش تمهيدًا لنشأة الطيور. لذلك أصبحت حجة "الحلقة المفقودة" كمبرر لرفض مفهوم التطور حجة بالية [التأكيدات من عند المؤلف]».[١]

في المقابل عندما يسرد الدكتور الأدلة على نفي العشوائية يستشهد أيضًا بسجل الحفريات وعدم اكتماله في ثلاث محاور: الأول هو ندرة الكائنات الانتقالية، والثاني هو أن التطور شديد البطء ويضرب المثال بالانفجار الكامبري، والثالث هو وجود كائنات لا سلف لها. حيث يقول في المحور الأول: «اعتبر داروين أن أكبر تحد يواجه نظريته هو نقض الكائنات (الحلقات) الانتقالية التي ينبغي أن توجد نتيجة للانتقال من كائن لآخر.. وبعد مضي أكثر من ١٥٠ عامًا على طرح النظرية، ما زال الحال على ما هو عليه.. ومن ثم فإن الندرة الشديدة في الحلقات الانتقالية تعتبر أهم أسرار علم الحفريات التي تم إغفالها والسكوت عنها قصدًا».[٢] ويقول نقلاً عن

---

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص١٧٤-١٧٥

(٢) د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، ص١٨٩

أحد علماء الحفريات: «أنه لا توجد "حفرية انتقالية Transitional" واحدة تصلح كأصل لكائن متطور آخر، وأن ما يتحدث عنه الدراونة باعتباره حفريات انتقالية مثل الأركيوبتركس ما هو إلا "حفريات وسطى Intermediate" بين كائنين، أي أنها تتمتع بصفات وسط بين كائنين (أ، ب) دون "أدلة" على أنه نتج من (أ) وسلف لـ(ب) كما ينبغي أن يكون في الكائنات الانتقالية، بل إن العلم حتى الآن ليس لديه الآليات التي تحدد هذه العلاقة [التأكيدات من عند المؤلف]».[1] ثم يقول في المحور الثاني: «يؤكد داروين أن التطور العشوائي ينبغي أن يكون شديد البطء، بل ويضيف أن بدون هذه الصفة تصبح نظريته غير مقبولة. وقد فاجأ العالم التطوري ستيفن جاي جولد الدراونة بنتائج أبحاثه المستفيضة التي أظهرت أن سجل الحفريات لا يكشف تطورًا شديد البطء، لكنه يتسم بصفتين أساسيتين تعارضان ما يتوقعون:

١- الظهور المكتمل المفاجئ: فالكائنات لا تظهر في السجل الأحفوري ناقصة ثم تكتمل، بل تظهر مكتملة تمامًا.

٢- الثبات والركود stasis: تظل الكائنات في السجل الأحفوري على هيئتها مع بعض التعديلات الضئيلة حتى تصل إلينا أو تنقرض».[2]

ففي الرد على أنصار الخلق المباشر يقول إن «داروين تنبأ بأن الكثير من الحفريات (وخاصة الحلقات الوسطى) سيتم اكتشافها، وقد حدث ذلك بالفعل» بينما في الرد على الداروينيين يقول: «وبعد مضي أكثر من ١٥٠ عامًا على طرح النظرية، ما زال الحال على ما هو عليه». وفي الرد على أنصار الخلق يقول: «لقد

---

(١) د. المصدر السابق ص١٩٠

(٢) المصدر السابق

بلغ سجل الحفريات اليوم ثراءً كبيرًا» .وأصبح «يحتوي على العديد من الحلقات المتوسطة بين الطوائف والرتب المختلفة» بينما في الرد على الداروينيين يقول إن «الندرة الشديدة في الحلقات الانتقالية تعتبر أهم أسرار علم الحفريات التي تم إغفالها والسكوت عنها قصدًا». وفي الرد على أنصار الخلق يقول عن الكائنات في سجل الحفريات «أنها تتغير ببطء في اتجاه أشكال الكائنات الحية الحديثة، ويعتبر المتخصصون ذلك بمثابة مشاهدة عملية التطور وهي تجري أمام أعيننا» بينما في الرد على الداروينيين يقول إن «سجل الحفريات لا يكشف تطورًا شديد البطء» وإن «نظرة واحدة للسجل ترينا أن الكائنات تظهر فجأة ثم تبقى كما هي ولا تتغير حتى تصل إلينا أو تنقرض». كذلك يقول في الرد على أنصار الخلق بعد الكلام عن حفرية الأركيوبتركس إن «حجة "الحلقة المفقودة" كمبرر لرفض مفهوم التطور حجة بالية» بينما يقول في الرد على الداروينيين إنه «لا توجد "حفرية انتقالية Transitional" واحدة تصلح كأصل لكائن متطور آخر، وأن ما يتحدث عنه الدراونة باعتباره حفريات انتقالية مثل الأركيوبتركس ما هو إلا "حفريات وسطى Intermediate" بين كائنين، أي أنها تتمتع بصفات وسط بين كائنين (أ، ب) دون "أدلة" على أنه نتج من (أ) وسلف لـ(ب) كما ينبغي أن يكون في الكائنات الانتقالية». فتأمل عزيزي القارئ في هذا التناقض الصارخ في استعراض نتائج سجل الحفريات، وكيف أن دلالات السجل تتغير للعكس تمامًا حسب وجهة النظر المراد عرضها، فيصبح دالاً على التطور العشوائي التدريجي البطيء عند الرد على أنصار الخلق المباشر ويصبح دالاً على عدم العشوائية وعدم التدرج عند الرد على الداروينيين! وهذا يؤكد ما قررته سابقًا من أن أنصار مذهب التطور الألهي الموجه يثبتون العشوائية عند الرد على أنصار الخلق المباشر وينفونها عند الرد على أنصار الداروينية الحديثة، وهذا إنما يدل على التناقض

الداخلي وعدم الاتساق في الأفكار والأطروحات، وهو يرجع في الأساس إلى كون هذا المذهب نفسه محاولة للجمع بين النقيضين، وليس إلى خللٍ في نزاهة د. عمرو شريف حاشا لله.

ولا ينفرد د. عمرو شريف بمثل هذه التناقضات فها هو د. صلاح عثمان الذي يثبت العشوائية وانعدام الفائدة والوظيفة في خلق الأعضاء "الأثرية" مثل الزائدة الدودية وعضلات الأذن والغشاء الرامش وضروس العقل حتى قال: «ولقد أحصى العلماء ما يقرب من مائة عضو أثري في الإنسان لم يعد لها أي وظيفة تؤديها»[1] يعود لينفي الصدفة والعشوائية قائلاً: «ولا يمكن أن نتصور بأي حال من الأحوال أن جهازًا دقيقًا معقدًا أشد التعقيد متناسقًا كالمخ قد تكون من تلقاء نفسه نتيجة للصدفة العمياء... ولو نظرنا إلى عملية الانقسام الميسوزي الذي يحدث عند تكوين الأمشاج، حيث يُختزل عدد الكروموسومات إلى النصف ليعود كما كان عند اندماج الحيوان النووي بالبويضة لتكوين الخلية الملقحة أو الزيجوت، لاعتقدنا أنها نتيجة قدرة إلهية واعية مدبرة، إذ لا يُعقل أن مثل هذا التخطيط الدقيق يحدث من تلقاء نفسه أو نتيجة للصدفة.. إلى غير ذلك من أمثلة يعمى أو يتعامى عنها الداروينيون»[2]. فيصير خلق الله –بناءً على هذا الطرح– جامعًا بين العشوائية والتدبير الإلهي، بين انعدام الفائدة والتخطيط الدقيق، بحيث يكون المخ والخلية الملقحة من فعل الله المدبر القدير، وتكون الزائدة الدودية وعضلات صوان الأذن من فعل التطور العشوائي! ولم يخبرنا

(١) د. صلاح عثمان، الداروينية والإنسان، ص٤٩-٥٠

(٢) المصدر السابق، ص١١٤-١١٥

الدكتور من خلق الزائدة الدودية وعضلات صوان الأذن والغشاء الرامش وضروس العقل، هل خلقتها الطبيعة والانتخاب الطبيعي؟

وأشد تناقضًا من هذا الطرح الذي قدمه د. كريم حسنين حيث استدل بمراحل نمو الجنين في الإنسان على تطوره من أسلاف سابقين وكذلك بوجود الأعضاء الأثرية مثل الزائدة الدودية في الإنسان[1] حتى قال: «إن هذه الآثار أمثلة للقصور عن الكمال والتي تدفع وتبرهن على عدم حدوث الخلق المباشر خلال التصميم أو التخطيط، بينما يمكن في المقابل إدراك ماهيتها كليًا كنتيجة للنشوء».[2] بل إنه ينتقد رفض أورخان محمد علي لهذه الدلالة الداروينية للأعضاء الأثرية ويتهمه بعدم الموضوعية والإفراط في الاستدلال غير المنطقي![3] فهو بهذا ينفي صراحة الخلق المباشر للإنسان بطريق التصميم والتخطيط وأنه كان عن طريق التطور من أسلاف سابقين. العجيب مع كل هذا أنه يقرر بكل صراحة ووضوح أن الإنسان -بخلاف سائر المخلوقات- قد خلق خلقًا مباشرًا «وأن صريح الآيات القرآنية يبين البدء المباشر لخلق الإنسان من طين»[4]، فهل خلق الله الإنسان خلقًا مباشرًا بما فيه من أعضاء أثرية وبقايا من الأسلاف وقصور عن الكمال؟! هذا تناقضٌ جليّ يبين عمق الأزمة في هذا المذهب المضطرب المتناقض الذي لا يستقيم عقلاً ولا شرعًا، وأن د. كريم حسنين رغم اطلاعه الواسع على النظرية الداروينية الحديثة وأطروحاتها

---

(١) د. كريم حسنين، الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية، ص١٢٧-١٣١

(٢) المصدر السابق، ص١٣١

(٣) المصدر السابق، ص٢٠٠

(٤) المصدر السابق، ص٢٣٠

وعقليته العلمية الناقدة وحرصه الظاهر على عدم الوقوع في التأويل غير المنضبط للنصوص الشرعية لم يسلم من الوقوع في تناقض فادح بهذا الشكل.

كذلك من التناقضات لدى د. عمرو شريف ذكره أن من الحقائق العلمية التي أظهرتها قراءة الجينوم البشري وأكدت مفهوم التطور والسلف المشترك أنه «لا فرق بين "التطور داخل النوع" و"التطور من نوع إلى نوع"»[1]، وأن التفرقة بينهما من أطروحات الخلقويين، وهو يستشهد بفرانسيس كولينز للرد عليهم بأن «التطور من نوع إلى نوع ليس إلا نتيجة تراكم عدد من طفرات التطور داخل النوع الواحد. ومن ثم، فإن هذه التفرقة اعتبارية وليست حقيقية [التأكيد من المؤلف]».[2] وهذا كله يأتي في سياق إثبات صحة التطور والرد على أنصار الخلق الإلهي المباشر. بينما عندما يأتي النقاش في سياق الرد على الداروينيين وإبراز محدودية التطور العشوائي يقوم بنسبة القول بعدم التفرقة إلى الدراونة ويرد عليهم بأن هناك من المتخصصين من يرى أن التفرقة ضرورية قائلاً: «يعارض الدراونة وضع حد فاصل بين التطور الدقيق Microevolution والتطور الظاهر Macroevolution، ويعتبرون أن الثاني يحدث نتيجة تراكمات الأول، ومن ثم يعتبرون أن التطور الظاهر لا يحتاج لآليات خاصة به. وفي المقابل، يرى فريق كبير من البيولوجيين المتخصصين في الوراثة أن آليات التطور الدقيق التي نعرفها غير كافية مهما تراكمت لإحداث التطور الظاهر، وأن الأخير حدث بآليات أخرى لا نعلم عنها شيئًا [التأكيدات من المؤلف]».[3]

---

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٢٨٨

(٢) المصدر السابق، ص٢٨٩

(٣) د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، ص١٩٩

فهو يرى عدم التفرقة بين نوعي التطور ويرد على الخلقيين لأجل إثبات التطور والأصل المشترك، وفي موضع آخر يرى التفرقة بين نوعي التطور ويرد على الدراونة لأجل نفي العشوائية. فهل هناك تناقض أبرز من هذا؟ وسبب هذا كله هو ما يتسم به مذهب التطور الموجه من ضبابية وغموض وجمع بين المتناقضات بحيث لا يمكن أن يسلم متبعه إطلاقًا من الوقوع في التناقضات.

من التناقضات أيضًا ما يحكيه د. عمرو شريف عن مدى حجية نظرية التطور وأدلتها حيث أنه كرر في مواضع متعددة من كتاباته أن نظرية التطور حقيقة علمية ثابتة كقوله إن «السلف المشترك حقيقة بيولوجية»[1]، ونقله عن د. أحمد مستجير مقولة إن دلالة الكروموسوم الثاني على السلف المشترك للإنسان مع الشمبانزي «دليل دامغ لا يمكن دحضه»[2]، بل إن د. عمرو نفسه يصنف نفسه بين الذين يرون أن الأدلة العلمية على حدوث التطور لا تُدحض[3]، وأن العلم الحديث قد أثبت وقوع الخلق التطوري[4]. بل إنه يرد على الذين يعترضون على نظرية التطور بأنها لم تبلغ مستوى حقائق العلم بأنها «نظرية عيارية راسخة... وقد جعلت منها الأدلة القوية حقيقة علمية ينبني عليها علم البيولوجيا بفروعه المختلفة [التأكيدات من المؤلف]»[5]. ومع ذلك تجده يصرح بوضوح شديد خلاف ذلك حيث يقول بخصوص الأدلة على حدوث التطور: «وينبغي التأكيد على أن هذه الأدلة ليست

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٢٨٩

(٢) المصدر السابق، ص٢٩١

(٣) د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، ص٢٣١

(٤) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٣٢٢

(٥) المصدر السابق، ص٣٣٧

قاطعة الدلالة على حدوث التطور، لكنها مرجحة يؤازر بعضها بعضًا، ويُعتبر القول بالتطور "أفضل التفسيرات" لوجودها [التأكيد من المؤلف]».[1] فكيف يتفق كون التطور حقيقة علمية بيولوجية ثابتة راسخة وأدلتها العلمية لا تُدحض مع كون هذه الأدلة ليست قطعية الدلالة والقول بالتطور لا يعدو منزلة أفضل التفسيرات؟! اضطراب وتذبذب عجيب وله نتائج خطيرة تحديدًا في التعامل مع النصوص الشرعية المتعلقة بخلق الإنسان، والدكتور يظهر ميله الواضح لاعتبار التطور حقيقة قطعية يجب تأويل النصوص الشرعية المحكمة بناءً عليها[2]، بينما لو وضعنا النظرية في حجمها الصحيح لما نهضت أصلاً لمعارضة هذه النصوص فضلاً عن تأويلها انصياعًا لها.

(١) د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، ص١٨١

(٢) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٣٣٥

الحق واحد والباطل متعدد

في شهر يونيو عام ٢٠١٤ أقيمت صلاة مشتركة من أجل السلام في الفاتيكان شارك فيها الرئيس الفلسطيني محمود عباس والرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز برعاية بابا الفاتيكان، حيث قام البابا والرئيسان بالصلاة والتضرع من أجل السلام ثم قاموا بزرع شجرة زيتون.

هل يعني هذا نهاية الصراع العربي الإسرائيلي؟ هل انتهت كل الخلافات بين المسلمين واليهود بعد زرع الزيتون؟ هل يحسب عاقلٌ أن هذه الفعاليات الدبلوماسية يمكنها أن تمحو حقيقة الخلاف والنزاع بين هاتين الأمتين وتزيل التعارض والصراع الجذري القائم؟

هذا هو بالضبط صنيع الذين يرون إمكانية "الجمع" و"التوفيق" و"المصالحة" بين الإسلام والداروينية! هناك تناقض جذري جوهري بين الإسلام ونظرية داروين لا يمكن تجاوزه إلى نظرية تلفيقية تجمع بين هذا وذاك بحيث يتنازل الإسلام عن بعض ثوابته وتتنازل الداروينية عن بعض ثوابتها للقاء في منطقة وسط. هذا الصنيع ليس فقط يناقض كلاً من الإسلام والداروينية، بل هو أيضًا متناقضٌ في نفسه، فيبقى مخالفًا للجميع متناقضًا مع أصول هذا وأصول ذاك متناقضًا في نفسه وفكره، بالضبط كمن يحسب أن زرع الزيتون سينهي الصراع العربي الإسرائيلي ويرسي السلام في الشرق الأوسط. وليت الأمر قد اقتصر على هذا، فقد كان يجب مع ما يدعيه القوم من سلامة المنهج وصحة الاستدلال أن لا يختلفوا كما لا يختلف الأطباء في عد ضربات القلب وقياس ضغط الدم أو كما لا يختلف أهل الفيزياء والكيمياء والفلك وعلوم البحار والجيولوجيا وغيرهم في قياساتهم وحساباتهم، فما بالهم أكثر الناس اختلافًا لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على رأيٍ واحدٍ في الأمر الواحد، ليس فيهم واحدٌ إلا

وهو يخالف غيره في التوفيق بين الإسلام ونظرية داروين، فعلى سبيل المثال نجد د. كريم حسنين ود. صلاح عثمان يتبنى كل واحد منهما الداروينية العشوائية بجميع مفرداتها وأطروحاتها، بينما د. عمرو شريف يتبنى مذهبًا تلفيقيًا بين الداروينية والتصميم الذكي. كذلك تجد أحدهم وهو د. كريم حسنين يرى أن الإنسان خلق خلقًا خاصًا كما في القرآن، «وأن صريح الآيات القرآنية يبين البدء المباشر لخلق الإنسان من طين»[١]، وليس ناتجًا عن التطور الدارويني، فهو استثنى خلق الإنسان من الداروينية، بينما تجد آخر وهو د. عماد بابكر يستثني الأنعام من الخضوع لقانون التطور لأنها «خلقت خارج الأرض، ونزلت مخلوقة»[٢]! بينما الإنسان نشأ عن طريق التطور من أسلاف سابقين، أما د. عمرو شريف فيؤمن بتطور جميع المخلوقات بلا استثناء. أيضًا في فهم آيات القرآن تجد د. عبد الصبور شاهين رحمه الله في كتابه (أبي آدم) يرى أن الله تعالى خلق الإنسان العاقل المكلف من سلالة البشر، بينما يرى د. عمرو شريف العكس وأن البشر مخلوق من الإنسان وأنه متطور عنه[٣]! وهكذا ليس منهم واحدٌ إلا وله مذهبٌ في التطور يخالف فيه غيره، وسر خلافهم هو ردّ كل منهم المسائل إلى استحسانه ونظره، لاختلاف الناس في عقولهم وآرائهم واختيارالهم. وهل يكون البحث والتحليل بهذه الكيفية إلا ما يقول فيه مضرس بن ربعي الفقعسي:

---

(١) د. كريم حسنين، الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٢، ص٢٣٠

(٢) د. عماد بابكر وعلاء الدين بابكر، آذان الأنعام، دار عزة للنشر، الخرطوم، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص٢٨٧

(٣) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص٣٥٢

وليلٍ يقُول القومُ من ظُلُمَاتِه : : : : سَوَاءٌ بَصِيراتُ العُيون وعُورُها

سواءٌ بصيرات العيون وعورها! وإنا لله وإنا إليه راجعون! وهذه هي طريقة القوم، وواقع الأمر أنها طريقةٌ تنتهي إلى مجرد الترجيح حسب الهوى والرأي دون الاعتماد على منهجٍ ثابتٍ سديدٍ. ولو أردنا أن ننتقل عن علماء الإسلام ونرغب عنهم إلى أنصار التطور من أهل القبلة، لخرجنا من اجتماعٍ إلى تشتتٍ، ومن نظامٍ إلى تفرقٍ، ومن أنسٍ إلى وحشةٍ، ومن اتفاقٍ إلى اختلافٍ؛ لأن علماء الإسلام مجمعون على أن الله خلق آدم من تراب وخلقه بيده من غير أب وأم، فإذا نحن أتينا أنصار التطور المسلمين وأردنا أن نتعلق بشيء من مذاهبهم، ونعتقد شيئًا من آرائهم، وجدناهم يختلفون ويتعارضون، ويتقدمون بالرأي وعنه ينافحون، ثم بعدها يرجعون عنه ويتبرؤون، وها هو د. عمرو شريف بعد أن كان ينافح عن التطور وأنه حقيقة علمية قطعية يقينية راسخة[١]، عاد ليقول إنه فقط أرجح التفسيرات وأفضل التفسيرات ولا يصل ولن يصل لأن يكون حقيقة علمية![٢]

وأرجو الا يُفهم من كلامي اي انتقاص لمكانة أي واحد من أنصار التطور من المسلمين أو الحط من أقدارهم أو حتى التشكيك في صدق نواياهم وإخلاصهم لدينهم، خصوصًا د. عمرو شريف الذي يحتل مكانة عظيمة من الحب والاحترام والتقدير في قلبي، بل الغرض فقط هو بيان تهافت هذا المذهب وأن من يتبناه يصير

---

(١) المصدر السابق، ص٢٨٩، ٢٩١، ٣٢٢

(٢) د. عمرو شريف، صفحة الفيسبوك الشخصية، عنوان المنشور: رفاق رحلة عقل، بتاريخ ١٧ أبريل ٢٠١٥على الرابط الآتي:

http://www.facebook.com/surgamrsherif/posts/940590082640339

ضحية للتناقضات والإشكالات رغمًا عنه مهما بلغ من العقل والحكمة ومهما بلغت براعته وتمكنه العلمي. أسأل الله أن يشرح صدورنا للحق ويهدينا سواء السبيل.



Dr. Amr Sherif د. عمرو شريف
April 17, 2015 ·

رفاق رحلة عقل

دار علي الصفحة الداخلية حوارا بين صديقين ، أدليت بدلوي فيه ، واري ان أعرضه في صدر الصفحة حتي تعم الفائدة ...الفاضل عبد الرحيم
أصبت في تعليقك

الفاضل علي
اختلف معك فيما طرحت :

تتكون فرضية دارون من شقين ، الاولي حدوث التطور ، والثانية ان التطور كان عشوائيا ، وينبغي ان نفرق بين الشقين .
وقناعتي التي أشارك فيها مجموعة من العلماء ان الشق الاول (التطور) عليه حجج علمية وضده معارضات علمية ، وحججه اكثر من معارضاته ، لذلك فالتطور (حتي الان) هو الارجح ، وتعتبره فلسفة العلوم " أفضل التفسيرات " ، لكنه لا يصل ولن يصل الي ان يصبح حقيقة علمية . وقولنا أفضل التفسيرات يعني انه قابل لمزيد من التاكيد وقابل للنفي .

فرانسيس كولينز والفوضية الزائدة

عالم الجينات الأمريكي البارز فرانسيس كولينز Francis Collins كان رئيس مشروع الجينوم البشري Human Genome Project الذي قام بمجهود بارز حتى نجح في عمل خريطة لكامل الشفرة الوراثية في الإنسان (حوالي ٣.١ مليار حرف)، حيث أعلن الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت بيل كلينتون الانتهاء من المسح الأول له في يونيو عام ٢٠٠٠ قائلاً: «اليوم نحن نتعلم اللغة التي خلق الله بها الحياة»، وبجواره كولينز قائلاً: «إنه من المبهر أن ندرك أننا قد بدأنا في التعرف إلى كتاب التعليمات الخاص بنا والذي لم يكن يعلمه في السابق إلا الله وحده».(١)

في عام ٢٠٠٦ قام كولينز بتأليف كتابه الأكثر مبيعًا (لغة الإله) The Language of God، والذي عرض فيه وجهة نظره بخصوص التوفيق بين الإيمان بالله والتصديق بالعلم خصوصًا فيما يتعلق بنظرية التطور، وطرح أطروحته في التطور الإلهي المعروفة باسم البيولوجوس BioLogos. وقد تأثر بكتابه وما فيه من أطروحات الدكتور عمرو شريف أحد أبرز المتبنين لمذهب التطور الإلهي الموجه، واستشهد به عشرات المرات في كتابه (كيف بدأ الخلق) وفي غيره من كتاباته ومقالاته ومحاضراته العامة. ونظرًا لهذا التأثير البالغ لكولينز وأطروحاته كان من الواجب تناوله بالمناقشة في هذا الكتاب.

---

(1) President Clinton Announces the Completion of the First Survey of the Entire Human Genome," White House Press Release (June 25, 2000) last accessed July 16, 2015:
http://www.ornl.gov/sci/techresources/Human_Genome/project/clinton1.shtml

البرهان على الإيمان:

يحكي لنا فرانسيس كولينز في الفصل الأول من الكتاب كيف أن ما يسميه بالقانون الأخلاقي Moral Law يدل على وجود معنى للحياة يتجاوز المادة، ويقصد به حس الصواب والخطأ أو معرفة الحق والباطل، فجميع الناس يعلمون علمًا ضروريًا بأن هناك حق وباطل وأن هناك صواب وخطأ، ورغم أنهم يختلفون فيما بينهم في تحديد الصواب والخطأ لكنهم متفقون في أن هناك صوابًا وخطأ من ناحية المبدأ، وأن الإنسان بطبعه يسعى لإتباع الحق وتجنب الباطل.(1) فوجود هذا المبدأ أو المفهوم أو القانون يدل على أن المذهب المادي لا يمكنه أن يفسر كل مظاهر الحياة، وأن هناك أبعادًا خارج نطاقه. كذلك يتكلم في نفس السياق عن خاصية الإيثار والتي لا يمكن أن تكون نتيجة التطور الدارويني أو العوامل الاجتماعية مهما بلغت.(2)

وفي الفصل الثالث يكلمنا كولينز عن كون قوانين الفيزياء –مثل الشفرة الوراثية- تشير إلى وجود الله(3)، وأن الانفجار العظيم وحقيقة أن هذا الكون له بداية تتطلب تفسيرًا ميتافيزيقيا يتجاوز أسوار المادة(4)، وأن الضبط الدقيق في الانفجار العظيم والذي أدى إلى خروج الكون بهذه الصورة يشير إلى الخالق الذي قام بضبط

---

(1) Francis S. Collins, The Language of God – A Scientist Presents Evidence for Belief, Free Press, New York London Toronto Sydney, July 7 2006, pp. 21-22
(2) Ibid., p. 25
(3) Ibid., pp. 62-63
(4) Ibid., p. 67

ومعايرة إعدادات لحظة الانفجار العظيم[١]، ثم يتكلم عن المبدأ الإنساني ويجيب عن الاعتراضات الواردة عليه.[٢]

هذه هي البراهين التي استعملها كولينز للدلالة على صحة الإيمان بوجود الله: القانون الأخلاقي، والانفجار الكبير، والضبط الدقيق لقوانين الفيزياء. ولا تجد فيها أي إشارة إلى الشفرة الوراثية أو التصميم المتقن البديع للكائنات الحية، وسوف نفهم لماذا في الصفحات التالية.

تعقيد الكائنات الحية:

في المقابل فإن التعقيد المشاهد في الكائنات الحية لا يصح أن يستعمل كدليل على الخالق عند كولينز، لأن الداروينية قد قامت بتفسير وجود هذا التعقيد بأنه نتيجة للأصل المشترك والانتخاب الطبيعي، وبالتالي لم يعد يجوز أن نستدل بهذا التعقيد على وجود الله وخالقيته![٣] وأن الأدلة على صحة نظرية التطور الدارويني صارت قاهرة لأي عالم فاهم، وبالتالي فإن الاستدلال بالتعقيد على خالقية الله تعالى صار استدلالاً فاسدًا غير سليم! وأن كل الذين استدلوا في الماضي —وفي الحاضر كذلك!– ببرهان التعقيد أو التصميم في الكائنات الحية أخطئوا في هذا المسلك لأنه يؤدي إلى زعزعة الإيمان وانهياره عند المؤمن بمجرد اطلاعه على حقائق علم الأحياء ونظرية التطور.[٤]

---

(1) Ibid., p. 72
(2) Ibid., p. 74
(3) Ibid., pp. 85–86
(4) Ibid., p. 106

.حتى في المواضع التي يعجز التفسير الدارويني أو المادي عن شغلها مثل نشأة الحياة أو نشأة الخلية الحية الأولى يحذرنا كولينز من اللجوء إلى الخلق الإلهي كتفسير لها، لأن العلم في المستقبل لن يعجز عن إيجاد التفسير المادي وعندها سيكون هذا الاستدلال سببًا في زعزعة عقائد المؤمنين كما حدث في السابق مع الكشوف العلمية لجاليليو وداروين، حيث اعتاد المؤمنون على تفسير الفجوات المعرفية التي يعجز العلم عن تفسيرها بأنها من فعل الله المباشر فيما يعرف بمفهوم إله الفجوات المعرفية.[1]

إله الفجوات المعرفية:

ما المقصود بإله الفجوات المعرفية؟ كان بعض اللاهوتيين النصارى قديمًا كلما أعياهم تفسير ظاهرة ما أو حادثة ما قالوا إن سبب ظهورها أو وقوعها أو حدوثها هو الفعل الإلهي المباشر المجرد من الأسباب المادية، فقوس قزح سببه أن الله خلقه ليكون علامة على كذا، وفيضان النهر سببه أن الله خلقه لأجل كذا، وكسوف الشمس وخسوف القمر ونزول المطر وغيرها من الظواهر كانت تفسر بإرادة الله وفعله المباشر المجرد عن الأسباب المادية. فلما تطورت العلوم وعرف العلماء أن هناك أسبابًا مادية للكسوف والخسوف والمطر والفيضان وقوس قزح.. إلخ، حلت الأسباب المادية محل السبب الإلهي وتزعزع الإيمان بالله، لكن كانت ما تزال هناك ظواهر لم يتمكن العلم من تفسيرها فكانت تفسر بأن الله هو الذي سببها، لكن ظلت العلوم تتقدم وتنمو وتتطور على حساب الله، وكلما اكتشف سبب مادي لظاهرة ما، كانت مكانة الله تتآكل وتضعف. فهذا المفهوم الذي يقوم فيه الله بتفسير الفجوات التي لم يملئها

---

(1) Ibid., pp. 92-93

العلم ولم تبلغها المعرفة في هذا الزمان هو المقصود بمفهوم إله الفجوات المعرفية والذي يجعل الله عرضة للنقد والتشكيك مع كل تطور وتقدم للعلوم والمعارف العلمية. فخلاصة هذا المسلك هو اتخاذ الأسباب المادية المحضة كإطار علمي شامل لتفسير مختلف ظواهر الكون والحياة، ثم إذا عجزت الأدلة العلمية في موضع ما ووقعت فجوة معرفية تفسيرية في هذا الموضع، يتم استدعاء خالقية الله وفعله المباشر لسد هذا العجز وهذه الفجوة، فيكون الله حاضرًا فقط في الجزء غير المفسر من العلم، ومع تقدم العلم وظهور التفسيرات العلمية الجديدة يتضاءل هذا الجزء وربما يختفي تمامًا، وهذا مسلكٌ غير مستقيم عقلاً وباطلٌ من الناحية العقدية.

لكن هل الاستدلال بتصميم وتعقيد الكائنات الحية يعتبر استدلالاً بمبدأ الفجوات المعرفية كما يزعم كولينز؟ الإجابة في الحقيقة هي لا، لأن من يستدل بتصميم وتعقيد الكائنات الحية إنما يتبع قاعدة عقلية وهي إدراك الغائية والغرض في التصميم أو التعقيد وبالتالي إدراك أنه من صنع صانع غائي، وفي المقابل فإن الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي إما أن تكون عاجزة عن تقديم تفسير حقيقي لهذا التصميم أو التعقيد أو المعلومات الجديدة في الشريط الوراثي أو الوظيفة الجديدة أو العضو الجديد للكائن الحي أو أن تكون قوتها التفسيرية ضعيفة بالمقارنة بالقوة التفسيرية لفرض الخالق أو المصمم الذكي. فعندنا كمسلمين مثلاً نرى أن وجود التعقيد والتركيب المنظم الغائي في الكائن الحي يدل على أنه من خلق الله أو أنه له خالقًا بالاستنباط العقلي المباشر، وعند مدرسة التصميم الذكي Intelligent Design يعتبر تفسير التصميم والتعقيد خصوصًا إن كان تعقيدًا متخصصًا أو غير قابل للاختزال بأنه من فعل مصمم ذكي أولى من تفسيره بأنه نتاج العشوائية الداروينية،

فالمسألة عندنا كمسلمين استنتاج عقلي مباشر بينما هي عند أنصار مدرسة التصميم الذكي مفاضلة بين التفسيرات للخروج بأفضل وأقوى تفسير.

والطريف أننا لو حاكمنا فرانسيس كولينز إلى ما يصفه بمبدأ الفجوات المعرفية لكان هو أول المدانين في هذه المحاكمة، فها هو في الفصل الثالث من الكتاب عند الكلام عن تفسير الضبط الدقيق والمعايرة الدقيقة لقوانين الفيزياء يعقد المقارنة بين التفسيرات المختلفة ليخرج بأفضل تفسير وهو أن هناك خالقٌ لهذا الكون في مقابل التفسيرات المادية المنكرة لوجوده(1)، ويصرح أن الانفجار العظيم Big Bang يتطلب تفسيرًا إلهيًا لوجوده، وأنه لا يمكن أن يتصور المرء خلاف ذلك.(2) ألا يدرك كولينز أن التفسيرات المادية قد تسود في يومٍ ما وتطغى على التفسير الإلهي؟ وأنه قد يأتي اليوم الذي يقرر فيه العلم أن الانفجار الكبير وأن الضبط الدقيق لقوانين الكون قد يكونا نتاج عملية عشوائية مادية محضة؟ ثم دعونا نسأل كولينز: هل وجود النظام في الكون أدعى إلى الإيمان بوجود الله أكثر من وجود التعقيد المتخصص والتعقيد غير القابل للاختزال؟؟ هل دلالة انتظام أمواج البحر وانتظام دوران الأفلاك والنجوم أعلى من دلالة شفرة المعلومات الحيوية في الشريط الوراثي أم أن العكس هو الأقرب للعقل؟! تفكيرٌ متناقضٌ في الحقيقة!

وأفدح من هذا تناقضه في الاستدلال بالقانون الأخلاقي عند الإنسان على وجود الله ووجود المعنى في الحياة، فنفس هذا القانون الأخلاقي يضع له الداروينيون

---

(1) Ibid., pp. 74-78

(2) Ibid., p. 67

العديد من التفسيرات التي تجعله مجرد نتاج لعملية التطور![1] أليس هذا -حسب كولينز- داعيًا إلى إقصاء التفسير الغيبي الميتافيزيقي وإتباع التفسير "العلمي" الدارويني؟ لكن كولينز يستدل بأريحية بهذا القانون الأخلاقي في الإنسان متجاهلاً تفسيراته الداروينية رغم أنه في مواضع أخرى يجعل وجود التفسيرات الداروينية لسائر مظاهر الحياة مبطلاً للاستدلال بها على وجود الله.

فأطروحة كولينز في الحقيقة تحتوي على متناقضات مثيرة للدهشة؛ فهو يعتبر أن النظام الكوني يدل على وجود الله بينما التعقيد الحيوي الذي هو أقوى دلالة من مجرد النظام ليس دليلاً على وجود الله! ثم هو يقبل التفسيرات الداروينية على طول الخط، لكنه يرفضها فيما يتعلق بالجانب الروحي والأخلاقي للإنسان دون مبرر واضح لهذه التفرقة بين التفسيرات الداروينية!

البيولوجوس BoiLogos:

صاغ فرانسيس كولينز مذهبه في التطور الإلهي الذي سماه البيولوجوس في ست نقاط:

١) ظهر الكون إلى الوجود من العدم من حوالي ١٤ بليون سنة.

٢) رغم أن الأمر غير محتمل بشكل كبير فإن خصائص الكون تبدو مضبوطة بدقة لأجل ظهور الحياة.

---

(1) Youtube: The Root of All Evil? – "The Virus of Faith" at 40:50
https://www.youtube.com/watch?v=aMUG6qd98wc

٣) رغم أن آلية ظهور الحياة على الأرض ما تزال غير معلومة بدقة، إلا أنه بمجرد ظهور الحياة فإن عملية التطور والانتخاب الطبيعي سمحت بنشوء التنوع والتعقيد البيولوجي على مدار فترات طويلة جدًا من الزمن.

٤) بمجرد دوران عجلة التطور لم تعد هناك حاجة لأي تدخل إلهي.

٥) البشر جزء من هذه العملية ويشتركون بسلف مشترك مع القردة العليا.

٦) لكن البشر متفردين باعتبار طبيعتنا البشرية بما يرفض التفسير الداروني. وهذا يتضمن القانون الأخلاقي (معرفة الصواب والخطأ) والسعي إلى الله مما يميز جميع الثقافات البشرية عبر التاريخ.[١]

فهذه النقاط الستة تدل على أن الله قد خلق الإعدادات الأولية للكون فقط ثم تركه يمضي بدون أي تدخل إطلاقًا إلا في منح الإنسان صفاته الروحية والأخلاقية فقط لا أكثر. وقد جانب الصواب د. عمرو شريف عندما ذكر أن كولينز يرى «أن الخالق عز وجل وضع الشفرة الوراثية (الجينوم) في الخلية الأولى بشكل متناغم مع قوانين الطبيعة»[٢]، فكولينز في الحقيقة يرى أن الله لم يضع فعليًا الشفرة الوراثية في الخلية الأولى، وأنه رغم عدم وجود تفسير مادي لنشأة الحياة أو الخلية الأولى إلا أن هذا لا يعني أن لن يمكننا في المستقبل العثور على هذا التفسير، ويحذر من التسرع باستخدام هذا القصور التفسيري كدليل على الخلق الإلهي![٣]

كذلك يتضح من هذه الأطروحات أن كولينز يرفض مبدأ "تدخل" الله في الخلق بعد لحظة الخلق الأول التي هي عنده لحظة الانفجار العظيم، وهو في موضع آخر من الكاتب يستقبح هذا المبدأ ويقول إن «التصميم الذكي يُظهر الله في صورة إله

(1) Collins, p. 200

(٢) د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، ص٢٣٢

(3) Collins, pp. 92–93

متخبط يضطر للتدخل على فترات منتظمة لإصلاح مواطن القصور في خطته الأولية لأجل خلق تعقيد الحياة». [1]

لكن الحقيقة أن الاستدلال بالتصميم والتعقيد الموجود في الكائنات الحية على وجود الخالق العليم الحكيم من مقتضيات الفطرة الإنسانية والعقل السليم وقد أوضحت ذلك في كتابي عن الإلحاد[2]، فضلاً عن كونه مسلكًا شرعيًا اتبعه القرآن الكريم حين دعا إلى التفكر في خلق الإنسان وفي خلق الدواب والأنعام والإبل والخيل والبغال والحمير، بل حتى في خلق الذباب والبعوض! فلا يمكن لمسلمٍ أبدًا أن ينكر هذه الدلالة الباهرة لأجل تلك الشبهة الواهية التي يراها كولينز. ولذلك نجد أن د. عمرو شريف –مع إعجابه الشديد بأطروحة البيولوجوس لكولينز وتأييده لها واستشهاده بمفرداتها- يستدل بالتصميم والتعقيد الباهر في الكائنات الحية على ضرورة وجود الخالق تبارك وتعالى، ويستعمل الأطروحات التي استنكرها كولينز بقوة مثل التعقيد المتخصص والتعقيد غير القابل للاختزال، بل ويدافع عن مبدأ التصميم الذكي ضد منكريه.[3]

يُضاف إلى هذا حقيقة أن الزعم بأن الله لا يتدخل في الكون أو العالم المخلوق بالفعل المباشر يُنافي بشدة عقيدتنا في الله وفي صفاته العُلا، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[4]، فنحن لا نعتقد أن الله بعيد عن تدبير العالم ثم هو في أوقات معينة "يتدخل" بالتصحيح والتعديل المباشر لمسار الأحداث!! إنما الله يتحكم

---

(1) Ibid., pp. 193–194

(٢) هشام عزمي، الإلحاد للمبتدئين، مركز براهين ٢٠١٥.

(٣) انظر كتبه (كيف بدأ الخلق) و(وهم الإلحاد) و(خرافة الإلحاد)

(٤) الزمر :٦٢

في كل شيء ويدبر كل شيء ولا يخرج أي أمر في الكون عن مشيئته وإرادته، لكن الله يدبر أمور الكون عن طريق السنن الكونية والأسباب المادية الطبيعية بحيث تمضي في المسارات التي أرادها الله وقررها في علمه الأزلي، وهذا لا يعني إطلاقًا أنه لا يخلق بالفعل المباشر المجرد عن الأسباب المادية والسنن الكونية، بل يفعل أحيانًا حسب مشيئته وحكمته، وقد وقع كبير أساقفة كنيسة كانتربري روان ويليامز في إحراج بالغ عندما زعم أن الله قد خلق الكون بحيث لا يتدخل إطلاقًا في مسار أحداثه، فسأله البروفيسور الملحد ريتشارد دوكينز عن المعجزات المذكورة في العهد الجديد مثل ولادة المسيح من مريم العذراء، هل كانت وفق الأسباب الطبيعية أم كانت بالتدخل الإلهي المباشر، فأسقط في يده وارتبك وتكلم بكلام غير مفهوم.[١]

فالله جل وعلا قد يخلق مباشرةً، وهذا أمرٌ يرجع إلى حكمته ومشيئته، ولا يجوز لأحد من الخلق أن يضيق نطاق أفعال الله ويزعم أنه لا يخلق مباشرة أو أن هذا انتقاصٌ له أو أنه تدخلٌ منه فيما لا ينبغي له، فهو خالق هذا الكون وخالق كل قوانينه ويخلق ما يشاء ويختار. وهو كذلك يخلق من خلال الأسباب المادية والسنن الكونية الطبيعية فيرسل السحاب وينزل المطر وينبت الزرع ويرزق البشر، ولا يخرج شيء في الأرض ولا في السماء عن خلقه وأمره، ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾.[٢] لكن مشكلة فرانسيس كولينز أنه يريد أن ينشئ لاهوتًا جديدًا يناسب الداروينية الحديثة ويوافق الأصل المشترك عن طريق الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي، وهذا لن يكون

---

(١) يوتيوب: عبقرية داروين (نظرية التطور) - الحلقة الثالثة والأخيرة في الدقيقة ٣٠ على هذا الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=aXC2CPO1pW0

(٢) الأعراف :٥٤

إلا بتقليص خالقية الله وقيوميته ليكون إلها على النمط الربوبي لا يكترث للعالم ولا يتدخل فيه، بل يتركه للتطور العشوائي يعمل فيه ويسيّره.

يُضاف إلى كل ما سبق أن القوانين الفيزيائية والكيميائية الطبيعية لا يمكنها أن تفسر وجود الشفرة الوراثية بمحتواها المعلوماتي بالغ الثراء، ولا أن تفسر نشوء أجهزة وآلات بيولوجية معقدة سواء على مستوى الخلية أو على مستوى أنسجة وأعضاء جسم الكائن الحي. القوانين الثابتة في العالم قد تؤدي فعلاً إلى وجود نظام order وانتظام regularity، لكن هذه القوانين بحسبها لا تفسر وجود أنظمة معقدة تحوي شفرات معلوماتية مثل الشريط الوراثي. فمن الممكن فعلاً أن تصطف الحروف بجوار بعضها البعض بناء على متوالية رياضية معينة، لكن هذه الحروف لن يمكنها أن تضع لنا رواية رومانسية أخذ فيها البطل بمشاعر القراء وسحر عقولهم، ولا يمكن أن تضع بنفس الطريقة برنامجًا للكمبيوتر لتسيير سفن الفضاء وتوجيهها. كذلك لا يمكن أن تخلق لنا شفرات معقدة تقوم بتسيير مهام ووظائف الخلية بهذه الدقة والعمق والتعقيد.

فالحقيقة أن تتابعات النيوكليوتيدات nucleotides في الشريط الوراثي ليست تتابعات صماء، إنما هي شفرة معلوماتية غنية بالأوامر والتوجيهات والإشارات، بل هي لغة -أو لغات- كاملة تتم ترجمتها من خلال آليات غاية في الدقة والإحكام إلى ما نراه في وظائف الخلية الحية. فهذه المعلومات لا يمكن أن تخرج إلى الوجود بالصدفة أو بمجرد فاعلية القوانين الصماء، بل لابد أن يكون لها خالق مباشر!

وهذا هو الفرق بين انتظام موجات البحر ورمال الصحراء وبين الشفرة الوراثية؛ فالنظام order في الأولى ناتج عن فاعلية القوانين الطبيعية غير العاقلة، أما تعقيد الشفرة الوراثية فهو نتيجة لغزارة المعلومات التي تحويها. لهذا لا تحتوي الأمثلة

الأولى على معلومات، بينما تحتوي الأمثلة الثانية (الشفرات الوراثية - الكتب - برامج الكمبيوتر) على معلومات. لأجل هذا السبب لابد من أن يكون هناك خالقٌ مباشرٌ للكائنات الحية يخلق بما يتجاوز مدى فاعلية القوانين المادية الصماء العمياء.

التصميم السيئ والحمض النووي الخردة:

يرى فرانسيس كولينز أن تصميم العديد من الأعضاء البشرية يدل على أن الإنسان ليس من خلق إله عليم حكيم، فتصميم العين ليس مثاليًا لأن مستقبلات الضوء تقع في الطبقة السفلى وبالتالي يمر الضوء على الأعصاب والأوعية الدموية قبل بلوغها، وكذلك تصميم العمود الفقري ليس مثاليًا للإنسان المنتصب واقفًا، وكذلك ضروس العقل والزائدة الدودية، هذه كلها أمثلة –عند كولينز- على أن تصميم الإنسان لم يتبع خطة ذكية في الحقيقة![١]

كذلك تكلم عن الجينات الكاذبة والمادة الوراثية عديمة القيمة وتشابهها بين الإنسان وغيره من الثدييات كأحد الأدلة على عشوائية التطور وأن هذا لا يمكن حدوثه إن كان الإنسان مخلوقًا مباشرًا لله العليم الحكيم![٢] وتابعه على هذا المسلك د. عمرو شريف[٣]، بل وافقه في التعبيرات كاتهام كولينز للتوراتيين أتباع مذهب الخلق المباشر بأنهم يفسرون الأدلة العلمية على التطور على أنها تعني أن الله يخدعنا ليختبر شدة إيماننا، ويقرعهم على هذا المسلك المثير للشفقة في فهم الظواهر الطبيعية[٤]،

---

(1) Collins, p. 191

(2) Ibid., pp. 124, 126, 130–138

(٣) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٢٩٠

(4) Collins, p. 176–179

وكذلك استخدام د. عمرو شريف لنفس المنطق في سياق رده على المعارضين لنظرية التطور قائلاً: «ما يقوله كثير من الخلقويين من أن الخالق يتعمد خداعنا ليوهمنا بحدوث التطور ليختبر إيماننا! [التأكيد من المؤلف]».[1]

ونحن لا يعنينا في هذا المقام الإجابة عن هذه الإشكالات التي يطرحها كولينز ويتابعه على بعضها د. عمرو شريف، حيث قام الباحث كيسي لسكين بالإجابة عنها من وجهة نظر علمية بحتة في فصل كامل من كتاب (العلم وأصل الإنسان).[2] إنما هذا الطرح يجرنا إلى سؤال خطير: إن كانت الكائنات الحية لا تدل على أنها من خلق إله قدير عليم حكيم، فمن الذي خلقها؟ يظهر من كلام كولينز واستدلالاته أنه يقصد أن الكائنات الحية ليست من خلق الله المباشر، بل هي نتاج الطبيعة الصماء العمياء والتطور العشوائي، وبالتالي فاللاهوت الجديد الذي اخترعه كولينز يجعل في العالم إلهين: إله حكيم عليم خلق لحظة الانفجار العظيم وضبط إعداداتها، وإله أحمق أخرق خلق كل ما سوى ذلك في العالم!! كمثل عقيدة المجوس في إله الخير وإله الشر! وهذه هي النتيجة المنطقية المتوقعة من الاعتقاد بصحة نظرية التطور الداروينية بجميع أركانها حيث يصير الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئًا على وجه الحقيقة إلا الانفجار العظيم والنفخة الروحية للإنسان المنحدر من القردة العليا! والمرء يتسائل في حيرة: كيف كنا سنعلم أن الله موجود قبل ظهور نظرية الانفجار العظيم واكتشاف قوانين الفيزياء الحديثة؟ فإذا كان كل ما نراه في السماء والأرض

---

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٢٩٠

(٢) تأليف آن جوجر ودوجلاس آكس وكيسي لسكين، ترجمة د. مؤمن الحسن ود. موسى إدريس، مركز براهين، الطبعة الأولى ديسمبر ٢٠١٤، فصل (الحمض النووي الخردة والاندماج الصبغي وفرانسيس كولينز) ص٩٨-١١٥

والنجوم والشمس والقمر والجبال والبحار والأشجار والطير والدواب والأنعام وفي الإنسان لا يدل على وجود الله، فكيف كنا سنعرف وجوده إذن؟ وكيف يخبرنا الوحي أن كل ما نراه حولنا هو من آيات الله في الخلق؟ هل كان الوحي يخدعنا ليختبر إيماننا كما يزعم كولينز في حق الخلقيين الإنجيليين؟ أم أن أطروحة كولينز كلها لا تستقيم أبدًا لا مع الفطرة ولا مع العقل ولا مع الوحي المنزل؟ بل هل يؤمن كولينز – وهو من أتباع الكنيسة الإنجيلية- أن الله خرق قوانين الكون وشق البحر لموسى وجعل مريم تضع عيسى من غير أب وصنع المعجزات المذكورة في كتب أهل الكتاب؟ وهل يعتقد أن الله خرق القوانين وأنزل الوحي على أنبياء بني إسرائيل وتواصل مباشرة مع خلقه؟ كيف يستقيم هذا التصور العبثي العشوائي للخلق مع ما نقرءوه نحن المسلمين في القرآن من الدعوة إلى التدبر في آيات الله في خلق كل ما نراه حولنا من الطير والشجر والدواب وحتى النمل والنحل؟!

يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فآيات الله في الكون وفي الإنسان ترشدنا إلى الحق سبحانه وتعالى، لكن فرانسيس كولينز يرى أن النظام السماوي أو النظام الكوني فقط فيه آياتٌ على وجود الله لأجل انتظام القوانين وضبطها الدقيق، بينما يرى أن الإنسان ليس فيه أي آياتٍ على وجود الله لأنه مكدس بالأعضاء رديئة التصميم والأعضاء عديمة الوظيفة والحمض النووي الخردة عديم الفائدة! يقول جل وعلا: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1] فآيات الله موجودة في خلق الإنسان والحيوانات، لكن كولينز بالطبع له رأي مخالف!

---

(١) سورة الجاثية: ٤

كذلك قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] يشير إلى أن كل النبات من النخل والأعناب والزيتون والرمان من آيات الله للمؤمنين، قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره إن في إنزال الله من السماء الماءَ الذي أخرج به نباتَ كل شيء, والخضِرَ الذي أخرج منه الحبَّ المتراكب, وسائر ما عدَّد في هذه الآية من صنوف خلقه =" لآيات "، يقول: في ذلكم، أيها الناس، إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره, وعند ينعه وانتهائه, فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموّه, علمتم أن له مدبِّرًا ليس كمثله شيء, ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد, وكان فيه حجج وبرهان وبيان =" لقوم يؤمنون "، يقول: لقوم يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء. وخصّ بذلك تعالى ذكره القوم الذين يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله والمعتبرون بها, دون من قد طَبعَ الله على قلبه، فلا يعرف حقًّا من باطل، ولا يتبين هدًى من ضلالة».

لكن كولينز يرى أنها ليس من آيات الله بل هي نتاج الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي ولا تدل على وجود الله أو صفاته، فهل الله في القرآن يتعمد خداعنا عندما يستدل بهذه الآيات أم أن لاهوت البيولوجوس الذي يبشر به كولينز لا يستقيم أصلاً مع معطيات الوحي –فضلاً عن الفطرة والعقل والحس– الذي أنزل إلينا ولا يمكن أبدًا التوفيق بينهما؟

---

(١) سورة الأنعام: ٩٩

ولأجل هذا الطرح المنافي للفطرة السليمة والعقل السليم نجد أن د. عمرو شريف -مع موافقته لكولينز جزئيًا فيما يتعلق بالحمض النووي البشري- يشير إلى التصميم الموجود فيما حولنا كبرهان على وجود الله تبارك وتعالى[١]، ويدافع عن سلامة تصميم العين وأنه ليس قاصرًا كما زعم كولينز[٢]، ويدافع عن مفهوم التعقيد غير القابل للاختزال الذي وضعه مايكل بيهي ضد اعتراضات كولينز ويعتبر أن بيهي قد انتصر بالضربة القاضية على مخالفيه ومنتقديه.[٣]

أما الإشكال الآخر المتعلق بالحمض النووي الذي يزعم الداروينيون أنه عديم الوظيفة، ويوافقهم في هذا الزعم أنصار التطور الإلهي مثل كولينز[٤] ويتابعهم د. عمرو شريف[٥]، فحقيقته أنه رغم جاذبيته الظاهرية يعجز عن التفرقة بين أمرين: كون الشيء بلا وظيفة ولا فائدة، وكونه ذي وظيفة وفائدة غير معلومة لنا. قد يصور لنا الغرور العلمي أننا نعلم كل شيء ويجعلنا نصدر أحكامًا على أجزاء كبيرة من الحمض النووي تبلغ حوالي ٩٨% منه أنها بلا وظيفة وأنها خردة عديمة الفائدة، فنسعى في تفسير وجود هذا الحمض النووي عديم الفائدة بأنه نتاج التطور الدارويني العشوائي، ثم عندما يبدأ العلم والعلماء في اكتشاف وظائف هذا الحمض النووي رويدًا رويدًا ينحسر التفسير الدارويني رويدًا رويدًا، فيكون التفسير الدارويني في الحقيقة ليس إلا محاولة لملء الفجوات المعرفية ولسد الفراغ الذي خلقه جهلنا العلمي، ثم مع تقدم

---

(١) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٢١٨

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٠-٢٣٢

(٣) المصدر السابق، ص٢٢٥-٢٣٠

(4) Collins, pp. 126–138

(٥) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص٢٨٩-٢٩٠

العلم ينحسر التفسير الدارويني ويتقلص حتى يتلاشى تمامًا. فبينما يزعم فرانسيس كولينز ود. عمرو شريف والداروينيون جميعًا أن الحمض النووي عديم الفائدة يقدم أقوى الأدلة على صحة نظرية التطور، فهم في حقيقة الأمر يبنون استدلالهم على جهالات، وكلما تعلمنا المزيد والمزيد عن الحمض النووي، وكلما اكتشفنا العديد من الوظائف لهذه الأجزاء من الحمض النووي، كلما انحسر الجهل الذي أسس لبناء هذا الاستدلال الدارويني. إنها فعلاً مفارقةٌ مثيرةٌ للسخرية أن يقع كولينز وغيره في نفس فخ الفجوات المعرفية والاستدلال بالجهل الذي ينكرونه على أنصار الخلق الإلهي المباشر.

ومن المفارقات الأكثر إثارة أن د. عمرو شريف بعد أن استدل بتشابه الحمض النووي عديم الوظيفة بين الإنسان والفأر كما فعل كولينز ليثبت أن الأصل المشترك حقيقة بيولوجية[1]، عاد وقال في نفس الكتاب عن القائلين بالتصميم الذكي: «رأى هؤلاء استحالة أن يكون المصمم الذكي قد قام بهذا العبث وسوء الاستخدام، وأنه وضع هذه الكميات الهائلة التي لا لزوم لها من المادة الحية داخل الخلية. وهذا ما ثبت بالفعل، إذ تبين أن للدنا الذي سُمي مُهملاً أو سقطًا وظيفة حيوية لا تقوم حياة بدونها [التأكيد من المؤلف]». [2] فهل له وظيفة كما يقول منظرو التصميم الذكي – ونقول نحن كذلك- أم أنه بلا وظيفة كما يقول كولينز حتى يستقيم استدلاله به في

---

(١) المصدر السابق، ص٢٨٩-٢٩٠

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٤

إثباتِ الأصل المشترك؟ تناقضٌ عجيبٌ يضاف إلى رصيد د. عمرو شريف من التناقضات![1]

الفرضية الزائدة:

يجيب كولينز عن أحد الاعتراضات ضد مفهوم البيولوجوس بأنه يخلق تناقضًا بين مفهوم الإله العليم الحكيم الرحيم والخلق الذي تسوده العشوائية والفوضى والصراع من أجل البقاء قائلاً إن «التطور قد يبدو لنا تقوده الصدفة، لكنه من جهة الله فإن النتائج النهائية محددة مسبقًا. فالله قد يكون منخرطًا بالكامل في خلق كل الأنواع الحية، بينما من منظورنا المحدود بتأثير الزمن الخطي يبدو عملية عشوائية غير موجهة».[2] فالله عند كولينز يوجه عملية غير موجهة، والخلق موجه وعشوائي في نفس الوقت، لكن المشكلة في منظورنا نحن! تناقضات عقلية ترتكب بمنتهى الأريحية!

لكن في الحقيقة لم نعرف ما سيكون عليه جواب كولينز بخصوص وجود التصميم السيئ في جسم الإنسان والحمض النووي الخردة عديم الفائدة، هل الله هو الذي خلقه؟ أم أن الله لم يخلقه وخلقه إله آخر؟ هل قام الله بتوجيه عملية التطور العشوائية وانخرط فيها بالكامل ليكون نتاجها حافلاً بسوء التصميم والحمض النووي الخردة عديم الفائدة؟ كنت أتطلع بشدة لمعرفة جواب كولينز عن هذه الأسئلة.

---

(١) انظر مقال (التناقض المعرفي)

(2) Collins, p. 205

ثم لماذا نحتاج إلى افتراض وجود إله في الأساس؟ أليس التطور الداروني عن طريق الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي يفسر كل أشكال الحياة الموجودة على الأرض؟ ثم نشوء الكون يمكن تفسيره عن طريق الإلحاد بنظريات مثل الأكوان المتعددة أو الصدفة المحضة؟ إذن لماذا نجد أنفسنا مضطرين إلى افتراض وجود إله مع لاهوت البيولوجوس الذي يبشر به فرانسيس كولينز؟ أليس منافيًا للعقل السليم والمنطق الصحيح أن نفترض وجود إله حكيم عليم قدير منخرط في عملية الخلق العشوائية الصدفوية غير الموجهة ليخرج لنا كائنات رديئة التصميم مكتظة بالحمض النووي الخردة؟!

هل وجود الله يفسر وجود الكون وما فيه من مخلوقات على اختلافها وتنوعها؟ هل عنوان الكتاب (لغة الإله؛ عالم يقدم برهان الإيمان) يعني أن مؤلفه يقدم لنا الدليل العلمي على وجود الله؟ للأسف يجيبنا كولينز بالنفي، فالعلم لا يدل على الله، «البيولوجوس لا يقصد به أن يكون نظرية علمية. وحقيقته لا يمكن اختبارها إلا بالمنطق الروحاني للقلب والعقل والنفس».[1] «الله خارج الطبيعة، وبالتالي فالعلم لا يستطيع أن يثبت أو ينفي وجوده»[2]، فالله عند كولينز مجرد فرضية زائدة لا يحتاجها العلم لتفسير وجود الكون أو وجود المخلوقات، ونحن باستطاعتنا تفسير جميع ظواهر العالم تفسيرًا إلحاديًا دون الحاجة إلى افتراض وجود إله خالق مدبر قيوم.

---

(1) Ibid., p. 204

(2) Ibid., p. 165

وهل هناك أسوأ من أن يقال لنا إن العلم لا يؤدي إلى الإيمان وأن آيات الله في الكون وجميع المخلوقات في الحقيقة لا تدل عليه وأنه لا يمكن معرفة وجود الله عن طريق تأملها وتدبرها والتفكر فيها؟ فبأي آلاء ربكما تكذبان؟!

فرانسيسكو آيالا وسؤال
وجود الشر في العالم

من ضمن الأسئلة التي يتناولها علماء العقيدة المسلمون وكذلك اللاهوتيون النصارى وغيرهم من الفلاسفة سؤال وجود الشر في هذا العالم، حيث يزعم وجود تناقض بين المقدمات التالية:

- الله خالق كل شيء

- الله قدير

- الله عليم

- الله رحيم

- الشر موجود في هذا العالم.

بالنسبة للمسلم لا يوجد تناقض هاهنا لأن وجود الشر في العالم ليس شرًا محضًا خالصًا، بل هو شرّ نسبيّ فيه من الخير ما يفوق الشر، فمحصلة الشر القليل + الخير الكثير في مصلحة كفة الخير. ومن أمثلة ذلك قصة الخضر عليه السلام حيث أرتكب أفعالاً ظاهرها الشر لكنها تحمل في باطنها الخير الوفير، وكذلك قصة يوسف عليه السلام عندما ألقاه أخوته في غياهب الجب ليباع رقيقًا، فهذا الشر في حق يوسف كان مفتاح الخير الكبير جدًا عليه وعلى جميع عشيرته.

فعند سرد هذه المقدمات نجد أن أحدها فيه خلل وهو الأخير؛ لأنه يذكر الشر دون الإشارة إلى الخير الأكبر منه، وقد استفضت في هذه المسألة في غير هذا الموضوع.[1] المقصود أن من يتجه لرفع هذا التعارض يكون مطلوبًا منه أن ينفي أحد هذه المقدمات حتى ينتفي التعارض، فبينما يذهب المسلمون وأهل الكتاب إلى التفصيل في المقدمة الأخيرة عن وجود الشر في العالم ليبينوا أنه ليس شرًا محضًا بل مختلط بالخير الأكثر والأوفر، نجد أن العالم التطوري الكاثوليكي فرانسيسكو آيالا ينفي المقدمة الأولى وهي أن الله خالق كل شيء، فيقول إن الشر الموجود في العالم ليس من خلق الله المباشر بل هو من خلق الانتخاب الطبيعي والتغيرات العشوائية!

يتبنى العديد من أنصار التطور الإلهي هذا الطرح العجيب ويزعمون أنه يحل مشكلة وجود الشر بأفضل مما تطرحه الأديان الكتابية مثل الإسلام والنصرانية واليهودية، فكون الله خالق كل شيء يجعل مشكلة الشر –من وجهة نظر القوم- غير قابلة للحل، وأن هذا يؤدي إلى أن يكون الله هو خالق كل ما نراه من سوء تصميم في المخلوقات ومن قسوة وبشاعة في طبائع الأحياء!

ومن أبرز هؤلاء التطوري الكاثوليكي فرانسيسكو آيالا حيث يقول: «عبءٌ كبيرٌ قد ارتفع من على أكتاف المؤمنين عندما بان الدليل المقنع على أننا لسنا بحاجة إلى نسبة تصميم الكائنات إلى خلق الله المباشر، بل كنتيجة للعمليات الطبيعية»،

---

(١) انظر الإلحاد للمبتدئين، مركز براهين، الطبعة الثانية، ص١٤٥ وما بعدها.

وكذلك الجواب عن سؤال الشر، كتاب إلكتروني من إصدار منتدى التوحيد ويمكن تحميله من هذا الرابط:

http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?58832

ومن وجهة نظره.فإننا «إذا زعمنا أن الكائنات وأجزاءها قد صممها الله خصيصًا، فلابد أن نبرر سبب التصميم الناقص لفك الإنسان وضيق قناة الولادة وعمودنا الفقري رديء التصميم الأدنى من أن يتناسب جيدًا مع المشي المنتصب»، فهنا يقدم داروين منحة إلى الدين ليستنقذه من هذه الإشكالية وأننا في أمس الحاجة إلى «معرفة ثورة داروين وقبول الانتخاب الطبيعي على أنه هو العملية التي أدت إلى نشوء تصميم الكائنات الحية بما فيها من عيوب وقصور وقسوة وسادية تهيمن على عالم الأحياء، وأن نسبة هذه الأشياء إلى خلق الله الخاص يؤدي إلى الكفر».[1]

هنا يسعى آيالا إلى قلب الطاولة على أنصار الخلق الإلهي المباشر، فمحاولتهم تعليل التصميم البارع بأنه من خلق الله يؤدي إلى تعليل التصميم الرديء أيضًا بأنه من خلق الله مما يقدح في حكمة الله وعلمه وقدرته، وهذا كفر! نعوذ بالله من الكفر! لهذا فمن الأفضل –من وجهة نظره– أن ينسب تصميم المخلوقات كلها جيده وسيئه إلى الانتخاب الطبيعي والطفرات العشوائية! يقول د. أحمد شوقي أستاذ الوراثة بجامعة الزقازيق: «إن آيالا –بخلفيته اللاهوتية والعلمية– يشير إلى ما يواجهه الإنسان من شرور وآلام في العالم، حيث تقع عليه المسئولية في بعضها (التمييز والاستغلال والحروب... إلخ)؛ ولا حيلة له في بعضها الآخر (الأوبئة والكوارث الطبيعية مثلاً). كما يشير إلى ما يحدث في الكائنات من إعاقات وراثية، أو عدم القدرة على التكيف مع البيئة؛ مما أدى إلى انقراض كثير من الكائنات. ويرى في ذلك تعارضًا مع الفكرة السطحية للتصميم الذكي، وينزه الخالق عن تصورنا القدرة على الحكم على ذكائه وذكاء تصميمه لمخلوقاته، ومدى كمالها أو قصورها. وإذ أشاركه هذا التنزيه، الذي يتفق مع الإيمان الصادق بالله الذي "ليس كمثله شيء"، أضيف أنه "خلق الإنسان

(1) Francisco Ayala, Darwin's Gift to Science and Religion (Washington: Joseph Henry Press, 2007), pp. 159–160

في كبد" كما أخبرنا، وأمده بالعقل الذي يمكنه من التعامل مع كل أشكال الكبد، وبناء حضاراته بمواجهة تحدياتها».[1]

لكن الحقيقة أن هذا لا يحل المشكلة كما يتصور آيالا وغيره من أنصار التطور الإلهي، فإنه لا فرق حقيقي بين أن تقول إن الله خلق التصميم السيء مباشرة أو أن تقول إنه خلقه بواسطة التطور الدارويني، فهو في النهاية خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، فوقوع التصميم السيء لا يخرج عن قدرة الله وإرادته مهما حاولنا التلاعب. وإلا فما الفارق بين أن تشوه وجه شخص ما بقبضتيك العاريتين وأن تطلق عليه كلبًا شرسًا ليمزق ملامحه؟ في الحالتين تقع المسئولية عليك كاملة. وهل إذا قام عالم في مختبره بإطلاق مجموعة من الفئران الحاملة لميكروب الطاعون في قرية ما حتى فشا في أهلها الطاعون وهلك الكثير منهم، هل يمكننا في هذه الحالة أن نقول إن هذا العالم ليس مسئولاً عن انتشار الطاعون وهلاك الناس؟! في الحقيقة هي محاولة فاشلة تمامًا من آيالا ومن يوافقه.

لكن الخطورة الحقيقية لهذا الطرح أنه يقدم مظاهر قسوة الحياة والصراع الشرس بين المخلوقات وكذلك ما يزعم أنه تصميم سيء ورديء على أنها شر حقيقي محض ليس فيه خير وليس من ورائه حكمة ولا غاية، فهو يطلق على هذه المظاهر حكمًا قيميًا بأنها من الشر المحض الخالص الذي لا خير فيه ولا حكمة، وبما أن الله يتنزه عن الشر المحض فلابد أنه لا تجوز نسبته إلى الله جل وعلا، وبالتالي نبحث له عن خالق آخر يتحمل مسئولية وجوده في الحياة!

---

(١) د. أحمد شوقي، ثلاث قصص علمية، مكتبة الأسرة ٢٠١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٧٠

وهم في هذا يختلفون عن سائر المؤمنين بوجود الله وحكمته في الخلق الذين يرون أن كل هذه المظاهر تحمل في باطنها حكمةً بالغةً وغايةً مرسومةً وخيرًا وفيرًا، وليست شرًا محضًا على الإطلاق. أما الملاحدة فهم من ينكرون وجود الحكمة لمجرد الجهل بها، ويحكمون على كل ما يجهلون حكمته بأنه عديم الحكمة، وبالتالي هو شر خالص يتناقض وجوده مع الإيمان بالله الخالق القدير العليم الحكيم الرحيم، وجديرٌ بالمعرفة أنهم يقفون في الجانب الخطأ لأنه لا يجوز إنكار الحكمة من منطلق الجهل بها.(١)

---

(١) الطريف بعد كل هذا أنه بينما يرى أنصار التطور الإلهي أن نظرية داروين تساعد في حل مشكلة الشر يرى الملاحدة أنها -على العكس- تؤدي لتكريسها وتقدم لها أقوى الأدلة؛ يقولون: ما هذا الإله الذي يخلق الحياة بكل ما فيها من وحشية وإهدار؟! يقول التطوري دوجلاس فوتوياما بعد أن سرد بعض الأمثلة على وحشية الانتخاب الطبيعي: «وماذا علينا أن نفهم من هذه الحالات من الانتقاء الطبيعي التي بعدت عن كل الأعراف والتقاليد؟ هل هي لحظات من الحكمة الإلهية؟ هل يتوافق مع المفهوم الإلهي للتناغم أن ذكر عجل البحر الفيلي يتصارع بوحشية من أجل الإناث لدرجة أن كثيرًا منهم يموت بسبب الجروح الدموية؟ هل يتطلب الرب من الطاووس أن يحمل مثل ذلك الريش الطويل، وهو الأمر الذي يجعل الطيران بالنسبة للطاووس صعبًا وحتى يمكنه جذب الإناث ويؤكد بقاء أنواعه؟» (دوجلاس فوتوياما، العلم قيد المحاكمة، ترجمة أحمد فوزي، مراجعة فتح الله الشيخ، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص ٣٢٢).

يحكي ديفيد كوامن عن داروين أن هذه المسألة كانت أسباب تخليه عن ديانته النصرانية، يقول: «كف داروين عن أي اعتقاد عام في وجود إله مشخص. ماذا عن وجود الشر في عالم يفترض أنه تديره ذات إلهية رحيمة كلية الوجود؟ كتب داروين أن هذا أمر غير منطقي للغاية، "وهو يجافي فهمنا"» (ديفيد كوامن، داروين مترددًا، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فتحي، مراجعة محمد فتحي خضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠١٣، ص ٢٧٧).

لهذا فإن سر خطورة هذا الطرح عند أنصار التطور الإلهي هو أنه يقفز بنا إلى درجة مقلقة من الذوبان في الفلسفة الإلحادية والرؤية الإلحادية للحياة وللعالم وللكون، فهم بدلاً من أن يقربوا نظرية التطور بظلالها الإلحادية إلى الطرح الديني الإيماني قاموا بتقريب الطرح الديني في مسألة عقدية مشهورة إلى الرؤية الإلحادية، وكأنهم بدلاً من أن يقربوا علماء التطور الملاحدة إلى الإيمان قاموا بتقريب المؤمنين إلى الإلحاد، والله المستعان! وجهة نظري الخاصة أن آيالا وغيره لا يملكون الحق في مطالبة المؤمنين بمراجعة معتقداتهم حتى تتفق والتطور الداروني، فالمؤمن بالله وباتصافه بصفات الكمال لا يجد عسرًا في الجواب عن سؤال الشر ولا يجد وجود

داروين نفسه يشير إلى تاريخ الحياة على أنه "معركة الحياة العظيمة" و"حرب الطبيعة"، يقول: «من قلب حرب الطبيعة ومن المجاعة والموت نشأ مباشرة أعظم شيء يمكن إدراكه، إلا هو نشوء الحيوانات العليا» (Charles Darwin, On the Origin of Species, facsimile 1st ed. (1859; reprinted Cambridge: Harvard University Press, 1964), p. 490).
يعتبر صراع الكائنات من أجل البقاء من المحاور المركزية في نظرية داروين حيث تكمن في هذا الصراع القدرة على إبداع الكائنات الحية. فرغم كل شرور الانتخاب الطبيعي فهذه الشرور كلها مبررة لبلوغ الخير الأكبر ألا وهو السعي المستمر نحو إحراز الكمال، يقول داروين: «بينما يعمل الانتخاب الطبيعي فقط عن طريق ولأجل مصلحة كل كائن، فإن كل الهبات العقلية والبدنية سوف تميل للتقدم نحو الكمال» (Darwin, Origin of Species, p. 489)، وهكذا اكتملت الصورة ليتم تأليه التطور وتقديس الانتخاب الطبيعي، من المؤسف حقًا أن يؤدي الانتخاب الطبيعي إلى هذه الشرور، لكن هذه الشرور كلها مبررة لأجل الهدف الأسمى وهو التطور والترقي نحو الكمال، هناك فعلاً عظمة في هذه النظرة للحياة كما يقول داروين (Ibid., p. 490) وأتباعه! وهذا هو سر العظمة، عظمة التطور، وكما يقول الإنجليز لكي تصنع طبقًا من الأومليت أنت بحاجة إلى كسر بعض البيض، والتطور يعرف بالضبط كيف يكسر البيض!

الشر في العالم متناقضًا مع إيمانه، بل لديه من الأجوبة والردود ما هو أصح عقلاً وشرعًا مما يطرحه أنصار التطور الإلهي، لكن الأمر قد صار أشبه بأن تعتنق الداروينية بكامل أطروحاتها ثم تحاول أن تعدل من معتقداتك لتوافقها، وهذا وضع غاية في البؤس بالنسبة لقضية الإيمان للأسف.

لأجل هذا تخبرنا الإحصائيات أن نسبة الملحدين واللاأدريين بين طلبة وعلماء الأحياء مرتفعة بشكل ملحوظ، وهي أكثر ارتفاعًا من نسبتهم في المجتمع بل حتى بين المتخصصين من سائر التخصصات العلمية، ففي استبيان تم داخل الجامعات والكليات الأمريكية عام ٢٠٠٧ وجدوا أن نسبة من يعرفون أنفسهم بأنهم ملحدون أو لاأدريون بين المشتغلين في مجال الأحياء ونظرية التطور بلغت ٦٠٪[1] وكذلك ٩٥٪ من علماء الأكاديمية الوطنية للعلوم في أمريكا يصنفون أنفسهم بأنهم ملحدون ولاأدريون.[2] وفي استبيان آخر جرى بين العلماء البارزين في مجال التطور وجد أن ٨٧٪ منهم ينكرون وجود الله، و٨٨٪ ينكرون الحياة الآخرة بعد الموت، و٩٠٪ ينكرون أن يكون للتطور موجهًا لغاية أو هدف.[3]

---

(1) Neil Gross and Solon Simmons, "How Religious are America's College and University Professors?" (Feb. 6, 2007), available at: http://religion.ssrc.org/reforum/Gross_Simmons.pdf

(2) See Larry Witham, Where Darwin Meets the Bible: Creationists and Evolutionists in America (New York: Oxford University Press, 2002), pp. 271–273.

(3) Gregory W. Graffin and William B. Provine, "Evolution, Religion and Free Will," American Scientist 95 (July–August 2007): pp. 294–297; results of Cornell Evolution Project survey, at: http://www.polypterus.com/results.pdf

فالداروينية في جوهرها فلسفة إلحادية لا تتفق مع الإيمان بالله العليم الحكيم الخبير، ومن الجليّ أن أنصار التوفيق بين الإيمان بالله ونظرية التطور يعانون فعلاً من مشاكل غير هينة في تصورهم لحقيقة النظرية وأسسها الفلسفية وبنائها المعرفي وفي الدرجة المطلوبة من العمق في تناولها وتناول أطروحاتها.

ملحق

خرافة نسبة نظرية التطور للمسلمين من قبل داروين

بقلم:

د. حسام الدين حامد

خرافة نسبة نظرية التطور للمسلمين من قبل داروين

قد ظهر في ساحة "الإنتاج الفكري" في الآونة الأخيرة، جماعةٌ أخذتهم نظرية التطور والهالة الدعائية حولها، فظنّوا أن النظرية صارت حقيقةً علميةً مبرهنة، وما ذاك إلا لبعدهم عن دائرة الجدل حول النظرية، فتسلطت عليهم النظرة الأحادية، فزعموا أن نظرية التطور "العلمية" لا تعارض الإسلام، ثم راموا سلفًا لهم فوجدوا نصوصًا لبعض المتقدمين، فأساءوا فهمها لعدم التصور الصحيح، وهكذا تحقق مرادهم من نفي التعارض، ثم وجدوا سلفًا في هذا النفي، وليس من غرضي هنا أن أبين وجه التعارض، ولكن المقصود هنا أن نرى السلف المزعوم، وكيف يُفهم كلامهم على وجهه، ثم كيف خرج الجهل بمقصودهم إلى نقيضه، ليصير كلامهم من دعائم الإعجاز العلمي في "موافقة الإسلام لنظرية التطور"!!

وأبدأ بأقوى ما نقلوه دلالةً على مرادهم في نظرهم، وهو نقلٌ عن أبعد السلف المزعوم عن هدي الكتاب والسنة، وذلك ما ورد في (إخوان الصفا) من أن: «الكائنات التي دون فلك القمر وهي أربعة أجناس: المعادن والنبات والحيوان والإنسان، وذلك أن كلَّ جنسٍ منها تحته أنواعٌ كثيرة، فمنها ما هو في أدون المراتب، ومنها ما هي في أشرفها وأعلاها، ومنها ما هي بين الطرفين، فادون أطراف المعادن مما يلي التراب الجص والزاج وأنواع الشبوب، والطرف الأشرف الياقوت والذهب الأحمر، والباقية بين هذين الطرفين من الشرف والدناءة كما بينا في رسالة المعادن، وهكذا أيضًا حكمُ النبات فإنها أنواعٌ كثيرةٌ متبائنةٌ متفاوتة، ولكنّ منها ما هي في أدون الرتبة مما يلي رتبة المعادن وهي خضراء الدمن، ومنها ما هي في أشرف الرتبة مما يلي رتبة الحيوان وهي شجرة النخل.. واعلم يا أخي أن أول مرتبة الحيوان متصلةٌ بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان متصلةٌ بأول مرتبة الإنسان، كما أن أول مرتبة

النباتية متصلٌ بآخر مرتبة المعدنية، وأول مرتبة المعدنية متصلٌ بالتراب والماء كما بينا قبل ذلك، فأدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسةٌ واحدةٌ فقط وهو الحلزون.. رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسانية لما كانت معدنًا للفضل، وينبوعًا للمناقب لم يستوعبها نوعٌ واحدٌ من الحيوان ولكن عدة أنواع، فمنها ما قارب رتبة الإنسانية بصورة جسده مثل القرد، ومنها ما قارب بالأخلاق النفسانية كالفرس في كثيرٍ من أخلاقه، ومنها كالطائر الإنساني أيضًا ومثل الفيل في ذكائه، وكالببغاء والهزار ونحوهما من الأطيار الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات، ومنها النحل اللطيف الصنائع.. فهذه الحيوانات في آخر رتبة الحيوان، مما يلي رتبة الإنسان، لما يظهر فيها من الفضائل الإنسانية، وأما باقي أنواع الحيوانات فهي فيما بين هاتين المرتبتين».[(١)]

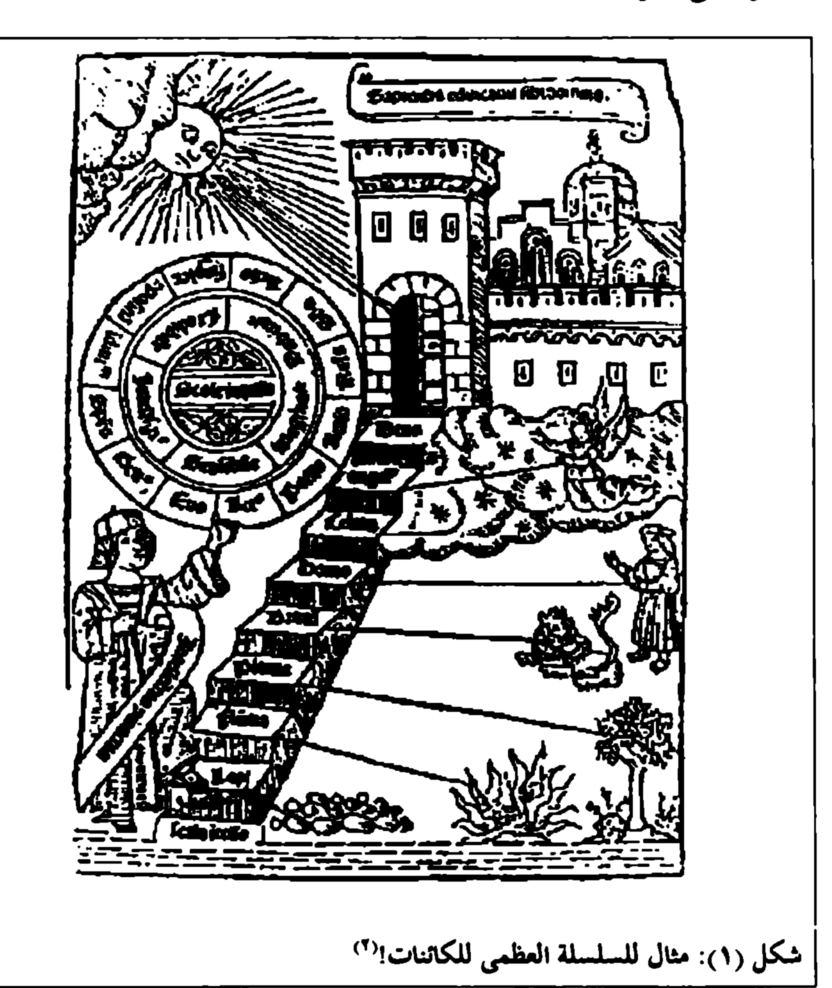
وبمثل هذا النقل وأدنى منه في الوضوح، نُسب القول بنظرية التطور إلى القزويني والفارابي وابن مسكويه وغيرهم، رغم أنّ هذا النقل وأمثاله لا يمت إلى نظرية التطور بصلة، بل على العكس من ذلك، فإنّه يصب في صالح قضيةٍ حلّت نظرية التطور محلها، وهي قضية (السلسلة العظمى للكائنات)، تلك القضية الفلسفية التي ينسب وضعها إلى أفلاطون، ومنه انتقلت إلى الفلسفة العربية والأوروبية على السواء، وسأبين هذه القضية وما آلت إليه باختصار، ثم أعود إلى كلام (إخوان الصفا) لننظر إليه في ضوء ذلك!

قد نشأ مفهوم (السلسلة العظمى للكائنات) Great Chain of Beings في الفكر اليوناني من القدم، تتراص فيه الكائنات الصنف تلو الآخر، في القاع تقبع الجمادات، يليها النبات ثم الحيوان، ثم الإنسان ثم الملائكة ثم الرب، وهذا الترتيب

---

(١) إخوان الصفا وخلان الوفا: (٢ / ١١١- ١١٥).

لا يعني أن الكائنات يمكن أن تتحول من نوعٍ إلى الذي يليه، بل هو ترتيبٌ وصفيٌّ لحالةٍ ثابتةٍ تتدرج فيها الكائنات في الشرف من أدنى إلى فاضل، فالخالق خلق الكائنات جميعًا مرةً واحدة، ثم ينظر الفيلسوف ويرتب هذه الكائنات من حيث الفضل أو الحيوية، دون أن يعني ذلك أن الحيوان يتحول إلى إنسان، أو أن النبات يتحول إلى حيوان!



شكل (١): مثال للسلسلة العظمى للكائنات![٢]

(2) Michael Ruse, The Evolution Wars: A Guide to the Debates, p21.

وبمرور الوقت اكتُشِفت أنواعٌ جديدةٌ من الحيوانات، لتأخذ مكانها –أو بتعبير أدق لتوضع– في هذه السلسلة بحسب ما يُنسب لها من صفات، حتى بدأ اكتشاف كائناتٍ منقرضةٍ يزعزع الثقة في مفهوم السلسلة، وكانت هذه ضربةً قويةً لمفهوم الكمال المفترض في السلسلة، وظهرت الحاجة لتطوير هذه السلسلة والتعديل فيها، وبالفعل تعرضت لتعديلاتٍ كثيرة، حتى آل الأمر حديثًا إلى التصور الشجري للكائنات الحية، حيث التفرع والتشعب، ولا مانع من انتهاء أحد الفروع عند جنسٍ منقرض، وفي هذا التصور ينتج كلُّ فرعٍ عن أصله.

ونعود إلى نص (إخوان الصفا) فنجد أنه ينسجم مع فكرة (سلسلة الكائنات)، فما هو إلا ترتيب الكائنات جميعًا، دون ادعاء أن نباتًا يتحول إلى حيوان، أو أن حيوانًا يتحول إلى إنسان، وكيف ينسب القول بالأصل الواحد للأنواع لمن يقول: «واعلم يا أخي بأن الحيوانات التامة الخلقة كلها كان بدء كونها من الطين أولًا ذكرًا وأنثى، ثم توالدت وتناسلت وانتشرت في الأرض سهلًا وجبلًا وبرًّا وبحرًا من تحت خط الاستواء.. وهناك أيضًا تكون أبونا آدم أبو البشر وزوجته، ثم توالدا وتناسلت أولادهما وامتلأت الأرض منهم».(٣)

(٣) إخوان الصفا وخلان الوفا: (٢ / ١٢١).

فصل واعلم يا اخي بان الحيوانات التامة الخلقة كلها كان بدء كونها
من الطين اولا ذكرا وانثى ثم توالدت وتناسلت وانتشرت في الارض سهلا
وجبلا وبرا وبحرا من تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار
متساويين والزمان ابدا معتدلا هناك بين الحر والبرد والمواد المتهيئة لقبول
الصورة موجودة دائما وهناك ايضا تكون ابونا ادم ابو البشر وزوجته
ثم توالدا وتناسلت اولادهما وامتلأت الارض منهم سهلا وجبلا وبرا وبحرا الى
يومنا هذا ثم اعلم يا اخي بان الحيوانات كلها متقدمة الوجود على الانسان
بالزمان لانها له ولاجله وكل شيء هو من اجل شيء اخر فهو متقدم الوجود عليه

شكل (٢): صورة من (إخوان الصفا) تنفي تمامًا ما يقوم به بعض الكتّاب من محاولة نسبة القول بالتطور له.

فهذا مثالٌ من حال من يُنسب إلى القول بالداروينية، رغمًا عنه وليًّا لعنق قوله، في حين أنّ حقيقة قوله إثبات قضيةٍ حلت الداروينية محلها، وهي قضيةٌ ليست من الإسلام في شيء، وإنما دخلت في كتابات بعض أهل القبلة من تأثرهم بفلسفة اليونان، وإذ رأيتَ أن ما نسبوه لإخوان الصفا لا يصح، فمثله ما نُسب لابن مسكويه والقزويني وغيرهم، إذ ما استدلوا على نسبتهم للقول بالتطور، إلا بنصوصٍ تشبه —أو هي أدنى من— ما نقلتُ من (إخوان الصفا)، أُخذت بسوء فهمٍ وحكمٍ مسبق، وهي عندما تؤخذ في سياقها، تكون على نقيض ما نسبها إليه بعض الباحثين في التوفيق بين الإسلام ونظرية التطور!

وأشد من ذلك في الجناية على أصول البحث، ما فعله جون آفري[4] من نسبة القول بالتطور لابن رشد الحفيد خلفًا عن أرسطو، زاعمًا أن كتابات ابن رشد أحدثت

(4) John Avery, Information theory and evolution, p2.

صدمةً للقارئ المسلم والنصراني على السواء، ثم يزيد أن فكر ابن رشد وصل إلى أوروبا ومنه كانت البذرة التي نمت إلى الداروينية بعد ذلك، والسؤال الذي نبحث عن جوابه ليس في تأثير ابن رشد في الفكر الأوربي، ولا في دور ابن رشد في نشر فكر أرسطو، فذانك أمران ثابتان تضافرت على صحتهما الأدلة، ولكن السؤال هو عن قضية التطور في أنواع الكائنات الحية، هل حقًّا قال ابن رشد بها؟!

Quintum Volumen.

ARISTOTELIS

DE COELO,

De Generatione & Corruptione,

Meteorologicorum,

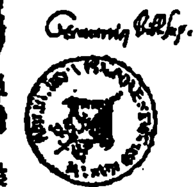
De Plantis

CVM

AVERROIS CORDVBENSIS

VARIIS IN EOSDEM

COMMENTARIIS.

VENETIIS APVD IVNCTAS.

M. D LXII.

شكل (٣): صورة[٥] من ترجمة شرح ابن رشد لأعمال أرسطو إلى اللغة اللاتينية في عام ١٥٦٢م.

(٥) د. عاطف العراقي، (الفيلسوف ابن رشد مفكرًا عربيًا ورائدًا للاتجاه العقلي)، ص ١٥.

الحقيقة أنّ الجواب عن هذا السؤال بالنفي من أوضح وأسهل ما يكون، إذ إن أرسطو نفسه لا يعرف عنه القول بتطور الكائنات الحية كما زعم آفري، بل القول بثبات الأنواع مشتهرٌ عنه بما يغني عن التوثيق، حتى أن بعض الباحثين في تاريخ الفلسفة يرى أنّ أرسطو هو أصل القول بثبات الأنواع في الفكر الإنساني، وهذه وإن كانت مبالغةً لا دليل عليها، إلا أنها تكفي في بيان مخالفة آفري وشططه في نسبة أرسطو للقول بالتطور، وقد تبعه في هذه النسبة موقعaboutdarwin.com ، فقد ذكر أنّ أرسطو «درس الحيوانات البحرية، ووضع أنموذجًا للتطور لا يعتمد على الجينات، ووضع نظامًا لتصنيف جميع الحيوانات»[٦] ونعم أيضًا..! فقد درس أرسطو الحيوانات البحرية وغير البحرية، ولكن لا يصح أن أرسطو قد وضع نظريةً أو أنموذجًا للتطور، وليس ثمّ دليلٌ على ذلك، وإنما الذي قاله أرسطو هو اختلاف الحيوية في النباتات عن بعضها، وكذا اختلافها في النبات عن الحيوان، ولم يقل بقابلية الأنواع للتحول إلى غيرها، وما قال بما يشبه نظرية التطور في شيء، فهذه جهة قويةٌ في نفي نسبة ابن رشد الحفيد للقول بالتطور خلفًا لأرسطو، إذ إن أرسطو نفسه لم يقل بالتطور!

ومن جهةٍ أخرى فإنّ مثل ابن رشد الحفيد، عندما يقول بفكرة تطور الكائنات الحية عن أصلٍ واحد، فهذه زلةٌ لها الطبل، وسيرد عليه كثيرٌ من أهل العلم، كما رُدّ عليه فيما وقع فيه من ضلالات، ولكنّ ذلك ما اشتهر عنه وما عرف، وما ردّ عليه في ذلك ولا شنّع عليه، ولا دليل على أنّ كلامه أحدث "صدمةً للقارئ المسلم والنصراني" على السواء!

---

(٦) انظر: www.aboutdarwin.com/literature/Pre_Dar.html آخر دخول بتاريخ ٢٠١٦/١/١.

ومن جهةٍ ثالثةٍ فإن البينة على من ادعى، ومن ينسب ابن رشد الحفيد للقول بنظرية التطور لا يوثق كلامه، وها هي كتبه ومؤلفاته لا نجد فيها أنموذجًا تطوريًا، ولا ذكر عنه خصومه والمبطلين لأقواله هذا القول، ويلخص ذلك جيدًا قول د. زينب عفيفي في دراسة ابن رشد للكائنات الحية: «والواقع أن فهمه لتلك الكائنات كان قائمًا على إدراكه لغاياتها ونشوئها وتطورها، كما هو الحال عند أرسطو، فتطور هذه الكائنات لم يكن قائمًا على أسس مادية فقط، بل على أسس غائية، وإن كان ذلك لم يبعده في دراسته لتلك الكائنات عن منهج المشاهدة والملاحظة، والاستقصاء والتجربة، مع التزامه بالأصول والمبادئ والعلل، التي قرّرها من قبل واعتبرها مبادئ للموجودات، يقول يوسف كرم: "إن الغائية تحكم تكيف الكائنات في البيئة، فكل كائنٍ في الطبيعة يحاول تحقيق كماله الممكن، والطبيعة تحقق هذا بدرجاتٍ متفاوتة، ولذلك نجده متابعًا لأرسطو، يبدأ بالمواد المعدنية في أسفل، ثم النبات، ثم يصعد أكثر وأكثر إلى الحيوان الكامل وأخيرًا إلى الإنسان، وكانت فكرة الثبات وعدم التغير في العالم تحكمه، ولذلك كان يؤكد أن الأنواع علاقات ثابتة أبدية للكمال أو عدم الكمال، وهذه الأنواع خالدة أبد الدهور، وهي توجد على الهيئة التي توجد عليها، وأن ما يطرأ عليها من تحولاتٍ كثيرةٍ فإنها لا تمس جوهرها"».(٧)

فالقول بنسبة نظرية التطور لابن رشد أو غيره من أهل القبلة قبل داروين، من المجازفة التي لا دليل عليها، وهي تقوم على غلطٍ كبير، وخطأٍ في فهم قول المتكلم، وعدم معرفةٍ بالسياق الذي يتكلم فيه، فإن اجتمع إلى هذا الرغبة في البحث عن سلف، سيما السلف "التنويري!" ذي الوزن، الذي يغلب على الظنّ أنه لن ينهض لتحرير مذهبه أحد، وزيد على ذلك أنّ هذا "عملٌ صالحٌ" يسعى المرء من خلاله

---

(٧) د. زينب عفيفي، العالم في فلسفة ابن رشد الطبيعية، ص ١٤٨.

للتوفيق بين "العلم!" والدين، تبين ضرورة الحذر من قبول مثل هذه الدعاوى، وأهمية العودة إلى الأصول لتمحيصها ومعرفة حقيقتها!

وفي هذا المقام يكون من القصور ألّا ننظر في قول الدكتور عبد الصبور شاهين وفقه الله، إذ إنّ المتوقع أن يبحث الدكتور عن سلفٍ له فيما ذهب إليه من وجود "أوادم" قبل آدم عليه السلام، ويغلب على ظنّي أن الدكتور لو وقفَ على النصوص المنقولة أعلاه لاستدل بها على وجود سلفٍ له فيما قال، بدلًا من أن يقول:

«إذا كان علماء السلف قد اتفق جمهورهم على أن آدم هو أول الخليقة، وأول ما خلق من تراب، فإن بعضهم قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فتصوروا لهذه الخليقة وجودًا ممتدًا في أعماق الزمان قبل آدم، ربما إلى ملايين السنين، والمهم أن أحدًا ممن قال بهذا المذهب لم يلق نكيرًا من الفريق الآخر.. بل عاشت الآراء المتناقضة جنبًا إلى جنب، حتى تلقيناها ورأينا كيف أنار الله بصيرة الأقدمين فامتدت رؤيتهم إلى أعماق الغيب قبل التاريخ على هذه الأرض، وتنوعت رؤيتهم تبعًا لاختلاف التخيلات، وما نحسب أنهم اعتمدوا على شواهدَ مادية.. بل هي محض تخيلاتٍ هداهم إليها تأملهم المنطقي في أحوال الدنيا.. "ذكر المسعودي في كتابه عن بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض قبل آدم ثمانيًا وعشرين أمةً على خِلق مختلفة، وهي أنواع: منها ذوات الأجنحة وكلامهم قرقعة، ومنها ما له أبدانٌ كالأسود ورؤوسٌ كالطير، ولهم شعورٌ وأذنابٌ وكلامهم دوي، ومنها ما له وجهان واحدٌ من قبله والآخر من خلفه، وأرجل كثيرة، ومنها يشبه نصف الإنسان بيدٍ ورجلٍ وكلامهم مثل صياح الغرانيق، ومنها ما وجهه كالآدمي وظهره كالسلحفاة وفي رأسه قرن وكلامهم مثل عوي الكلاب ومنها ما له شعرٌ أبيض وذنَبٌ كالبقر، ومنها ما له أنيابٌ بارزةٌ كالخناجر وآذانٌ طوال، ويقال: إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت مائة

وعشرين أمة" "المستظرف ./ ٣٩٨" هذه صورةٌ من تفكير الأقدمين وتخيلاتهم عن الماضي السحيق قبل هذه الخليقة، فقد لفقوا أشكالًا من المخلوقات لا دليل على أنها وجدت إلا في الاحتمال الخيالي، ومع ذلك يبقى –بعد استبعاد ما لا دليل عليه من الأشكال– أن الأرض كانت معمورة قبل آدم، سواء بمثل تلك الأصناف أو بأصناف أخرى كالديناصورات، أو الماموث أو بأوادم آخرين قبل آدم أبينا على ما قرره بعض العلماء، أي إن آدم لم يكن أول مخلوق عاقل على هذه الأرض».(٨)

فأبدأ في تناول هذه الفقرة التي خلطَ فيها باطلٌ بباطل، حتى ما يكاد المرء يميز ما يريد الدكتور قوله، أبدأ في تناولها من جهة موضوعنا، وهو السلف الذي بحث عنه الدكتور، وأحسب أن الدكتور ذهب في الكتب جيئةً وذهابًا فما وجدَ له سلفًا إلا في كتاب "المستظرف" ينقل عن "المسعودي"! ويبدو أنّ الدكتور لم ينقل من كتاب المسعودي لأنّه ما وجد هذا الكلام المنقول عند المسعودي حقًّا! فاكتفى بنقله من كتاب "المستظرف" ليكون سلفه (ذكر المسعودي في كتابه عن بعض العلماء أن..) اهـ، فمن هم هؤلاء العلماء؟! وما حقيقة قولهم!؟ وهل هم حقًّا يخالفون السلف أو يقولون بنظرة تطورية للكائنات؟ !!هذا هو ما وجده الدكتور عبد الصبور شاهين وفقه الله وما أداه إليه البحث العلمي الرصين!

ثمّ إنّ الدكتور يبدأ الفقرة بقضية (آدم هو أول الخليقة)، فيزعم أن جمهور السلف على أنّ آدم هو أول الخليقة، ثم يزعم أنّ هناك بعضٌ من علماء السلف على أنّ آدم ليس أول الخليقة، ولا أدري من أين أتى الدكتور بهذه الدعاوى وما علاقتها بنظرية التطور أو وجود "اوادم" قبل آدم!؟ وعلى أيّ من القولين(!) فإنّه إما أن يكون

(٨) د. عبد الصبور شاهين، أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، ص ٥١ و٥٢.

آدم أول الخليقة، أو أن تكون غيره من الأمم قد سبقته، وليس في أحد القولين أنّ هناك "أوادم" قبل آدم! ونحل "جمهور السلف" قولًا بأن آدم أول الخليقة مجازفةً عظيمة! إذ ليس في السلف واحدٌ يقول –أو ينسب إليه القول– إن آدم أول الخليقة، وليس فيهم من يقول إن هناك أوادم قبل آدم! ولا أدري أحقًّا يظن الدكتور أنّ هناك خلافًا "عاشت فيها الآراء المتناقضة جنبًا على جنبٍ" بخصوص "الأوادم!" أم هو يسعى إلى اختلاق ذلك اختلاقًا؟

أما ما حكاه الدكتور عن المستظرف عن المسعودي عن بعض العلماء من وجود عجائب المخلوقات قبل آدم، فإن الدكتور يقول "ما نحسب أنهم اعتمدوا على شواهدَ مادية"، ثم يقول إنها "محض تخيلاتٍ هداهم إليها تأملهم المنطقي في أحوال الدنيا"، فما هو التأمل المنطقي الذي يؤدي إلى القول بوجود هذه الكائنات العجيبة؟!! ولا يمتنع في العقل أن توجد مثل هذه الكائنات، لكن لا يقال إن القول بوجودها يؤدي إليه "التأمل المنطقي"! غير أنّ الدكتور يريد أن يضفي على القول "الذي يحسبه –أو يجعله!– سلفًا له" شيئًا من المنطقية!

وهذه الكائنات العجيبة التي ذكر الدكتور حكايتها عن المستظرف عن المسعودي عن بعض العلماء! هي (ذوات الأجنحة.. أبدانٌ كالأسود ورؤوسٌ كالطير.. نصف الإنسان بيدٍ ورجلٍ.. وجهه كالآدمي وظهره كالسلحفاة....إلخ) اهـ، فالعجب أن يقفز الدكتور على هذا القول ليقول إنه بعد استبعاد ما لا دليل عليه من الأشكال (أن الأرض كانت معمورة قبل آدم، سواء بمثل تلك الأصناف أو بأصناف أخرى كالديناصورات، أو الماموث أو بأوادم آخرين قبل آدم أبينا على ما قرره بعض العلماء)، فهل يرى امرؤٌ عنده مسحةٌ من إنصافٍ وعدلٍ أنّ "بعض العلماء" قد قرروا وجود "أوادم آخرين!" قبل آدم!

الخلاصة؛ ما استطاع واحدٌ من الذين يحاولون التوفيق بين نظرية التطور والإسلام أن يأتي بسلفٍ واحدٍ من أهل القبلة جميعًا يقول بأن الإنسان انحدر عن حيوانٍ أدنى منه، أو أنّ صنوف الكائنات أتت من أصلٍ واحدٍ مشتركٍ بعمليةٍ تطوريةٍ طبيعية، فهذه النظرية خارجة تمامًا عن العقيدة الإسلامية، بل لم توجد في أعمال أهل الضلال والبدع والباطنية، أفتراهم جميعًا كانوا على ضلالةٍ، لا يحسنون فهمَ النصوص -رغم يسر تصور نظرية التطور- حتى جاء داروين ليصلح لهم عقيدتهم ويسدد فهمهم؟! وما الذي يضطر إخواننا للتوفيق بين الإسلام وهذه النظرية، ولو تعلموا وصبروا لوجدوا أنهم أساءوا في تصحيح هذه النظرية، كما أساء من نسبها لسلفٍ من أهل القبلة إذ أراد إحسانًا.

المراجع

المراجع العربية

(١) القرآن الكريم.

(٢) كتب السنة: البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) أسماء الله الحسنى الدالة على الخلق والإبداع وإعادة الخلق، أكاديمية أسس للأبحاث والعلوم، سلسلة منشورات أكاديمية أسس للأبحاث والعلوم ٥، دار الخلفاء الراشدين.

(٤) د. أحمد شوقي، ثلاث قصص علمية: البيولوجيا – التطور – الوراثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠١٣.

(٥) آن جوجر ودوجلاس أكس وكيسي لسكين، العلم وأصل الإنسان، ترجمة د. مؤمن الحسن ود. موسى إدريس، مركز براهين ٢٠١٥.

(٦) د. جوناثان ويلز، أيقونات التطور، ترجمة د. موسى إدريس ود. أحمد ماحي ود. محمد القاضي، مركز براهين ٢٠١٥.

(٧) جيري كوين، لماذا التطور حقيقة، ترجمة لؤي عشري، نسخة إلكترونية.

(٨) حسين الجسر، الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية، عني بمقابلة أصوله وتصحيحه رضوان محمد رضوان ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

(٩) حسين الجسر، الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقّيّة الشريعة المحمدية، تقديم عصمت نصار، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، ٢٠١٢.

(١٠) دوجلاس فوتوياما، العلم قيد المحاكمة، ترجمة أحمد فوزي، مراجعة فتح الله الشيخ، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٢.

(١١) ديفيد كوامن، داروين مترددًا – نظرة مقربة لتشارلز داروين وكيف وضع نظريته عن التطور، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠١٣.

(١٢) ستيفن جاي جولد، منذ زمن داروين – تأملات في التاريخ الطبيعي، ترجمة د. ستار سعيد زويني، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، الطبعة الأولى ٢٠١٢.

(١٣) د. صلاح عثمان، الداروينية والإنسان – نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف – الأسكندرية، ٢٠٠١.

(١٤) عماد بابكر وعلاء الدين بابكر، آذان الأنعام، دار عزة للنشر، الخرطوم، الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

(١٥) د. عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

(١٦) د. عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١١.

(١٧) د. كريم حسنين، الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية ٢٠٠٢.

(١٨) ريتشارد دوكينز، الجديد في الانتخاب الطبيعي، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢.

(١٩) ريتشارد دوكينز، أعظم استعراض فوق الأرض، ترجمة وتقديم مصطفى إبراهيم فهمي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

(٢٠) د. مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، ترجمة د. مؤمن الحسن ود. أسامة إبراهيم ود. زيد الهبري وآخرون، مركز براهين ٢٠١٥.

(٢١) د. محمد فوزي جاب الله، التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامي، بدون دار نشر ١٩٩٢.

(٢٢) د. مصطفى محمود، الله، الطبعة السابعة، دار المعارف.

(٢٣) د. مصطفى محمود، لغز الحياة، دار المعارف، الطبعة السادسة ١٩٩٢.

(٢٤) هشام عزمي، الإلحاد للمبتدئين، مركز براهين، الطبعة الثانية ٢٠١٥.

(٢٥) د. ويليام ديمبسكي ود. جوناثان ويلز، تصميم الحياة، ترجمة د. مؤمن الحسن ود. محمد القاضي ود. موسى إدريس، مركز براهين ٢٠١٥.

(٢٦) د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩.

المراجع الأجنبية

(1) Francisco Ayala, Darwin's Gift To Science And Religion, Joseph Henry Press, Washington DC, 2007.

(2) Francis S. Collins, The Language of God – A Scientist Presents Evidence for Belief, Free Press, New York London Toronto Sydney, July 7 2006.

(3) Jay W. Richards, God and Evolution, Discovery Institute Press Seattle, 2010.

(4) R. Webster Kehr, The Evolution of Evolution, version 3.1, Nov. 2012.

(5) R. Webster Kehr, Introduction to the Mathematics of Evolution, Second Edition 2009.

(6) Stephen Jay Gould, The Structure of Evolutionary Theory, 2002.

الفهرس

الفهرس

الباب الثاني

التطور الموجه والدين



دار الكاتب للنشر والتوزيع
Dar Alkateb for Publishing and Distribution

مرة أخرى -لن تكون الأخيرة- مع ملف الداروينية، ومع فرع هو الأكثر خطورة في هذا الملف حيث يلتقي التطور فيه مع العلم والدين. وهذا الكتاب هو في بيان ضعف وتهافت الداروينية من منظور علمي، وأن الدعم المؤسسي والأكاديمي المقدم لها يتجاوز مجرد التأييد العلمي الطبيعي لنظرية تخطئ وتصيب، بل هو غارق حتى الآذان في الأدلجة والتحيز، فضلاً عن التضليل والتدليس المتعمد. وليس في هذا انتقاصٌ للعلم الحديث ومعطياته وإنجازاته ولا إعلانٌ للحرب على العلوم والثقافة والمعرفة ولا طلبٌ للجهل والتخلف والبلادة ولا دعوةٌ للتخندق والانغلاق والسماجة، بل هي رؤية نقدية علمية تتبع الدليل ولا تسير وراء الدوجما المادية العمياء.

وأنها لا تنهض علميًا لمعارضة نصوص الوحي، فضلاً عن أن تفوقها في الدلالة بما يلجئ لتأويلها. وأن الخلاف الحاصل بين الإسلام والداروينية ليس أمرًا سطحيًا هامشيًا، بل هو يعود إلى الأصول الفلسفية المنهجية التي قامت عليها هذه النظرية، وأن أي محاولة للتوفيق بينها وبين الإسلام لن تقوم إلا على تحريف لإحدى الطرفين أو كليهما.

أنصار الداروينية الحديثة أرادوا العبور بها من بابي (العلم) و(الدين)، وحتى الآن لم ينجحوا في أي من ذلك.

مركز براهين



ISBN 978-977-6545-16-8

9 789776 545168

دار الكاتب للنشر والتوزيع
Dar Alkateb for Publishing and Distribution

العنوان: شارع شبين الكوم - الإسماعيلية - مصر
Dar-Alkateb.com - info@Dar-Alkateb.com
هاتف: (002)01015577460 - (002)01271031218